وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة أبو بكر بلقايد-تلمسان-

كلية الآداب واللغات

قسم اللغة العربية وآدابها

أثر الحضارة العربية الإسلامية على الأدب العباسي

رسالة لنيل شهادة الدكتوراه في الأدب والحضارة

تخصص:الدراسات الأدبية والحضارة الإسلامية

إعداد الطالبة: **إشراف الأستاذ الدكتور**

شرقي وسيلة **محمد مرتاض**

لجنة المناقشة

-أ.د محمد الزمري أستاذ التعليم العالي من جامعة تلمسان رئيسا

-أ.د محمد مرتاض أستاذ التعليم العالي من جامعة تلمسان مشرفا

-أ.د حسين فارسي أستاذ التعليم العالي من جامعة تلمسان عضوا

-أ.د مراد قايد سليمان أستاذ التعليم العالي من جامعة وهران عضوا

-د محمد سعيدي أستاذ محاضر أ من جامعة مستغانم عضوا

السنة الجامعية:2016-2017

شكر وعرفان

الحمد لله الذي أنار لنا دربنا وأعاننا على إنجاز هذا العمل.

أتوجّه بالشّكر الجزيل والامتنان والتقدير إلى أستاذي الفاضل :"الأستاذ الدّكتور محمد مرتاض" فهو الشّعاع الذي أنار طريقي بإرشاداته وأمدّني بالصّبر والتّشجيع طوال مدّة البّحث.

أتقدم بشكري الخالص إلى أساتذتي الكرام وكل من أسهم في تعليمي.

إهداء

-إلى زوجي الغالي الذي كان خير دعم لي طوال فترة بحثي .

-إلى والديّ اللّذين غرسا في نفسي حبّ المعرفة.

-إلى أغلى هبة من الله عز وجلّ :ابني إسحاق.

-إلى شقيقي الأكبر محمد الأمين وأختيّ فاطمة وياسمين.

-إلى كل فرد من أفراد عائلتي وعائلة زوجي دون استثناء.

-إلى أختيّ اللّتين لم تلدهما لي أمي: زكية وفايزة.

-إلى كل زملائي وإلى كل زميلاتي بثانوية مداني بوزيان

مـــقـــــدمـــة

بسم الله الرحمن الرحيم

إنّ الإنتاج الأدبي في أي عصر من العصور؛ ما هو إلا مرآة عاكسة لمجتمع ما في زمن معيّن ،وما التّغيرات التي تطرأ عليه إلّا استجابة لتطورات جديدة تندرج في مسار ذلك الواقع الذي يزوِّد الأديب بمختلف العناصر الإبداعية .ولقد ساير الأدب العباسي الواقع الحضاري الجديد الذي آلت إليه البيئة الإسلامية ،فنطق بلغتها الحضارية التي تسرَّبت إلى مختلف مجالات الحياة ،فانعكست مميِّزات العصر العباسي على أدبه شعرا ونثرا .وما نكاد نمعن النَّظر في جديد طرأ عليه حتى نجد الشَّواهد الأدبيّة الغزيرة تؤكّد ما سبق ،بل نجدها أبلغ وأصدق من كل حديث .ومنه جاء موضوع بحثي : ((أثر الحضارة العربية الاسلامية على الأدب العباسي)) ،والذي حاولت من خلاله التّعرض للعلاقة الحميميّة القائمة بين الحضارة العربية الإسلامية والأدب العربي القديم ،وركَّزت على مدى تأثير هذه الحضارة في الأدب العربي بعامة، والأدب العباسي بخاصة.

وتجدر الإشارة إلى أن الأدب العباسي قد حظي باهتمام كبير من قبل الباحثين،ولكن علاقة هذا الأدب بالحضارة الإسلامية لم تلق الاهتمام الكبير –حسب علمي – ومن ثمّ ،فقد حاول هذا البحث أن يتطرق إلى هذه الاشكالية التي استعصت عليّ كثيرا أوّل الأمر .ولكن ،ومع كثير من الإصرار والبّحث ،تأتّى لي التّوصل إلى المزاوجة بين جانبي الأدب والحضارة ،ولست أفشي سرّا إذا ذكرت في هذا الصدد أنّ الدّراسات المخصّصة لهذا النّوع من الدراسات شبه منعدمة ،ولم تمس بعض جوانبها إلّا عبر مقالات مقتضبة في دوريات أو مواقع إلكترونية ،ولذلك فإنّ الدّراسات التي سبقت موضوعي هذا لامست قليلا الموضوع الذي أنا بصدد معالجته؛ منها: تاريخ الأدب العربي لشوقي ضيف ،وضحى الإسلام لأحمد أمين ،والشِّعر والشّعراء في العصر العباسي لمصطفى الشكعة ،والآداب العربية في العصر العباسي لمحمد عبد المنعم

خفاجي ،والشّعر في بغداد حتّى نهاية القرن الثّالث الهجري ،أحمد عبد الستّار الجواري ،والعقد الفريد لابن عبد ربّه ،والشّعر والشّعراء لابن قتيبة ،والأغاني لأبي فرج الأصفهاني ،ومروج الذّهب للمسعودي.

أما سبب اختياري هذا الموضوع فيعود إلى غياب العناية بالجانب المشار إليه آنفا من وجهة ،ورغبة منّي في البحث عن زوياه التي ظلّت غير مضاءة من وجهة أخرى ،أضف إلى ذلك سببا آخر ذاتيا والذي تمثّل في الفضول الذي انتابني بعدما قمت بتحضير مذكرة ماستر ،والتي تطرقت فيها على مدى تأثير الحضارة العربية الاسلامية في الأدب العربي القديم بصفة عامة ،فأردت أن أبحث مجدّدا في هذا المجال ،ولكنّي ركزت هذه المرّة على فترة الحكم العباسي التي مثّل فيه الأدباء البيئة الحضارية أحسن تمثيل ،وتحرّكت قرائحهم كي تعكس مختلف المقوّمات الثّقافيّة والمظاهر الحضارية التي كانت شائعة آنذاك.

ولقد أسست خطة دراستي هذه على مجموعة من الأهداف ،سعيت من ورائها إلى الكشف عن أبرز جوانب التحوُّل الذي عرفته الحياة الاجتماعية والفكرية والحضارية ، ومدى تأثر الأدب العباسي بهذه المظاهر .ويمكن تلخيص أهداف البحث في النقط الآتية:

-دراسة تأثير الإسلام في الأدب والحضارة.

-دراسة واقع الحضارة العربية الإسلامية في العصر العباسي.

-دراسة الحالة الأدبيّة النّاجمة عن تأثير الحضارة.

-التّطبيق على بعض المقطوعات الشِّعرية التي تمثِّل هذا التّأثير.

أما المنهج الموظَّف في هذا البحث ،فهو المنهج الوصفي مع الاستعانة بالمنهج التّاريخي والفنّي أحيانا عندما تعلَّق الأمر بتحليل مقطوعات شعريّة.

وللإجابة على الأسئلة الملقاة في ثنايا البحث أو بعضها على الأقل قسَّمت بحثي إلى تمهيد وأربعة فصول.

ففي التمهيد تعرّضت لعلاقة الأدب بالحضارة فتطرّقت إلى أثر الأدب على المتلقي ثم دور الأدب ومكانته في الحضارة العربية الإسلامية ثم مدى تأثر الأدب بالحضارة.

وتعرّضت في الفصل الأول بالدّرس والتّحليل إلى واقع الحياة الأدبية في عصر صدر الإسلام والعصر الأموي ومدى تأثرها بالدين الإسلامي فحاولت في البداية الوقوف على مدى تأثيره في حياة العرب الدينية والاجتماعية والعقلية والحضارية ،ثم قمت بتصنيف موضوعات التأثير الاسلامي على أساس الشّواهد الشّعرية والنّثرية التي وجدتها متأثرة بمبادئ الإسلام وبالأسلوب القرآني وبالحديث النّبوي ،وعلى هذا الأساس قمت بدراسة استقصائية وتحليلية للمحاور المذكورة سالفا.

وتناولت في الفصل الثاني نبذة عن قيام الخلافة العباسية ،ثم تطرّقت للمظاهر الاجتماعية السّائدة في البيئة العباسية كانتشار الجواري والغلمان ،والشّعوبية ،والزّندقة وغيرها ،ثم توقّفت عند أهم المظاهر الفكرية ولاسيّما حركة الترجمة ومدى تأثير الثقافات الأجنبية في الحياة الفكرية ،ثم تناولت مظاهر الثّراء والتّرف في البيئة العباسية كالتّأنق في المطعم والمشرب واللباس وأدوات الزّينة ،كما تطرّقت لأدوات التّسلية والتّرويح وبعض المظاهر العمرانية التي اتّسمت بها الحضارة العباسية.

وتطرّقت في الفصل الثالث لمواطن التأثير الحضاري في الأدب العباسي من خلال تقديم موجز حول ملامح الأدب العباسي ،كما حاولت الوقوف عند تجلّيات التّأثير الاجتماعي في الشّعر العباسي ثم تَمثُّله للحياة الفكرية.

أما الفصل الأخير فقد خصِّصَ للمظاهر الحضارية الماديّة في الشعر العباسي من قصور وجسور ورياض وسفن وغيرها.

وختمت البحث بخلاصة عامة تضمنّت أهم النّتائج التي توصلت إليها في هذا البحث ،ثم فهرس للمواد وقائمة للمصادر والمراجع.

أما الصّعوبات التي اعترضت سبيلي في أثناء إعداد بحثي فتمثّلت في طبيعة العصر العباسي المعقّدة على مختلف الأصعدة وشتّى الميادين ،بالإضافة إلى مدَّته الطويلة التي جعلت من الإلمام بجميع مظاهره غاية في الصعوبة. وبالرّغم من حصر دراستي في حقل معين من هذا العصر الشّاسع إلّا أنّها تميّزت بالعموم لكثرة روافده وتشعب دروبه.

وفي الأخير أتمنّى أن أكون قد وُفِّقتُ بعض التوفيق في إنجاز عملي هذا ،والذي لم يكن ليكتمل لولا مشيئة الله سبحانه وتعالى وأستاذي الفاضل الدكتور (محمد مرتاض) الذي غمرني بعطفه وتوجيهه. ولعلّ رجائي الأخير هو أن يسهم هذا البحث في فتح المجال لدراسات تكون أكثر عمقا وشمولا.

تلمسان في :2016/12/01

الطالبة:شرقي وسيلة

مـــــدخـــــــل

علاقة الأدب بالحضارة

لقد اهتمّت الدّراسات الحديثة لفنّ الأدب بمختلف جوانبه ،ولم تتوقف عند حدود دراسة النّصوص كقطعة فنّية ،وإنما حاولت كذلك التّطرق إلى مختلف المؤثّرات النّفسيّة والاجتماعية التي قد يتلقّاها الأديب كفرد في مجتمعه في أثناء عمليته الإبداعيّة ،كما حاولت الوقوف على مدى تأثّر المتلقّي بهذه الأعمال الأدبيّة.

ولا يخفى أنّ التحضّر من المميّزات السّامية التي قد يتميّز بها مجتمع من المجتمعات ،وبذلك فلا يمكننا التّحدث عن الحضارة بمعزل عن المجتمع الذي احتضنها وعمل على رقيّها ،وسنحاول الكشف عن العلاقة الحميميَّة التي تجمع الأدب بالحضارة انطلاقا من عملية التأثر والتأثير وسط البيئة المعيشة.

1-ضبط المفاهيم:

أ-**مفهوم الأدب** :لقد خضع مفهوم الأدب للتطوّر بتطوّر الحياة البشرية ،وقد مرّ بعدة محطّات قبل أن يصل إلى المفهوم الذي هو عليه في عصرنا الحالي.وبالرّغم من تعدّد التعاريف فإنّ معظمها تتّفق على أنّ الأدب لغة إبداعيّة ،يتأثر ويؤثر في البيئة الاجتماعية التي ينشأ فيها ،يقول ميشال عاصي:"الأدب هو أحد الفنون الجميلة الخمسة :كالرّسم والنّحت والرّقص والموسيقى ،مثلها جميعا صناعة فنّية يعبّر بها التعبير المؤثر الجميل عن طوايا النفس البشرية في كل ما تضطرب به ،من أشتات الرؤى وخواطر الوجدان ،ولا يختلف عنها في شيء من حيث الغاية التأثيرية التي يسعى إليها كل فنّ جميل ،ومن حيث إنّها جميعا نشاطات جمالية من جملة النشاطات التي تؤلف القطاع العقلاني."[1]

إنّ هذا المفهوم لم يحصر الأدب في زاوية ضيّقة ،حيث نجد المؤلف يشير إلى المؤثّرات الوجدانية باعتبار أنّها منبع وجوده ،ثم يؤكّد غايته التأثيرية كغيره من الفنون

[1]-الفنّ والأدب،دط،المكتب التجاري للطباعة والنشر ،بيروت،دت:74

الجميلة ؛كما عرَّفه أنطونيوس بطرس فقال :"الأدب هو الإنسان ،بكل ما لكلمة إنسان من معنى ،لأنّه يصدر عنه ويتحدّث عن همومه وشؤونه ومشاغله ،وهو في ذلك انطلاق حُرّ لا يمكن تحديده لأنّ النّفس الإنسانية بعيدة الغور مترامية الأبعاد ومن العسير قوننتها وإخضاعها للتّحليل العلمي الصّرف ،ومن المستحيل حصر الأدب في حقل الفّكر الموضوعي وتجريده من الارتعاشات الذّاتية التي تعطيه بعده الإنساني وجماله وديمومته."[2]

وانطلاقا من هذا المفهوم يتضح أنّ منبع الأدب هو النّفس الإنسانية التي لا يمكن إخضاعها لأي شيء ،حتى لا يفقد الأدب جماله الإبداعي وتميّزه الإنساني النابع من وجدان الأديب وأحاسيسه ومشاعره وقناعاته المكبوتة بداخله ،لذلك وصفه بالإنسان الذي يصنع هذا الفنّ ثمّ يتلقّاه غيره من قرّاء ونقّاد ،فهو من الإنسان ثمّ يعود إليه.

ويعرِّفه (رنيه وليك) بقوله :"الأدب ناموس اجتماعي ،يتّخذ اللّغة وسيلة له التي هي وليدة المجتمع. والأدوات الأدبية والتقليدية مثل الرّمزية والعروض هي بطبيعتها أدوات اجتماعية ،إنها تقاليد ومستويات لم تكن لتنشأ إلاّ في إطار اجتماعي ،بل أبعد من هذا ،إنّ الأدب يحاكي الحياة ،والحياة (في معظمها) حقيقة اجتماعية ،رغم أنّ عالم الطبيعة الخارجي ،والعالم الداخلي الذّاتي للفرد كانا أيضا موضوعا للمحاكاة الأدبية..."[3]

ويتَّفق أحمد رشوان كذلك على دور المجتمع في عملية الإبداع الأدبي فيقول:"الأدب نتاج عقلي وثقافي شديد الارتباط بالبيئة الاجتماعية. "[4]

---

[2]-الأدب:تعريفه،أنواعه،مذاهبه،دط،المؤسسة الحديثة للكتاب،لبنان،2005 :9.

[3]- نظرية الأدب،ترجمة عادل سلامة،دط،دار المريخ،الرياض،1992 :132.

[4]-الأدب و المجتمع-دراسة في علم اجتماع الأدب،ط1،المكتب الجامعي الحديث،إسكندرية،2005 :47

ويعرِّفه محي الدّين أبو شقرا قائلا :"الأدب ليس مجرد ألفاظ وتراكيب ،بل يحمل صورا ،ومعاني وأحكاما مختلفة هي تعبير عن موقف الإنسان من الوجود والمجتمع والحياة في تفكيره وانفعالاته ونزوعه ،في تقبّله ما يقبله ،وفي رفضه ما يرفضه."[5]

تتويجا للتّعاريف السّابقة يمكن أن نقول :إنّ الأدب نشاط إنساني ،وسيلته اللّغة،يخضع لمختلف المؤثّرات الاجتماعية في نشأته وتطوّره ،ويكمن هدفه من خلال غايته التأثيريّة في الفئة الموجّه إليها.

ب- مفهوم الحضارة :إنّ الحضارة كأي فنّ متميّز عرفت تعاريفا لا تكاد تحصى،وسنقتصر على أهم الآراء فيها ،يقول حسين مؤنس في نشأتها :"الحضارة هي ثمرة كل جهد يقوم به الإنسان لتحسين ظروف حياته ،سواء كان الجهد المبذول للوصول إلى تلك الثّمرة مقصود أم غير مقصود ،سواء كانت الثّمرة ماديّة أو معنوية."[6] فالحضارة بهذا المفهوم هي نتيجة كل مجهود هدفه تحسين ظروف الإنسان ،وهذه الثّمرة قد تكون ماديّة والمقصود من ذلك الرّكن المادي للحضارة والمتمثّل في المدنية،وقد تكون معنوية والمقصود هنا الجانب المعنوي للحضارة والمتمثّل في **الثّقافة**.

ج-مفهوم الثّقافة :وعرفت هي كذلك تشعبّا في المفاهيم ،وتنوعّا في التّعاريف لعل أشهرها ما قاله إدوارد تايلور في أواخر القرن التاسع عشر :"الثقافة هي كل مركب يشتمل على المعرفة والمعتقدات ،والفنون والأخلاق ،والقانون والعرف ،وغير ذلك من الإمكانيات أو العادات التي يكسبها الإنسان باعتباره عضوا في المجتمع ."[7] فالثّقافة انطلاقا من هذا المفهوم يقصد بها الأفكار والمفاهيم والعادات والأنظمة والشّرائع واللّغة

[5]-مدخل إلى سوسيولوجيا الأدب العربي،ط1،المركز الثقافي العربي،المغرب،2005 :45.

[6]- الحضارة،دراسة في أصول وعوامل قيامها وتطورها،ط1،المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب،الكويت،1990 :13.

[7]- نظرية الثقافة،مجوعة من الكتاب،ترجمة:علي سيد الضاوي،دط،المجلس الوطني للثقافة والفنون،الكويت،1997: 9.

والتّاريخ والأدب ،وبذلك فهي تمتاز بإبراز شخصيّة الأمَّة ،وهي المسؤولة عن قوَّتها وضعفها ،وعن بقائها واندثارها ،وهذا يعني أنّ الأدب ركن من أركان الثّقافة.

وبما أنّ **الأدب** ركن في **الثّقافة** والثّقافة بدورها هي الرّكن الرّوحي **للحضارة**،يمكن القول إنّ الأدب ركن في الحضارة ومظهر ثقافيّ لها ،ينسجم معها ويؤثِّر فيها ويتأثَّر بها.

2-أثر الأدب على المتلقي

تتحدّد قيمة العمل الأدبي بمدى تأثّر الأديب ببيئته وكل ما يحيط بها من ظواهر،وبحجم الأثر الذي قد يخلِّفه في المجتمع ،وبذلك فلا يمكننا أن نتحدث عن الأدب بمعزل عن المجتمع الذي يمثّل المؤسّسة الموجِّهة لكل الإبداعات والمتلقي الوحيد لكل الأعمال الأدبيّة. وهذا ما أشار إليه ميشال عاصي فقال:"الفنّان إجمالا مسؤول عن تقدّم مجتمعه وتأخرّه ،باعتباره مشاركا فيه ،وباعتباره متأثّرا به ومؤثِّرا فيه،ولعلّ مسؤولية الأديب أعظمها شأنا ،وأبعدها خطرا ،لأنّ الأدب وحده من دون سائر الفنون يقوم على مادّة الألفاظ اللّغوية ،أي على مدلولات معنوية صريحة ،فيما تتوسّل الفنون الجميلة الأخرى بمواد النّغم واللّون والشّكل والحركة."[8]

ويؤكِّد ذلك أيضا سعدي الضاوي فيقول :"إنّ الفنّ يهدف دوما إلى الاستحواذ على رضى وإعجاب ،فهو عمل موجّه مرتبط بالجِّهات التي يتوجّه إليها ،وفنّ الأدب بالذّات،بوصفه فنّا مرتبطا بالكلمة ،وهي من إنتاج الجماعة ،يكون حتما رسالة موجّهة إلى جمهور ،معتمدة مفاهيمه وعواطفه وخبراته وذوقه وآماله ،وعليها أن تحوز رضاه."[9]

---

[8]-الفنّ والأدب:42

[9]-مدخل إلى علم اجتماع الأدب،ط1،دار الفكر العربي،بيروت،ط1994،1 :9

إنّ الأدب يؤدّي دورا مهما في حياة الأديب والمجتمع على السّواء ،من حيث إنّه ينمّي في الكاتب القدرة على التّعبير عن النفس في حين يتلقّى المجتمع العمل الأدبي على أنّه نوع رفيع من المتعة لامتزاجه بالمنفعة. ولقد حدّد ميخائيل نعيمة أهمية الأدب في حياة الإنسان فقال :"وربّ قصيدة أثارت فيه عاصفة من العواطف ،ومقالة تفجّرت لها في نفسه ينابيع من القوّة الكامنة ،أو كلمة رفعت عن عينيه نقابا كثيفا ،أو رواية قلبت إلحاده إلى إيمان ويأسه إلى رجاء وخموله إلى عزيمة ورذيلته إلى فضيلة ،تلك مزية خصّ بها الأدب."[10]

وإذا كان الارتقاء في مجتمع معيّن يعني :"الانتقال بالبنية العليا (الثّقافة والفنون والآداب) وبالبنية التّحتية (الأوضاع الماديّة وظروف الإنتاج وأشكاله وأدواته) إلى الأعلى في اتجاه الحريّة،"[11] فإنّ هذا يعني أنّ للأدب دورا في تقدّم المجتمعات ،لأنّه يشتمل على نواحي الحياة الرّوحية كلّها فهو يمثّل الجانب المعنوي الذي يكمّل الجانب المادي في مسار الحضارات على اختلاف أزمنتها وأمكنتها ؛وبذلك فللأديب مسؤولية في تقدّم مجتمعه وتأخرّه كونه عضو فعّال فيه.

ولا يخفى أنّ الأدب يحمل في طيّاته جانبا تاريخيا مهمّا من حيث إنّ الجيل السابق ينقل للاّحق أخباره وكل ما يتعلّق بتفاصيل حياته السياسيّة والاجتماعية والثّقافية وحتّى الفكرية ،وبذلك يعدّ هذا الأدب الماضي تراثا أصيلا يصوّر لنا جوانبا وقيّما مضت،ومن وجهة أخرى يجعلنا نولّي اهتمامنا لهذا التّراث الذي يعد جزء منّا.

هذا ،وقد أكّد جورج براندیس على أهميّة دراسة التّأثير الذي قد يخلِّفه الأدب في المجتمع فقال :"الكتاب الأدبي ليس نهاية في حدّ ذاته أو مجرد نتيجة للمؤثّرات

[10]- الغربال،ط15 ،نوفل،بيروت،1991: 27.
[11]- الأدب والمجتمع،حسين عبد الحميد أحمد رشوان:211

الاجتماعية ،وإنّما هو قوة مستمرة ،وأنّ مهمة النّاقد الأدبي لا تقتصر على تبيِين هذه المؤثّرات الاجتماعية في الأدب ،وإنّما عليه كذلك أن يتّبِع المضاعفات التي ينطوي عليها تأثير الكتاب الأدبي في المجتمع."[12]

إنّ الأدب يؤثِّر في المتلقي من حيث إنّه يعمل على تغيير المجتمع ،ولقد أدّى الأدب العربي القديم دوره بامتياز من حيث إنّه كان للشعر الجاهلي أثره على البيئة العربية آنذاك ،كما كان للخطابة في عهد رسول الله (ﷺ) صدى كبير في نشر الدّين الإسلامي وفي الدّعوة إلى الكفاح من أجل رفع راية الإسلام في مختلف أنحاء المعمورة.

ويتحدث (حسين عبد الحميد أحمد رشوان) عن أثر الشّعر السّياسي في البيئة الأموية فيقول :" ولقد كان للشّعر السياسي في العصر الأموي أثر في البيئة الأموية،حيث أسهم في إحياء العصبيات وإثارتها."[13] وهو ما نتج عنه ظهور أحزاب سياسية ،حيث كان لهذا الأدب (شعرا ونثرا) دور في الدفاع عن تلك الأحزاب بواسطة الجدل والمناظرات ،كما كان لشعر الحكمة في العصر العباسي أثر في نفوس المتلقين،حيث كان يسوقهم إلى الكمال ويحفِّزهم إلى المثل الأعلى ،وانتشر شِعر المديح في البيئتين الأموية والعباسية بصورة تسترعي النظر وكان هذا الأمر طبيعيا ،لأنّ كل حزب كان ينافح عن صاحبه ،أضف إلى ذلك أنّ السّياسيين كانوا على دراية تامة بقيمة الأدب وتأثيره في النّفوس ،فقرّبوا أهله وأغدقوا عليهم من الأموال والهدايا ما لا يصوَّر.

3-دور الأدب ومكانته في الحضارة العربية الإسلامية

[12]- دراسات في علم اجتماع الأدب،أمل حركة،دط،دار المعرفة الجامعية،مصر،دت:19.
[13]- ينظر :الأدب والمجتمع:173.

لقد كان لظهور الإسلام في البلاد العربية منعطف تاريخي وحضاري ،فأخرج العرب من سباتهم العميق من حيث إنّه جاء بقيَم جديدة فيها نفع للإنسانية ،ولقد استطاع هذا الدّين الحنيف أن يزرع في قلوب المؤمنين شغف العلم والإخلاص إلى كل ما سنّه الله في كتابه العزيز ،فوفّر بذلك أرضية خصبة لنمو حضارة إنسانية راقية،لأنّها وقبل كل شيء وليدة دين سماوي جاء للإنسانية جمعاء ،وما هي إلاّ سنوات قلائل حتّى بدأت بوادر هذه الحضارة في الظّهور ،وأخذت تنمو وتزدهر حتّى اكتمل نضجها في عهد الدّولة العباسية ،ولقد كان للأدب مكانة بين أحضان هذه الحضارة ،مؤثّرا فيها تارة ومتأثّرا بها تارة أخرى ،وتجدر الإشارة إلى أنه كان لتشجيع الخلفاء للأدباء وإعطائهم الجوائز والرّواتب مقابل أعمالهم الفنّية أثر في ازدهار الحياة الأدبية ،حيث أخذوا يتنافسون فيما بينهم لنيل مكانة مرموقة لدى الحكّام ،وفي هذا الصدّد يتحدّث محمد عبد المنعم خفاجي عن رعاية الخلفاء الأمويّين للأدب فيقول :"وكان لبعض خلفائهم الدّهاة شغف بالأدب على الإجمال ،ونخصّ منهم ثلاثة: معاوية وعبد الملك وهشام،حكم كل منهم أكثر من عشرين سنة ،وكانت لهم عناية بالأدباء وخصوصا عبد الملك،والأدب لا ينمو ويورّق ويثمر إلاّ في ظلّ محبّيه من الملوك أو الأمراء ،وإذا تدبّرتَ النّهضات التي مرّ بها الأدب رأيت لكلّ نهضة أميرا أو ملكا أخذ بناصرها وأحيا الأدب بتقديم أهله وتنشيطهم."[14]،ثم يذكر لنا ما كان يقوله عبد المالك بن مروان :"عليكم بطلب الأدب ،فإنّكم إن احتجتم إليه كان لكم مالا ،وإن استغنيتم عليه كان لكم جمالا."[15] والمقصود من هذا القول :إنه سيكون للمحتاجين من الأدباء رزق ينتفعون منه،وللأغنياء منهم متعة وفائدة. ولعلّ الأمثلة التي تعكس تشجيع الخلفاء للأدب كثيرة نذكر منها قول ابن عبد ربّه عن جرير:"لمّا أنشد عبد المالك بن مروان شِعرا فقال: من مدحنا فليمدحنا مثل هذا أو ليصمت...ثم أمر له بمائة ناقة..."[16]

[14]-الحياة الأدبية بعد ظهور الإسلام،دط،دار الجيل،بيروت:486.

[15]-المرجع نفسه: 355 .

[16]- العقد الفريد،ابن عبد ربه الأندلسي،تحقيق: مفيد محمد قميحة،ط1،دار الكتب العلمية،بيروت،1983: 331/1.

وتذكر المصادر أنّ بغداد في عهد الرشيد كانت تعجُّ بالعلماء والأدباء والشّعراء،ويروى أنّه لم يجتمع أحد من الخلفاء مثلما اجتمع بباب الرشيد ،[17]ولعلّ السّبب في ذلك يرجع إلى أنّه كان للخلفاء رغبة في تحصيل العلم والأدب ،وفي هذا الصدّد ينبّئنا البغدادي بأحد مواقف هارون الرشيد مع الأصمعي بعدما دخل عليه في مجلسه الحافل فقال :"يا أصمعي ما أغفلك عنّا ،وأجفاك لحضرتنا ،قلت :والله يا أمير المؤمنين،ما ألاقتني بلاد بعدك حتّى أتيتك. قال :فأمرني بالجّلوس ،فجلست وسكت عنّي ،فلمّا تفرّق النّاس إلاّ أقلهم نهضت للقيام ،فأشار إلي أن أجلس ،فجلست حتّى خلا المجلس ،فلم يبق غيري وغيره ومن بين يديه من الغلمان ،فقال لي:يا أبا سعيد ما ألاقتني ؟ قلت:أمسكتني(أو حبستني) يا أمير المؤمنين."[18] ثمّ أمر له الرشيد بخمسة آلاف دينار بعدما أنشده هذا البيت:

كفّــاك كــفٌ مــا تُليــق درهمًــا جودا وأخرى تعط بالسَّيف الدّما[19]

ولعلّ هذا ما يبين بوضوح المكانة الخاصة التي امتاز بها الأدباء ولاسيّما الشّعراء منهم في قصور الخلفاء. أضف إلى ذلك أنّ الخلفاء كانوا يجالسون العلماء ويأخذون عنهم ،فمثلا المنصور كان من روّاة الحديث والشّعر ،وكان المهدي محبّا لمجالس الشّعر شديد الشّغف بسماعه...وعلى هذا النّهج صار وزراؤهم وبخاصة برامكة الرشيد[20].

من هذا المنطلق يمكن أن نقول إنّ قرائح الخلفاء المتفتِّحة نحو العلوم والآداب كانت السّبب الرّئيس في تشجيعهم للأدباء والشّعراء وتقريبهم من القصور ،من حيث إنّه

---

[17]- الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية،محمد بن علي بن طباطبا،دط،دار صادر،بيروت،دت:196.

[18]-تاريخ بغداد،تحقيق:بشار عواد معروف،المجلد16 ،ط1،دار الغرب الإسلامي،لبنان،2001 :14

[19]-ينظر:المرجع نفسه:ن ص

[20]-. ينظر:تاريخ الأدب العربي في العصر العباسي الأول،حامد حفني داود،ط2،ديوان المطبوعات الجامعية،الجزائر:10 .

كان لكلّ خليفة من الخلفاء شاعر يصطفيه ويلازمه في البلاط ،بالإضافة إلى المجالس الأدبيّة التي كانت تعقد بين الأدباء والتي كانت تمسّ النثر والشِّعر[21].

ولقد شهدت حواضر الأندلس جوّا كالذي شهده المشرق الإسلامي حيث ينبّئنا المقرّي عن ذلك فيقول: "والشّعر عندهم له حظّ عظيم ،وللشعراء من ملوكهم وجاهة،ولهم عليهم وظائف والمجيدون منهم ينشدون في مجالس عظماء ملوكهم المختلفة ،ويوقع لهم بالصّلات على أقدارهم..."[22]

انطلاقا مما سبق يمكن أن نقول :إنّ جوّا كالّذي وفّرته هذه الأسباب الحضاريّة والاجتماعية والفكرية كان كفيلا لازدهار هذا الفنّ الرّاقي الذي كان له مكانة عظيمة في قلوب الحكام حتّى أغدقوا الأدباء بالهدايا الثّمينة والرّواتب التي قدِّرت بآلاف الدّنانير.

هذا ،وقد كان للأدب دور في بناء الحضارة العربية الإسلامية التي "اتّسمت بضخامة الإنتاج العلمي في مجال الفكر والثّقافة...ويتجلّى ذلك في العدد الهائل من المؤلّفات التي أنتجها العلماء والمفكرون المسلمون في شتى مجالات المعرفة"[23] ،وبما أنّ الأدب يشمل نوعين من ألوان الكلام :أعمال فنّية والتي تمثلها الأغراض الشِّعرية المختلفة ،وأعمال عقلية فكريّة ويمثّلها النّثر الذي يعدّ طريقها لتحرّره من القوالب ولوضوح أسلوبه ودقّته[24] ،فقد أسهم هذا الأخير (كوسيلة للتّعبير) في تدوين مختلف العلوم والأخبار والتي توارثتها الشّعوب وأكمل اللّاحق نواقص السّابق ،وبذلك بنيت الأسس المتينة لهذه الحضارة ودُوِّنت الكتب في شتى العلوم ،فظهرت مجموعة من المكتبات التي قدمت للأجيال تراثا غنيّا تفتخر به المكتبات العربية لحدّ الآن ،كما

---

[21]-. ينظر: الحياة الأدبية بعد ظهور الإسلام،محمد عبد المنعم خفاجي: 354

[22]-. نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق:إحسان عباس،المجلد1،،دط،دار صادر،بيروت،1968 :222

[23]- الحضارة الإسلامية،عبد المقصود عبد الحميد أبو عبية،المجلد1،ط1،دار الكتب العلمية،لبنان،2004: 5

[24]- ينظر:الفنّ والأدب،ميشال عاصي:83

استفادت منه الأمم الأجنبيّة في النّهوض بحضارتها ،وبفضل هذه الحضارة اتّسع نطاق النّثر بعد أن كاد يقتصر على الخطابة في العصر الجاهلي وصدر الإسلام ،وأصبح يشمل الرسائل الإدارية والمناظرات العلمية والأدبية التي أسهمت في ازدهار الحركة العلمية ،وبفضل ذلك "تغلغلت المعرفة والثّقافة في جميع الأوساط حتّى أواسط العامة وأصبحت غذاء لجميع العقول والقلوب."[25]

ولابد من التّأكيد أنّه كان للنّثر مكانة عظيمة في البيئة الأندلسية ،مثلما ذكر المقري:"وعلم الأدب المنثور من حفظ التّاريخ والنَّظم والنّثر ومستطرفات الحكايات أنبل علم عندهم ،وبه يتقرَّب من مجالس ملوكهم وأعلامهم ومن لم يكن فيه أدب من علمائهم فهو غفل مستثقل."[26].

وفضلا عما أشرنا إليه من قبل فإنّ النّثر أدّى دوره بامتياز في حركة النّقل والتّرجمة التي عرفتها البيئة الإسلامية ،فكان الأداة الأكثر خدمة في نقل علوم الأوائل إلى اللّغة العربية ،وفي المقابل أدّت الترجمة دورا مُهِمّا من حيث أنّها فتحت المجال للتأليف في العديد من الموضوعات ،وأدخلت كمّا هائلا من المصطلحات الأعجميّة في اللّغة العربية. فأصبح بذلك النّثر أوسع للتّعبير وأكثر انفتاحا على العلوم ،كما أضحى "أساسا من الأسس التي يركّز عليها النّظام السّياسي للدولة ،ولذا فلمّا أصبح للعرب بعد الإسلام دولة ،أحسّوا بحاجتهم الماسّة إلى هذا الفنّ ،لتصريف شؤون حياتهم السّياسيّة والدّينية متأثرين بالثّقافة الفارسية التي أخذوا عنها نظام الدواوين."[27]

4- *الأدب ينطق بلغة هذه الحضارة:*

[25]- تاريخ الأدب العربي،العصر العباسي الأول،شوقي ضيف،ط6،دار المعارف،مصر،دت:108

[26]- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب:222

[27]- في نظرية الأدب،من قضايا الشعر و النثر في النقد العربي القديم،عثمان موافي،الجزء1،دط، دار المعرفة الجامعية،الإسكندرية،2000: 80

هناك مجموعة من العوامل الاجتماعية التي تسهم في التّغيير الذي قد يطرأ على الأدب من حيث الشَّكل والموضوع ،ولعلّ أوّل هذه العوامل تتمثل في **البيئة** التي تمثّل الموجِّه المباشر لشكل أو مضمون الأعمال الأدبية ،لذا يقال "الأديب وليد بيئته" ومن هذا المعنى يقول أحمد رشوان كذلك :"فالذّوق العام عند البدو يختلف عن الذوق العام عند الحضر ،لما بين البيئتين من فوارق ماديّة ومعنوية ،من حيث إنّها تمثِّل المادّة الأوّلية التي يصوغ منها فنّه أو أدبه"[28]. وثاني هذه العوامل تتمثّل في **الزّمان** ،فإنّ تقدّمه يفيد الإنسان في ازدياد معارفه وتعمُّق معانيه فترتقي فنونه ،ثم ثالثها:**الجنس** الذي هو في أصله ثمرة الزّمان والمكان فيتغيَّر الأدب بتغيُّر الأجناس ،وما كوّنته البيئة في مواهبهم واستعدادهم ،بالإضافة إلى عنصري **التربية** و**الثقافة** فهما يشكلّان ثنائيا مهمًّا يسهم بشكل واضح في هذا التَّغيير.[29]

ويظلّ تأثير البيئة في الأدب قائما لذى معظم النّقاد الذين تعرضوا لهذه القضية ومن هؤلاء عثمان الموافي الذي يقول :"وبذلك فلقد تأثر الأدب العربي القديم بالتّطور الذي طرأ على البيئة العربية ،فبعدما انتقلوا من البداوة إلى الحضارة ومن الجفاء والخشونة إلى الرِّقة والنُّعومة تغيَّرت طباعهم وعادتهم وتقاليدهم ،وقد حملهم هذا على ترقيق ألفاظهم وتبعه تطوّر في لغة أدبهم فظهر أسلوب تعبيري خاص بالحياة الجديدة."[30]

ولعلّ الأمثلة التي تعكس لنا أثر الحضارة على الأدب كثيرة وبما أنّ موضوعنا يخصّ بالدّراسة الأدب العربي القديم ،فلقد ارتأينا أن نلمّحَ بإيجاز على تأثير الحضارة في الأدب الأموي والعباسي.

---

[28]-الأدب والمجتمع:69.

[29]- ينظر:المرجع نفسه:69-70-71 ،دراسات في علم اجتماع الأدب،أمل حركة :32

[30]- في نظرية الأدب،من قضايا الشعر والنثر في النقد العربي القديم:132.

ولقد كان للحضارة الأموية أثرها على الأدب العربي شكلا ومضمونا ،فبعد أن انتشرت الملاهي وتطوَّر الغناء كان لابدّ أن يتّخذ الشّعر أغراضا وأساليبا تتناسب مع حياة اللّهو وتتماشى مع الغناء الذي عني به الأمويون عناية خاصة ،فنشأ فيه نوع من الغزل الرقيق ومقطوعات الغناء ،وقد تحوّل على لسان بعض المُجَّان الشّعراء إلى مجون ولهو ،كما انتقل الشّعر العربي في الحجاز والشام من قصائد إلى مقطوعات وأصبح يؤلَّف بصورة جديدة ،فهو من حيث أسلوبه أصبح الشّعراء يميلون إلى السهولة المفرطة وهو من حيث موضوعه أصبح يختصّ بالحب وأحداثه ووقائعه المعاصرة.[31]

ولقد عبَّر الشّعر العباسي بصدق عن لغة عصره وحضارته ،وكان سجِّلا أمينا لما عايشه هذا العصر من أحداث ؛وهذا المقديسي يتحدّث عن شِعر الوصف فيقول:"صار (بعد أن اتّسع الأفق العمراني لذى المسلمين ،وبعد أن طما بحر الرّفه على بغداد وسواها من حواضر العصر العباسي) يتفنّن في نعت أسباب الحضارة كالقصور والبرك والجنائن والولائم والجيوش والمراكب ،ومثل ذلك تفننه في الخمر وأنواع الغزل والمديح وما إلى ذلك من ضروب النّظم"[32]. وقد تميّز الشّعر العباسي وسط هذه الظروف الحضارية برّقة العبارة والتفنّن في المعاني بالإضافة إلى توفّره على البديع اللفظي.[33]

والذي نرمي للوصول إليه من خلال هذه النّماذج أنّ :الأدب دوما ينطق بلغة الحضارة التي ترعرع فيها ،فيتأثّر بها شكلا ومضمونا ويعكس كلّ مظاهرها سواء كانت اجتماعية أو ثقافية أو عمرانية ويعبّر عنها بلغة تناسب البيئة الحضارية التي تلهمه

[31]- ينظر:التطور والتجديد في الشعر الأموي،شوقي ضيف،ط6،دار المعارف،القاهرة،1977
[32]- أمراء الشعر العربي في العصر العباسي،ط17،دار العلم للملايين،بيروت،1989: 86
[33]- ينظر:المرجع نفسه: 87

بألفاظ ومفردات وأغراض تلائم طبيعتها وبموضوعات نابعة من الوسط الذي نشأت بين أحضانه.

الفصل الأول

أثر الإسلام على الأدب والحضارة إبان صدر الإسلام والعصر الأموي

-واقع الحياة الأدبية في عصر صدر الإسلام والعصر الأموي

-أثر الإسلام على الأدب والحضارة

تعدّ الفترة الممتدة من ظهور الإسلام إلى غاية نهاية العصر الأموي من أهم الفترات في تاريخ الأدب العربي ،من حيث إنّ هذا الأدب مثّل مرحلة تحوّل على العديد من الأصعدة بسبب اصطدامه بالواقعين الديني والاجتماعي الجديدين ؛وبما أنّ الإسلام هو أساس قيام الحضارة العربية الإسلامية ،فكان لزاما علينا العودة إلى هذين العصرين الأدبيَيْن حتّى نلتمس آثار الإسلام عليها ،وحتى تتوفّر لنا مجموعة من المقدّمات تشكّل في مجملها أسسا لا يمكننا الاستغناء عنها.

أ-الحياة الأدبية في صدر الإسلام

يبدأ عصر صدر الإسلام من يوم أن بدأ محمد ﷺ دعوته إلى الإسلام قبل الهجرة بحوالي اثني عشر عاما ،وينتهي بانتهاء عصر الخلفاء الراشدين وقيام الدولة الأموية على يد معاوية بن أبي سفيان عام 41 هـ ،ومدته ثلاثة وخمسون عاما[1].

ويعدّ هذا العصر من أهم العصور التي أسهمت في تهذيب المجتمع العربي الذي كان يعيش في حالة من الفوضى والبدائية وعدم الاستقرار ،فالإسلام جاء ليخلِّصَهُ من العبودية على اختلاف أشكالها ،وبذلك فهو يعد الطّفرة التي غيَّرت مسار الحياة العربية وأعادت بناء المجتمع العربي على أسس إسلامية محضة ،من حيث إنّه جاء بنظام جديد للحياة وثبَت القوانين والشرائع في شتى نواحيها الدينية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية ،فكان ثورة على العادات السيئة التي كانت سائدة في المجتمع الجاهلي ،وأعاد صياغة العقلية العربية على أساس القيم السّامية والأخلاق الفاضلة،فنشأ جيل مختلف ينظر إلى الحياة وإلى الكون نظرة تختلف عن ذلك الجاهلي التّائه في بحر الظلمات ،وأصبح كل همِّه إعلاء كلمة الله والدفاع عن الدّين الجديد الذي وجد فيه مخرجا من الحياة المتعفنة التي كان يعيشها ،كما جاء في قوله

[1] ينظر: حضارة العرب في صدر الإسلام،حسين حاج حسن ،ط1 ،المؤسسة الجامعية،لبنان،1992:305 .

تعالى:{وَاذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً}[1]. ولقد كان لهذا التغيير صدى في الحياة الثقافية بعامة وفي النتاج الأدبي بخاصة،ولاسيما على الأدباء المخضرمين.

-الشّعر:

إنّ الشّعر ديوان العرب منذ القديم وسجِّلهم النفيس الذي حفظ تراثهم وتاريخهم وآدابهم وأخلاقهم ،[2]وقد أشار الجاحظ إلى هذا في قوله :" إنّ كل أمَّة تعتمد في استبقاء مآثرها وتحصين مناقبها على ضرب من الضروب وشكل من الأشكال ،وكانت العرب في جاهليتها تحتال في تخليدها بأن تعتمد في ذلك على الشّعر الموزون والكلام المقفّى،وكان ذلك هو ديوانها ."[3]

هذا وتؤكد المصادر على المكانة المرموقة التي حظيَ بها الشّاعر في قبيلته،وكانت القبائل العربية تحتفل إذا ما نبغ بين أفرادها شاعر ،فتقوم بتحضير الولائم،وتأتي القبائل المجاورة لتهنئتها بشاعرها الجديد ،[4]وكيف لا ؟ ،وقد كان للشّعر مكانة في قلوب العرب ،وكان الشّاعر شأنه شأن الجندي المغوار الذي يدافع عنها بالكلمة المعبِّرة والألفاظ الموحية ،ويفتخر بنسبه بكلّ ما تحمله القبيلة من عصبية،ويخلِّد انتصاراتها ،ويمدح عظماء رجالها ،وفي الأهوال يرثي ويبكي مصيبتها ،وحين يدافع عنها يهجو أعداءها ،فهو وليد هذه البيئة التي نشأ بين أحضانها ،لذلك حظي بهذه المنزلة في قبيلته .ويشير أحمد حسين الزيات إلى أنّ :"العرب أشدُّ الساميين فطرة،وأبلغهم على الشّعر قدرة ،لاتساع لغتهم للقول ،وملائمة بيئتهم للخيال ،وصفاء

1-سورة آل عمران:103

[2]-ينظر:مقدمة الشعر والشعراء،أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة،تقديم:الشيخ حسن تميم،ط3،دار إحياء العلوم،بيروت،1987 :5

[3]- الحيوان،الجاحظ،تحقيق:عبد السلام هارون،ج1،ط2،القاهرة،1965 : 71.

[4]- ينظر:العمدة في صناعة الشعر ونقده،ابن الرشيق القيرواني،تحقيق:محمد محي الدّين عبد الحميد،ج 1 ،القاهرة،ط2 ،1955: 65.

قريحتهم ،وسذاجة معيشتهم ،وقوة عصبيَّتهم ،وكمال حريَّتهم ،وخلو جزيرتهم مما يصدُّ الفكر عن التأمل ويعوق الذِّهن عن التفكر."[1] هذا ويذكر كذلك أنّ نبوغ الشّعر في البيئة العربية أمر طبيعي ،وذلك لعلاقته بالشعور وصلته بالطَّبع وعدم احتياجه إلى العقل أو التعمق في العلم أو تقدم في المدنية .[2]وهذا يدلُّ على أنّ شعراء العرب كانوا ينظمون الشّعر عن طريق السليقة من دون تكلف ولا صنعة ،فكان الشّعر يجري على ألسنتهم كما يجري الكلام العادي ؛ويرجح أغلب الدارسين أنّ البيئة التي كان يسكنها العرب كانت السبب الرئيس في تميُّز الشّعر العربي بلغته البليغة وأسلوبه الراقي.

موقف الإسلام من الشعر:

لقد عكس الشّعر الجاهلي الحياة العربية ،فنقل أخبارها ومآثرها وكل ما يتعلق بطبيعة حياتها ؛من حيث إنّه صوّر الكثير من محاسن القوم من كرم وأنفة وشهامة ،كما صوّر الآفات الاجتماعية التي كانت سائدة في البيئة الجاهلية ولاسيما العصبية القبلية والطبقية والأخذ بالثأر ،وبذلك جاء جزء كبير من الشّعر الجاهلي مشبعا بالصفات المنبوذة والعادات السيئة ،ولمّا جاء الإسلام وجده على هذه الحالة ،ثم لم يلبث الكفار أن أطلقوا عنان ألسنتهم بالهجاء والطّعن في الدّين الجديد ،وأمام كل هذه الظروف نزلت الآية الكريمة :{ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ (224) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (225) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ (226) إلاّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا }[3] ،فموقف الإسلام واضح من خلال هذه الآية الكريمة التي يهاجم فيها الشعراء المشركين ،وقيل إنّها أنزلت في عبد الله بن الزبعري ،وهبيرة بن أبي وهب المخزومي ،ومسافع بن عبد مناف ،وأبي عزة الجمحي ،وأمية بن أبي

[1]- تاريخ الأدب العربي: 29.
[2]- ينظر: المرجع نفسه:28.
[3]- سورة الشعراء:224 ،225 ،226 وجزء من 227.

الصلت[1]؛ ثمّ بعد ذلك يستثني الشعراء المؤمنين وقيل المراد بهم :"عبد الله بن رواحة، وحسان بن ثابت ،والكعبان :كعب بن مالك وكعب بن زهير ،والذين كانوا ينافحون عن الرسول ويكافحون هجاء قريش ."[2] فالإسلام بذلك لم يهاجم الشّعر لذاته ،وإنما هاجم الشعراء المشركين الذين جاء شِعرهم منافيا لتعاليم الدّين الإسلامي من وجهة ،وهجاءً لرسول الله والمؤمنين من وجهة أخرى .ويذكر عبد القاهر الجرجاني في هذا المقام:"أما التعلّق بأحوال الشعراء أنهم قد ذمُّوا في كتاب الله تعالى ،فما أرى عاقلا يرضى بأن يجعله حجة في ذم الشّعر وتهجينه والمنع من حفظه وروايته والعلم بما فيه من بلاغة وما يختص به من أدب وحكمة ."[3] ولقد روي عن النبي ﷺ أنّه كان يقول لكعب بن مالك:"اهجهم فوالذي نفسي بيده لهو أشد عليهم من النبل" وكان يقول لحسان بن ثابت:"قل وروح القدس معك."[4] ولعل موقف رسول الله ﷺ من اللامية التي جاء بها كعب بن زهير ليطلب بها الصفح عن إساءته لرسول الله الذي خلع عليه بردته من أشد المواقف تعبيرا عن اهتمام رسول الله بالشعر. ويذكر كذلك أنّه كان يعجب بالشّعر ويقول حين يسمع بعض روائعه :"إنّ من الشّعر لحكمة وإنّ من البيان لسحرا[5] .ويذكر عبد القاهر الجرجاني في أمره ﷺ بقول الشّعر وسماعه :"أما أمره به فمن المعلوم ضرورة وكذلك سماعه إياه ،فقد كان حسان وعبد الله بن رواحة وكعب بن زهير يمدحون ويسمع منهم ويصغي إليهم ،ويأمرهم بالرّد على المشركين..."[6] وبذلك فموقف القرآن كان شبيها بموقف رسول الله ﷺ ،وقد اتبع الصحابة (رضي الله عنهم) منهجه،ولقد نقلت لنا الكتب الكثير من المواقف في تحسين الشّعر وتشجيع الشعراء في عصر صدر الإسلام ،نذكر منها :"قيل إنّ عمر بن الخطاب كتب إلى أبي موسى

[1]- ينظر:تفسير الكشاف،الزمخشري،تقديم:خليل مأمون شيحا،ط3،دار المعرفة،بيروت،2009 :773.
[2]-المصدر نفسه:774.
[3]- دلائل الإعجاز،عبد القاهر الجرجاني،ط3،مطبة المدني،مصر،1992: 27
[4]-المصدر نفسه ،الزمخشري:ن ص
[5]- المصدر نفسه،عبد القاهر الجرجاني:16
[6]-المصدر نفسه:17

الأشعري :"مر من قبلك بتعلم الشّعر فإنه يدلّ على معالي الأخلاق وصواب الرأي ومعرفة الأنساب ."[1]وهناك الكثير من الروايات نذكر منها قول عائشة (رضي الله عنها) :رووا أولادكم الشّعر تعذب ألسنتهم." وقال ابن عباس :إذا قرأتم شيئا في كتاب الله فلم تعرفوه فاطلبوه من أشعار العرب."[2]

واقع الشّعر في عصر صدر الإسلام:

لقد اختلفت آراء الدارسين حول واقع الشّعر العربي في عصر صدر الإسلام ، فظهرت فئتان متناقضتان :إحداهما تؤكّد فكرة ضعفه والثانية تنفي ذلك ولكلّ منهما حجج وبراهين ؛حيث ترى الفئة الأولى بأنّ الشّعر ضعف في هذا العصر وتراجع عدد الشعراء مقارنة بالعصر الجاهلي ،من ذلك نذكر قول عمر بن الخطاب :"كان الشّعر علم قوم لم يكن لهم علم أصحّ منه ،فجاء الإسلام فتشاغلت عنه العرب وتشاغلوا بالجهاد وغزو فارس والروم ولهت عن الشّعر وروايته." [3] ويؤكّد ذلك ابن خلدون الذي ربما استند إلى القول بضعف الشّعر من مقولة عمر بن الخطاب ،فذكر في مقدمته:"ثمّ انصرف العرب عن الشّعر أول الإسلام بما شغلهم من أمور الدّين والنبوة والوحي وما أدهشهم من أسلوب القرآن ونظمه ،فأخرسوا عن الخوض في النظم والنثر زمانا ،ثمّ استقر ذلك وأونس الرشد من الملة ولم يزل الدّين في تحريم الشّعر وحضره وسمعه النبي ﷺ وأثاب عليه فرجعوا حينئذ إلى دينهم منه ."[4]

لقد كان لهذه النصوص أثر في الدارسين المحدثين حيث أكدوا ضعف الشّعر الإسلامي استنادا إلى أقوال القدامى وإلى بعض النصوص القرآنية والأحاديث النبوية

[1]-تاريخ الأدب العربي:العصر الإسلامي،شوقي ضيف،ط20،دار المعارف،القاهرة،2002 ،45
[2]-الحياة الأدبية بعد ظهور الإسلام،محمد خفاجي عبد المنعم: 207.
[3]-المرجع السابق،شوقي ضيف:44.
[4]-المقدمة،عبد الرحمان بن خلدون،تحقيق:خليل شحادة،سهيل زكار،دط،دار الفكر،لبنان، 2001 :804

التي نبذت الشّعر لظرف معين ،والتي جعلوا منها حجة لهذا الضعف ،نذكر قول أحمد حسين الزيات :"انصرف المسلمون إلى حفظ القرآن ورواية الحديث وجهاد الشرك،فخفت صوت الشّعر لقلة الدواعي إليه ."[1] ومن وجهة أخرى يذكر عبد المنعم خفاجي أنّ أجود الشّعر الجاهلي قيل فيما حرّمه الإسلام من خمر وميسر والأخذ بالثّأر وفجور الحب وغير ذلك...وكانت أشعارهم مليئة بالقوة والروعة والعاطفة ولعلّ هذا ما يفسر ضعف الشّعر العربي في تلك الفترة ،كما يذكر كذلك أنّ العرب سكتوا عن قول الشّعر بسبب إعجابهم ببلاغة القرآن وعظمته وسُموّهِ ويستشهد في ذلك بضعف المستوى الفني للشاعر المخضرم حسان بن ثابت.[2]

وجاءت الفئة الثانية لتنفي القول بضعف الشّعر الإسلامي وأكّدت نهضته وازدهاره ،حيث يذكر (كارلو نالينو) أنّ الشّعر ظلّ مزدهرا في عصر صدر الإسلام ومجموعة الأشعار التي تضمنتها كتب التاريخ والأدب وحدها الدليل على ذلك .ويؤكد شوقي ضيف ما سبق إليه (كارلو نالينو) ويرجح احتمال ضياع الكثير من القصائد الشعرية التي قيلت في ذلك العصر ،بحكم أنّهم لم يدونوها وأنّهم اكتفوا بروايتها ،وإنّ من شأن الرواية إذا طال العهد بأن لا تحتفظ بالكثير من الشّعر وأن يسقط منه غير القليل.[3]

إنّ الفئة القائلة بضعف الشّعر في صدر الإسلام جاءت من حجة أنّ المسلمين ابتعدوا عن قوله لانشغالهم بنشر الدّين الإسلامي ،ولكن الحقيقة تقول غير ذلك ،إذ إنّ المسلمين كافحوا بالسيوف كما كافحوا بالأقلام ،بل إنّ رسول الله ﷺ كان يدفعهم إلى قول الشّعر للرد على المشركين ،ثم إنّ الكفاح أذكى جذوة الشّعر الإسلامي فظهرت

[1]-تاريخ الأدب العربي:104.
[2]- ينظر:الحياة الأدبية بعد ظهور الإسلام،محمد خفاجي عبد المنعم:209
[3]- ينظر:تاريخ الآداب العربية من الجاهلية حتّى عصر بني أمية ،كارلونالينو،تقديم:طه حسين،ط2،دار المعارف،مصر،1979 :104 ،تاريخ الأدب العربي:العصر الإسلامي،شوقي ضيف:42 ،43.

مجموعة من الأشعار تعنى خصيصا بالفتوح والانتصارات الإسلامية. وهناك من الدارسين من رجح ضعف الشّعر إلى عدم الاهتمام به وعدم تشجيع الشعراء[1] ،لكن الروايات تثبت غير ذلك ؛فرسول الله ﷺ كان يهتم بسماع الشّعر (كما ذكرنا سالفا) وكذلك الصحابة من بعده ،أما الدراسات القائلة بأنّ الشّعر ضعف بعد أن وضع الإسلام حدّا للموضوعات الجاهلية التي قيلت فيها أجود الأشعار فيها الكثير من المبالغة ،إذ إنّ الإسلام هذب الألفاظ الحوشية وألان الشّعر الجاهلي ،فارتقى بذلك من المادية الجاهلية إلى مستوى الحياة الروحية السامية .أما الأقدمون فيشتركون جميعهم في أنّ هذا الضُّعف يعود إلى أنّ الشعراء سكتوا عن قول الشّعر بعدما انبهروا ببلاغة القرآن الكريم وروعة أسلوبه ،لكن يبدو أنّ الشعراء لم يخرسوا عن قوله وإنّما تأثروا بالقرآن ويظهر ذلك جليّا في الشعراء الذين اتصلوا اتصالا مباشرا برسول الله صلى الله عليه وسلم .هذا ويذهب الكثير من النقاد (قديما وحديثا) إلى القول بالضعف الفني لشعر حسان بن ثابت ،نذكر منها قول الثعالبي :"كان حسان يقول الشّعر في الجاهلية فيجيد جدا ويغبر في نواحي الفحول ،ويدَّعي أنّ له شيطانا يقول الشّعر على لسانه كعادة الشعراء في ذلك...فلما أدرك الإسلام وتبدَّل الشيطان ملكا تراجع شِعره ."[2] وينفي هذا القول الناقد محمد ابراهيم جمعة ،الذي يرى أنّ شِعر حسان بن ثابت ظلّ يتميّز بالعذوبة والفخامة بعد ظهور الإسلام كما كان في الجاهلية ،وأنّ الضعف الذي ظهر في بعض أشعاره ليس أصيلا في فنِّه ،ويرجَّح أنه قيل في ظروف طارئة أو منحول وضع لغرض ديني أو فكاهي .[3] هذا ويؤكّد عبد القادر قط في قوله :"على أنّ قول بعض الدَّارسين بأنّ الشّعر ركدت ريحه بعد الإسلام قد يعود إلى إحساسهم بضعف المستوى الفني لذلك الشّعر ،والحق أننا لو قارنا بين هذه المرحلة والشّعر

[1]-تاريخ الأدب العربي،أحمد حسين الزيات:104.
[2]- الحياة الأدبية بعد ظهور الإسلام،محمد خفاجي عبد المنعم:106.
[3]- ينظر:حسان بن ثابت،محمد ابراهيم جمعة،دار المعارف،مصر:37.

الجاهلي لأدركنا دون عناء أنّ هناك بونا شاسعا بين الشعرين من حيث الأصالة والمستوى ."[1] ويؤكّد أنّ هذا الضعف أمر طبيعي تعود أسبابه إلى الانقلاب الدّيني والسياسي الذي طرأ على حياة العرب بظهور الإسلام ، فواجه الشعراء ولاسيما المخضرمين منهم عبء الاتصال المباشر بتعاليم وقيم الدّين الجديد ،فأصبح الشّعر وسط هذه الظروف أقرب إلى النظم منه إلى الإبداع[2] .

نستنتج مما سبق أنّ الضعف الذي مس الشّعر الإسلامي لم يكن في تضاؤل عدد الشعراء أو التراجع في كميّة الإنتاج الأدبي ،وإنما كان في تراجع المستوى الفنّي لهذا الشّعر ،وذلك لاصطدام الشعراء بواقع جديد وبحياة تختلف اختلافا كلّيا عن الحياة الجاهلية ،وهو ما يرجّحه عبد القادر قط الذي يقول :"ذلك الضعف الذي حمله بعض الدارسين كان قد بدأ قبيل الإسلام وذلك لانقضاء عهد الفحول ،إذ لم يبق إلاّ الأعشى الذي مات وهو في طريقه إلى النبي ليمدحه ويعلن إسلامه ،ولبيد الذي قد بلغ الستين وأوشك أن يكف عن قول الشّعر ،أما الشعراء الذين عاشوا فترة صدر الإسلام لم يبلغوا جميعا شأن أولئك الفحول."[3]

الأغراض الشعرية:

غداة الإسلام انقسم العرب إلى فريقين :فريق منهم آمن بدعوة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) واستنار بهدي الدّين ونوره ،وفريق كفر بهذه الدعوة ،ولقد وقعت مجموعة من الخلافات ،وشبَّت الكثير من الغزوات بين المؤمنين والمشركين ،ولقد

[1]- في الشعر الإسلامي والأموي،عبد القادر قط،دط،دار النهضة العربية،بيروت،دت:12.
[2]-ينظر : المرجع نفسه:ن ص
[3]- ينظر:المرجع نفسه:16.

انقسم الأدباء إزاء هذا الوضع إلى طائفتين :طائفة ناصرت دعوة الإسلام والمسلمين،وأخرى هاجمت الطائفة الأولى بالهجاء ومدح مناصريها ،وبذلك كان للأدب بعامة والشّعر بخاصة الحظ الوفير من كلّ هذا ،حيث تأثر الشعراء بالدين الإسلامي وبهذه الغزوات التي كان الشّعر فيها أداة للكفاح لكلا الفريقين ،وتجدر الإشارة إلى أنّ هناك طائفة ثالثة كانت تعيش في البادية ،ظلّت على نهج حياتها السابقة في الجاهلية،ومن هذه الطائفة نذكر الحطيئة ولفيف[1]...

هذا ،ولقد هجر الشعراء المسلمون الأغراض الشّعريّة التي تتنافى مع تعاليم الدّين الإسلامي ،واقتصروا في نظمهم على الدعوة إليه ،وعلى هجاء المشركين وأصحاب الديانات الزائفة بعد عصر النبوة ،ورثاء من استشهدوا في غزوات رسول الله ﷺ وفي الفتوح الإسلامية ،فنظموا أناشيد حماسية تغنّوا فيها بانتصاراتهم وتمادحوا بشجاعتهم ،ووصفوا المعــاقل والحصون ،وآلات القتال التي لم يكن لهم عهد بها ،كما وصفوا الحيوانات التي لم يألفوها ،ومظاهر الطبيعة المختلفة .ولقد كثرت الحكمة في شِعر هذا العصر الذي تأثر بمبادئ الدّين الإسلامي وأخلاقه ،وبثقافة القرآن ،ولقد اشتهر في هذا العصر مجموعة من الشعراء الذين نبغوا في المدح :كحسان والنابغة الجعدي وكعب بن زهير والحطيئة ،كما نظموا في الوعظ والتزهيد والدعوة إلى تقوى الله[2]. ويذكر شوقي ضيف أنه "في المقابل لمعت مجموعة من الشعراء المشركين :كأبي سفيان بن الحارث ،وعبد الله بن الزبعري ،وهبيرة بن أبي وهب المخزومي ،وغيرهم من أطلقوا ألسنتهم لهجاء أصحابه من المهاجرين والأنصار."[3]

النثر:

[1]--ينظر: الحياة الأدبية بعد ظهور الإسلام،محمد خفاجي عبد المنعم:205-207 ، تاريخ الأدب العربي:العصر الإسلامي،شوقي ضيف:42.
[2]- ينظر: الحياة الأدبية بعد ظهور الإسلام،محمد خفاجي عبد المنعم:207-209.
[3]- تاريخ الأدب العربي:العصر الإسلامي،شوقي ضيف:47.

لقد اتّسم النثر في الجاهلية بالبساطة في اللفظ والتركيب ،وتميّز أسلوبه بالإيجاز،وفكرته بالسطحية أحيانا ،ويظهر ذلك جليّا فيما بقي من أمثالهم وحكمهم ووصاياهم وخطبهم ومنافراتهم ومفاخراتهم ونثر كهانهم ،ومع ظهور الإسلام ونزول القرآن الكريم ،أخذ النثر ينمو ويزدهر ،وأصبح يتميّز بالقوة والسمو مقارنة بالنثر الجاهلي ،ولقد شملت موضوعاته عموما :الدعوة إلى العقيدة الإسلامية وبيان أهدافها ومبادئها ،وبيان السياسة الشرعية والاجتماعية في عهود الخلفاء إلى ولاتهم وقضاتهم وقوادهم ،كما شملت الخطابة في الأمور الجامعة والحوادث المفاجئة وفي المناسبات الكثيرة ،هذا بالإضافة إلى كتابة الرسائل الدينية والسياسية التي كانت تصدر عن الخليفة أو عن ولاته ،وهذه الأغراض عموما عرفها العرب بعد ظهور الإسلام[1]. وتجدر الإشارة إلى أنّ أسلوب الكتابة في هذا العصر تميَّز بالسهولة والوضوح والقصد إلى الغرض كما تميّز بالبعد عن التكلُّف والميل إلى الإيجاز[2].

الخطابة:

الخطابة غرض أدبي قديم عرفه العرب منذ الجاهلية ،وكان للخطيب عندهم مقام كبير لفصاحة لسانه ،وقوة بيانه ،ومقدرته على الدفاع عن قبيلته ،من حيث إنّ الخطابة استخدمت كسلاح فعال في المفاوضات التي كانت داخل القبيلة في السّلم والحرب ،أو في المفاوضات التي كانت بين القبيلة وغيرها من القبائل ،ولقد ذكرت لنا كتب التاريخ مجموعة من الخطباء الذين اشتهروا في العصر الجاهلي ،نذكر منهم:قس بن ساعدة

[1]- ينظر: تاريخ الأدب العربي،أحمد حسين الزيات:19، الحياة الأدبية بعد ظهور الإسلام،محمد خفاجي عبد المنعم:99-100.
[2]- ينظر:المرجع نفسه:180.

الأيادي ،وعمرو بن كلثوم الثغلبي ،وأكثم بن صفي التميمي ،والحارث بن عباد البكري،وقس بن زهير العبسي ،وعمرو بن معد يكرب الزبيدي...[1]

ولقد كان للخطابة مكانة في البيئة الاسلامية ،كما كان للثورة الروحية التي قام بها الرسول العظيم أكبر الأثر عليها ،حيث اكتملت عناصرها الأدبيّة بعدما وجدت الجو المناسب الذي ساعدها على التطور والازدهار ،ولعل العوامل التي أسهمت في ارتقائها تعود إلى:

– مبادئ الإسلام التي تحثُّ على إعمال العقل والرّفع من شأنه.

–الرقي السياسي والاجتماعي الذي عرفته البيئة الإسلامية في هذه الفترة ،حيث كانت تستدعى الخطابة في كل مكان ؛فبالإضافة إلى المساجد التي كانت تمثل فيها الوحدة الأساسية للاتصال الجمعي والمخبر الإعلامي للمسلمين ،كانت تلقى كذلك في مجالس القضاء وساحة القتال وأثناء الفصل في الأمور.

–اتساع الخطابة بعد هجرة رسول الله ﷺ الذي أخذ يشَرِّع للمسلمين ويرسم لهم حدود دولتهم ،ويحثّهم على طاعة الله الواحد الأحد ،وعلى العمل الصالح للفوز بالآخرة.

–كان للقرآن والحديث النبوي أثر في نفوس الخطباء وعقولهم وأذواقهم.

وأخذت الخطابة في هذا العصر ألوانا مختلفة ،ولاسيما في عصر الخلفاء الراشدين الذي انتشر فيه الإسلام بصورة واضحة ،فكثرت الخطب بكثرة المساجد التي أصبحت منتشرة في كل مكان ،هذا وقد دعت الفتوح الإسلامية إلى الخطابة للتحفيز على الجهاد لنشر الدّين الإسلامي ،كما زادت الحاجة إليها بعدما كثرت الخلافات

[1]--ينظر:الأدب الإسلامي ومواكب النور،عبد العزيز شرف،ط1،دار الجيل،بيروت،1993 :129-130 ،تاريخ الأدب العربي،أحمد حسين الزيات:20.

ولاسيما بعد مقتل عمر بن الخطاب (رضي الله عنه).[1] ولعلّ العوامل المذكورة سالفا كان لها أكبر الأثر على نمو الخطابة وازدهارها في هذه الفترة.

تعدّدت أغراض الخطابة في عصر صدر الإسلام تبعا لما اقتضته ظروف البيئة الإسلامية ،وأصبحت ذات موضوع واضح ومحدد ،وتميّزت عموما بالمرونة والصفاء لتأدية الرسالة النبوية على أكمل وجه ،كما تميّزت بترك التكلّف ولاسيّما السّجع إلاّ ما جاء منها عفويا .ولقد اقتبس الخطباء من تعاليم الإسلام ومواعظه ،ومن آيات الذكر المبين ما يضيء خطبهم ،ويقوّي حجّتَهم ،لاستمالة الناس والتأثير فيهم ،ولقد تميّزت عباراتهم بمتانة التركيب ،وأسلوبهم بجمال التصوير وبلاغة التعبير ،أما ألفاظهم فتميَّزت بالعذوبة والجمال وقوة التأثير.[2]

وتأثّرت الخطابة عموما بما جاء في القرآن الكريم من ذكر عظمة الله وصفاته ، والدعوة إلى الهدى والإيمان ،والتذكير بالوعد والوعيد ،والأمر بطاعة الله وشكره ،وفي ذلك يقول ابن الجوزي :"من تأمّل خطب النبي وخطب أصحابه ،وجدها كفيلة ببيان الهدى والتوحيد وذكر صفات الرب ﷻ ،وأصول الإيمان الكلية والدعوة إلى الله وذكر آلائه تعالى التي تحببه إلى خلقه ،وأيامه التي تخوّفهم من بأسه ،والأمر بذكره وشكره الذي يحببهم إليه ،فيذكرون من عظمة الله وصفاته وأسمائه ما يحببه إلى خلقه ، ويأمرون من طاعته وشكره وذكر ما يحببهم فينصرف السامعون وقد أحبوه وأحبهم ."[3]

تميّز عصر صدر الإسلام بكثرة الخطباء ،الذي كان إمامهم وخطيبهم الأعظم رسول الله ﷺ ،ثم الخلفاء الراشدين من بعده ،وقد أشار الجاحظ إلى ذلك في قوله :"كان

---

[1]- ينظر:الأدب الإسلامي ومواكب النور،عبد العزيز شرف:22،، الحياة الأدبية بعد ظهور الإسلام،محمد خفاجي عبد المنعم:125-126، تاريخ الأدب العربي:العصر الإسلامي،شوقي ضيف:106-108.

[2]-ينظر:المرجع السابق ،محمد عبد المنعم خفاجي:127 وما بعدها ،المرجع السابق ،شوقي ضيف:112،114.

[3]- الأدب الإسلامي ومواكب النور،عبد العزيز شرف:21.

أبو بكر خطيبا وعمر خطيبا وكان عثمان خطيبا وكان علي أخطبهم ."[1] وتكاد أسماء الخطباء الذين اشتهروا في هذا العصر لا تنتهي ،منهم :"عائشة (رضي الله عنـها)،وعبد الله بن عباس ،وعبد الله بن زبير ،وأبو عبيدة عامر بن الجراح ،ومعاوية..."[2] ويذكر الجاحظ :"عطارد بن حاجب بن زراره الذي كان خطيب رسول الله ﷺ."[3]

نستنتج أنه كان لمبادئ الدّين الإسلامي السامية التي أعطت للعقل البشري الحرية في التفكير ،وللقرآن الكريم وأسلوبه الرفيع دور في ارتقاء النثر بصفة عامة وفنّ الخطابة بصفة خاصة ،ولقد زاد في إذكاء جذوتها مجموعة من الأسباب الدينية والسياسية وبذلك احتلت الذروة من بين ألوان النثر بعامة ولاسيما في هذا العصر.

ب-الحياة الأدبية في العصر الأموي:

يتفق الدارسون على أنّ العصر الأموي يمتد من سنة 41 هـ ،عندما تنازل الحسين بن علي عن الخلافة لمعاوية بن أبي سفيان ،وينتهي بقيام الدولة العباسية سنة 132 هـ .ورغم قصر هذه المدة الزمنية ،فإنها شهدت العديد من الأحداث والتغيرات التي كان لها صدى عبر مسار الحضارة العربية الإسلامية ،والتي كانت قد انتقلت من مرحلة التكوين إلى مرحلة التبلور ،ولقد كثرت الأموال في هذا العصر بفضل الفتوح وما غنمته العرب حيالها من ثروات ،كما انتقل نظام الحكم إلى نظام وراثي بعد أن كان يقوم على أساس مبدأ الشورى في عهد الخلفاء الراشدين ،ابتداءً من مبايعة الخليفة الأول معاوية بن أبي سفيان ابنه زيد خليفة من بعده ؛ولقد كان معاوية داهية في أمور الدولة وشؤون العـرب ،فهو استطاع أن يسيطر على زمام الأمور وأن يحافظ

[1]، البيان والتبيين،تحقيق:عبد السلام هارون،ج1،ط7،مكتبة الخانجي،1998: 379

[2]- الحياة الأدبية بعد ظهور الإسلام ،محمد عبد المنعم خفاجي:128.

[3]-البيان والتبيين،ج1 :328

على مصالحه بإتباع سياسته الخطيرة ،والتي كان يهدف من ورائها إلى إحياء العصبيات القبلية التي كانت سائدة في العصر الجاهلي ،والتي تسببت في نشوب الثورات وتعدد الأحزاب من شيعة وخوارج وأمويين ،هذا بالإضافة إلى طبيعة حكمه الذي تميَّز بالتعسف والطغيان ،ولعل الحجاج بن يوسف الثقفي الذي تمَّ توكيله في العراق وما تميّز به حكمه من ظلم وجور واستبداد الدّليل القاطع على إيمان ملوك بني أمية بأنّ هذه السياسة وحدها يمكن أن تعيد الهيبة والاطمئنان إلى الدولة الأموية.[1]

وعلى ما يبدو أنّ العرب قد أضلوا طريق الهداية الذي كانوا عليه في عصر رسول الله ﷺ والخلفاء الراشدين بعد أن أحيا معاوية العصبيات ،فانحرفوا بذلك عن مبدأ مهم من مبادئ ديننا الحنيف ،فكثرت الفتن وزرعت في القلوب الكراهية والبغض بين المسلمين ،هذا بالإضافة إلى تفشي التمييز العنصري وعدم المساواة بين العــرب وغيرهم من الموالي ،وينبغي أن نشير إلى أنّ الدولة الأموية هي دولة عربية محضة لم يكن للموالي منها سلطان ولا منصب من مناصب الدولة ،وقد احتقر العرب هذه الشعوب وقاموا بتهميشها مما أذكى جذوة الحقد والكراهية في قلوبهم[2] ،ولعلّ هذه العوامل كانت السبب المباشر في انهيار هذه الدولة الفتية التي اتبع خلفاؤها الأساليب الخاطئة ظنّا منهم أنّها ستحفظ مصالحهم ،ولكنّهم بقصد أو غير قصد أسهموا في دمارها ،وما لا نتجاهله هو أنّ الأمويين حققوا العديد من الفتوح في الشرق والغرب،وفي الشمال والجنوب ،ولقد أخذت الأموال تسيل إلى خزينة الدولة فقاموا ببناء القصور الشاهقة والمنشآت المختلفة متأثرين بمدنيات الأمم المفتوحة ،ولقد أدّت حياة الثراء هذه

[1]- ينظر:الحياة الأدبية بعد ظهور الإسلام،محمد عبد المنعم خفاجي:322،323

[2]- ينظر:المرجع نفسه :325،حضارة العرب،أسعد داغر،دط،مطبعة المقتطف،مصر،1919 :47-48.

إلى انتشار اللّهو والترف ولاسيما في مدن الحجاز ،بعد أن تسربت ثقافة الموالي إلى حياة العرب.[1]

أ-الشّعر:

اعتنى الخلفاء والأمراء في هذا العصر بالشّعر عناية خاصة ،حيث شجعوا الشعراء بالعطاء الواسع تارة وبتقريبهم من البلاط تارة أخرى ،كما عقدوا المجالس الأدبية التي تمس الأدب والنقد ،ولعلّ اهتمام خلفاء بني أمية بالأدب ولاسيما الشّعر يعود إلى أنّه كان الوسيلة أكثر إذكاء للعصبية ،وهذا ما كان يصبوا إليه الخلفاء حفاظا على مكانتـهم[2] ،ولعلّ هذه المظاهر كانت السبب الرئيس في نهضة الأدب بعامة والشّعر بخاصة ،هذا وقد كان للحياة الجديدة الأثر البالغ عليه ،ولاسيما بعدما اتخِذ كأداة للغناء وسط بيئة المترفين[3] ،فتعدّدت أغراضه واختلفت ميول الشعراء باختلاف البيئة التي نشأوا بين أحضانها ؛فشعر الحجاز الذي ينصّبُ معظمه في غرضي الغزل (الذي غلب عليه الطّابع المادي الصريح) ،والمديح (للتزلف من الخلفاء) يختلف عن شِعر البادية الذي عنى أصحابه شظف العيش والحرمان ،فجاء شِعرهم متميّزا بأصالة الحب العفيف ،وبتلك المسحة الأخلاقية التي خلّفها الإسلام في نفوسهم ،وتختلف بيئة البصرة التي كانت تموج بالعصبيات عن هاتين البيئتين اختلافا جذريا ،حيث تطوّر فنّ الهجاء الذي ارتقى به شعراء النقائض ،وعرف الفخر والمدح نموا وتطورا ،كما نشط الشّعر في خراسان نشاطا عظيما ،في حين لم تبلغ الشام مستوى الشّعر الذي بلغته البيئات المذكورة سالفا[4].

---

[1]- ينظر: الحياة الأدبية بعد ظهور الإسلام ، محمد عبد المنعم خفاجي:325-326 ، حضارة العرب ،أسعد داغر:47-48.

[2]- ينظر:المرجع السابق، محمد عبد المنعم خفاجي:354-355.

[3]- ينظر:المرجع نفسه:481

[4]-ينظر:الأدب العربي في العصر الإسلامي:شوقي ضيف:146-158.

تميّز شِعر هذا العصر بالعمق والترتيب والدقة ،وأفكاره بالوضوح ،وجاءت معانيه خالية من التعقيد ،ولقد اعتمد الشعراء في كثير من الأحيان على معاني الشّعر الجاهلي ،وفي الوقت نفسه كثرت المعاني الجديدة بتأثير البيئة الحضارية والتغيرات السياسية والاجتماعية [1]،أما أسلوبه فجاء خاليا من الغرابة ومتأثرا ببلاغة الجاهلية وفصاحتها من وجهة ،وببلاغة القرآن الكريم والحديث النبوي من وجهة أخرى ،[2] فاختلفت بذلك أساليب الشعراء باختلاف البيئة التي نشأوا فيها وباختلاف الغرض الذي نظموا فيه.

فأما **الغزل** فقد شاع في البيئة الأموية بنوعيه :الغزل الحضري أو القصصي بالحجاز ،والغزل العذري بالبوادي ؛ولقد جاء الأوّل على شكل مقطوعات اعتمد الشعراء في نظمه على الأوزان القصيرة حتّى يسهل غناؤه ،وتميّز بالسهولة والإيجاز،وأبرز الشعراء الأمويين الذين اشتهروا في هذا الغرض كما يذكر شوقي ضيف: "عمر بن أبي ربيعة ،وبن قيس الرقيات ،والقرجي في مكة ،والأحوص في المدينة ،والوليد بن يزيد في دمشق ."[3] ولعل من أهم أسباب شيوع الغزل الحضري في الحجاز يعود إلى حياة الثراء والترف التي ميّزت هذه البيئة ،وهو ما جعل الشباب يميلون إلى اللهو لملء أوقات فراغهم[4] ،في حين عرفت البوادي نوعا آخر من الغزل ،وهو الغزل العذري الذي تميّز بالعفة والسمو على عكس الغزل الحضري ،وتفاسير هذه الحركة كثيرة ،فمنهم من يرجِّح عفَّته إلى تأثره بالدين الإسلامي وأخلاقه ومبادئه ،وبأنّ العرب في البادية لم يعرفوا التّرف ولم تفسدهم الحضارة[5] ،وهناك تفسير اجتماعي مفاده

[1]- ينظر: الحياة الادبية بعد ظهور الإسلام،محمد عبد المنعم خفاجي:487

[2]- ينظر:المرجع نفسه:489.

[3]-ينظر:التطور والتجديد في الشعر الأموي،شوقي ضيف: 102.

[4]--ينظر:تاريخ الآداب العربية من الجاهلية حتّى عصر بني أمية،كارلونالينو:136.

[5]--في أدب صدر الإسلام و الأدب الأموي،زين كامل الخويسكي و محمد مصطفى أبو شوارب،دط،دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر،الإسكندرية،دت:120

أنّ التقاليد كانت السبب الأساس في شيوعه ؛ولاسيما ارتداء الحجاب ،وتحريم زواج الرجل بالفتاة التي شُهِر بها [1]،أما التفسير الحضاري فيقابله تلك النقلة الحضارية من البداوة إلى الحضارة ،وما اقتضته من تغيير في أنماط وأساليب العيش ،وهذا ما ولّد في الشعراء إحساسا بالتمزق نتيجة التأرجح بين قيَّم حضارية جديدة وقيَّم قديمة عميقة الجذور في النفس العربية ،فجاء غزلهم بهذا الشَّكل[2] .وهناك من يؤكّد أنّ هذا الشِّعر جاء نتيجة شظف العيش والحرمان الذي كانت البوادي العربية تعانيه على عكس بيئة الحجاز .[3] ويبدو أنّ هذه التفاسير هي بمثابة أسباب مباشرة لا يمكن أن نأخذ بسبب دون الآخر لأنّها في النهاية أسهمت كلها في شيوع هذا الغرض.

الشّعر السياسي :لقد تأثر الأدب في العصر الأموي بالحياة السياسية ،واكتسب الشّعر طائفة من معان جديدة جاءت على النَّهج القديم في صُوَّر مختلفة ،ويلخّص أحمد حسين الزيات هذه الصور في أربعة :إما في صورة المدح المشوب بالتحريض والتعريض،ولقد نظم أغلب الشعراء في هذا الباب ،وإما طمعا في خير الخلفاء وغيرهم من أصحاب السلطة أو دفعا لشرّهم[4] ،أو في صورة هجاء ،أو في صورة اقتراح لسياسة واستطلاع لرأي[5] ،أو في صورة جدل في رأي أو بيان أو مذهب[6] ،والشّعر السياسي لون جديد يصف الخصومات السياسية بين الأحزاب المختلفة ،ويشير أحمد حسين الزيات إلى أنّ شِعرهم كان يتصف :"بجمال الإخلاص وروعة اليقين وقوة الحقيقة. "[7]

---

[1]- ينظر،المرجع نفسه:126

[2]- ينظر،المرجع نفسه:180

[3]- ينظر:دراسات في الأدب العربي،سعد الدّين محمد الجيزاوي:52 ،المرجع السابق،زين كامل الخويسكي:180.

[4]-. ينظر:تاريخ الأدب العربي،أحمد حسين الزيات:126

[5]- المرجع السابق:127.

[6]- المرجع نفسه:128.

[7]- المرجع نفسه:130.

وكان حزب الأمويين أكثر الأحزاب إنتاجا للشِّعر ،ثم يليه حزب الشيعة والخوارج ،ثم الزبيريين الذين كانوا أقل انتاجا للشِّعر مقارنة بالأحزاب الأخرى .[1]

الهجاء :لقد نشط هذا الغرض في العصر الأموي ،ولاسيما في بيئة البصرة التي كانت تموج بالعصبيات القبلية ،وراح كل شاعر يفتخر بقبيلته ويذود عنها ،وفي الوقت نفسه يوجه إلى القبائل المعادية سهام هجائه ،فكان لكل قبيلة شاعر أو شعراء على الأرجح[2] ،وشبّت بين هذه القبائل معركة شِعرية عنيفة ،تحولت فيما بعد إلى نقائض،حيث كان ينظم شاعر من الشعراء قصيدة يمدح فيها قبيلته ويهجو القبيلة الأخرى ،ثم يأتي شاعر القبيلة الثانية فينظم قصيدة بنفس الوزن والروي ،فيقابله بالمدح لقبيلته تارة وبالهجاء للقبيلة الأولى تارة أخرى ،وكأنه يريد منافسته في المعنى والفنّ .[3] ولقد أسهمت أسباب اجتماعية وعقلية في شيوع هذا اللون الأدبي ؛منها أنّ البصرة لم تكن تهتم بالغناء كما كان الحال في الحجاز ،لأنّها كانت شديدة الصِّلة بحياتها البدوية،[4] فتطور فيها فنّ الهجاء وتحول إلى نقائض مثيرة ،وأصبح النَّاس يجتمعون بالشَّاعر فيهتفون ويصفقون بكل روح قبلية[5] ،لأنّه في الأخير كان يمثِّلُهم ويدافع عن قبيلتهم بكلّ عصبية ،ويهجو أعداءهم ؛وهناك عوامل عقلية تمثلت في نمو العقل العربي وانفتاحه على الحوار والجدل والمناظرة ،ومن أهمّ الشعراء الذين أسهموا في تنمية تلك النقائض: جرير والفرزدق والتميميان.[6]

بقيت الكثير من أغراض الشّعر الأموي كما كانت عليه من قبل ؛**كالفخر** الذي نظم فيه أكثر شعراء بني أمية ،وبخاصة الفرزدق وجرير والأخطل ،وكذلك شِعر

---

[1]- ينظر:التطور والتجديد في الشعر الأموي،شوقي ضيف:101.
[2]- ينظر:الأدب العربي في العصر الإسلامي:شوقي ضيف:157.
[3]-ينظر:المرجع نفسه :242.
[4]-ينظر:المرجع نفسه :241.
[5]- ينظر:المرجع نفسه:242.
[6]-ينظر:المرجع السابق:ن ص.

الحماسة الذي جاء متأثرا بالفتــوح والحروب والثورات التي شهدها العصر الأموي،بالإضافة إلى **الرثاء** و**الوصف**[1] .ومن وجهة ثانية فقد أحيا الأمويون أغراضا كانت موجودة في الجاهلية ؛**كالطرديات** و**وصف الخمـر** .وما يلفت النظر هو أنّ فنّ المدح قد لقي إقبالا كبيرا من طرف الشعراء بتشجيع من الخلفاء ،فكان لكلّ خليفة أو حاكم شاعر يصطفيه يشيِّد بمآثره ويقابله الممدوح بالعطاء الكثير.[2]ومن وجهة أخرى ظهرت أغراض جديدة **كشعر الحكمة** ،وأخرى ذكروا فيها مبادئ الدّين ووصفوا في أخرى البلاد المفتوحة.[3]

أجل ،لقد ازدهر الشّعر الأموي باختلاف أنواعه ،ولقي إقبالا كبيرا من مختلف طبقات المجتمع ،ولاسيّما الخلفاء وأصحاب السلطة الذين شجعوا الشعراء بالهدايا والأعطيات تارة ،وبتنظيم المجالس الأدبية تارة أخرى ،كما أقبل المترفون على مجالس الغناء للّهو ،وأقبل أهل البدو على شِعر الهجاء والنقائض بكلّ ما تحمله قلوبهم من عصبية ،ورحبت البيئة السياسية بشعراء الأحزاب الذين اعتمدوا على الجدل والمناظرات،ولقد كان للفتوح نصيب من هذا الشّعر ؛حيث قام الشعراء بتحميس الجند قبل الحرب ،ثم وصفوا المدن بعد فتحها ،فتنوّعت بذلك هذه الأغراض بتنوع الأوساط المعيشة في الدولة الأموية .

ب-النثر:

تميّزت الكتابة في صدر الإسلام بالبساطة والسهولة والإيجاز ،ثم أخذت بعد ذلك (وبالضبط في أيام الخليفة الوليد بن عبد الملك) مجرى آخر أساسه التَّأنّق في أساليب البيان والصّنعة والإطناب ،بعدما تحوَّل زمام الكتابة إلى الموالي ،وارتفعت

[1]- ينظر: الحياة الأدبية بعد ظهور الإسلام،محمد عبد المنعم خفاجي:501-502.
[2]ينظر: المرجع نفسه:505-506.
[3]- ينظر: المرجع نفسه:499.

مكانتها،والفضل في ذلك يرجع إلى اتساع الدولة وعناية الكُتّاب بها ،فتحولت إلى صناعة فنّية متأثرة بثقافة الموالي وآدابهم من حيث المبنى والمعنى ،كما انتقلت الكثير من التقاليد عن طريق نقل القصص والأشعار من اللغات الأجنبية ولاسيما من الفارسية إلى اللّغة العربية[1] ،فجاء النّثر في هذا العصر في صورة أخرى ،وبأساليب مختلفة،وموضوعات متنوعة ،وأغراض جديدة ؛منها **فنّ التوقيعات** الذي يأتي موجزا،ويكتبه الخليفة أو الحاكم أو عُمَّالهما على ما يرفع من شكاوي ومظالم ،أو مطالب وحاجات ،فأصبح الكتَّاب يتفننون في أساليب البيان مع الدّقة والإيجاز .[2]كما حفَّزت الحياة السياسية والثقافية والفكرية على ازدهار **فنّ الأجوبة والمحاورات والمفاخرات** (الذي عرفته العرب منذ العصر الجاهلي) ؛حيث أسهمت الفرق الدينية والأحزاب السياسية والمجالس الأدبية التي عنيت بمسائل اللّغة العربية ،كما أسهم التشجيع الذي كان يكافَأ به الفائز في هذه المنافسات والخصومات في نموِّ هذا الفنّ وتطوّره.[3]

وشهدت الخطابة ازدهارا وسط تلك الظروف السياسية والاجتماعية والأدبية،فكان للثورات والحروب والفتوح ،كما كان للخلافات التي كانت قائمة بين الأحزاب حول الأمور السياسية والدينية دور في نموّ الخطابة وتطوّرها ،ولقد زادت الحاجة إليها بعدما توسَّعت الدولة الإسلامية وكثرت مجالس الوعظ والمحافل على الخلفاء والولاَّة ،[4] فكثرت موضوعاتها وتعدّدت أغراضها ،فتناولت قضايا سياسية أو دينية أو عقلية؛ فبالإضافة إلى الأغراض التي تناولتها سابقا ،أصبحت تستعمل كذلك كما ذكر محمد عبد المنعم خفاجي في :الدّعاية السياسية عند الفرق والأحزاب ،كما استعملت في

[1]-ينظر:المرجع السابق،محمد عبد المنعم خفاجي:415-418.
[2]-ينظر:المرجع نفسه:422.
[3]-ينظر:المرجع نفسه:446.
[4]-ينظر:المرجع السابق:407، الأدب العربي في العصر الإسلامي:شوقي ضيف:405.

الجدل الديني عند الخوارج والشيعة وسواهم ،واستعملها الخلفاء والولاة والأمراء كأداة للوعيد والإنذار ،هذا بالإضافة إلى استعمالها في المناقضات والمفاخرات والمحاورات التي كانت تدور بين العصبيات المختلفة في السياسة والاجتماع والآداب.[1]

وحفظت لنا المصادر العربية أسماء الخطباء الذين اشتهروا في العصر الأموي،ولاسيما الجاحظ في كتابه البيان والتبيين ،ومنهم :"قطري بن الفجاءة ،وابن سلمى المخزومي ،وروح بن زنباع ،والحجاج الثقفي ،وسحبان وائل ،والأحنف بن القيس ،وأيوب بن القرية ،والحسن بن أبي الحسن البصري ،وواصل بن عطاء ،وخالد بن صفوان وغيرهم..."[2]

عموما ،لقد جاء النثر الفني في العصر الأموي متأثرا بالثقافة الأدبية المتنوعة بين أثر القرآن الكريم والحديث النبوي ،بالإضافة إلى تأثره بالشّعر والأدب الجاهلي،ومجالس القصص والوعظ ،وقد أدى البلغاء والفصحاء دورا في تقويم الألسنة وفي تهذيب الملكة ،كما أفاد العرب من ثقافات الأمم القديمة مما أكسب العقول عمقا وفهما ومعرفة.[3]

نستنتج أن النثر الفنّي قد ازدهر في العصر الأموي ،ويظهر ذلك من خلال بعض الأغراض التي استحدثت ،ومن خلال الأساليب الجديدة والموضوعات المختلفة التي تناولها ،كما ازدهرت الخطابة في هذا العصر وتعددت موضوعاتها وأصبحت تتناول قضايا سياسية أو دينية أو عقلية.

---

[1]-ينظر:المرجع السابق:407.

[2]-البيان والتبيين،الجاحظ،ج1: 341 وما بعدها

4-ينظر: الحياة الأدبية بعد ظهور الإسلام،محمد عبد المنعم خفاجي:386.

2-أثر الإسلام على الحضارة والأدب

لقد منَّ الله تبارك وتعالى على البشرية بالدين ،فأوحى إلى بعض عباده الصالحين رسالته التي توارثتها الأديان عبر التاريخ البشري ،تلك الرسالة التي تدعو الإنسان إلى تعمير الأرض وتنير طريقه بتشريعات الدّين الحق وعقائده ،وأراد سبحـانه وتعالى أن يختم هذه الدعوة بآخر رسالة أوحى بها إلى خاتم الأنبياء والمرسلين :سيدنا محمد –صلوات الله عليه– وهي رسالة الإسلام التي جاءت لتتِمّ ما جاءت به الرسالات الأولى ،ولتثبّت الصّورة النهائية للدين الإسلامي بوجهه الصحيح والكامل للإنسانية جمعاء ،وقد خصَّ العرب دون غيرهم مهمة نشره في مشارق الأرض ومغاربها ،فأضاء نوره نهج الحضارة الإنسانية بعامة والحضارة العربية الإسلامية بخاصة لما خلَّفه من آثار جليلة في حياة العرب.

ولقد كان لتعاليم الإسلام ومبادئه الأثر الكبير على الأدب العربي والحضارة بعامة شكـلا ومضمونا ،وسنكتفي بإدراج أثره خلال الفترة الممتدة من ظهور الإسلام إلى غاية سقوط الدولة الأموية ،وهي الفترة الحاسمة التي شهد خلالها الأدب العربي تغيرا ملموسا على الصّعيدين الشّكلي واللغوي ،بالإضافة إلى المفهوم الذي اتّخذ شكلا جديدا متأثرا بما جاء به الإسلام من قيَّم ومبادئ مسَّت مختلف مجالات الحياة.

ولعلّ أبلغ مقارنة بين حياة العرب في الجاهلية وأثر الإسلام على أتباعه ما ذكره ابن هشام عندما هاجر جعفر بن أبي طالب إلى الحبشة بعدا عن اضطهاد المشركين ،فلمّا سأله النجاشي عن التعليمات التي جاء بها الدّين الجديد قال :"أيّها الملك كنّا قوما أهل جاهلية نعبد الأصنام ونأكل الميّتة ونأتي الفواحش ونقطع الأرحام ونسيء الجوار ويأكل القوي منّا الضعيف ،فكنّا على ذلك حتّى بعث الله فينا رسولا منّا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنّا نعـبده نحن وآباؤنا من دونه من الأوثـان ،وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرّحم وحسن الجوار والكفّ عن المحارم والدماء ،ونهانا عن الفواحش وقول الزّور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنة ،وأمرنا أن نعبد الله وحده ولا

نشرك به شيئا ،وأمرنا بالصلاة والزكاة والصوم فصدّقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به من عند الله فعبدنا الله وحده ولم نشرك به شيئا."[1]

أثره على الحياة الدينية:

إنّ الدّين الإسلامي قد أبطل الوثنية الجاهلية والشِّرك ،ودعا إلى توحيد الله الواحد الله وإلى الإيمان به وبملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ،كما شرَّع العبادات ودعا إلى العمل الصالح وإلى مكارم الأخلاق :كالصدق والوفاء بالوعد والصبر والعفو عند المقدرة والعِفّة ،ومنع الصفات المنبوذة والرذائل :كالخمر والميسر والربا والغش والكذب والخداع...ومن أبرز الطّبائع التي تميّز بها الإسلام : (كما ذكر أنور الجندي)"الثبات في القيم الأساسية والحّسم في المقررات العامة دون أن يفسح المجال لأنصاف الحلول."[2]

أثره على الحياة الاجتماعية:

لقد شمل نور الإسلام المجتمع العربي الذي فرّقته العصبية القبلية ،فدعا إلى المحبة والإخاء والتعاون ،كما وضع أسس الكثير من المعاملات الاجتماعية :كقواعد الميراث والزكاة وغنائم الحروب وغير ذلك مما كان له أثر على تنظيم الحياة الاجتماعية والاقتصادية ،ومن وجهة أخرى حدد نظام الأسرة وتكوينها ،كما بيَّن علاقة الفرد بالمجتمع وشرح حقوق الأفراد وواجباتهم. وللإسلام دعوة واضحة للعدالة والمساواة بين الأفراد على اختلاف طبقاتهم ،وأنّ التفاوت في التفاضل تحدده درجة التقوى عند كل فرد وهذا ما ذكره رسول الله ﷺ في حجة الوداع :{أيّها النّاس إنّ ربّكم واحد وإنّ أباكم واحد ،كلّكم لآدم وآدم من تراب ،أكرمكم عند الله أتقاكم ،ليس لعربي على عجمي

[1]-السيرة النبوية،ابن هشام،تحقيق:ابراهيم الأبياري وآخرون،دط،دار إحياء التراث العربي،بيروت،دت:360،359.
[2]-ينظر: عالمية الإسلام،أنور الجندي : ،دط،دار المعارف،القاهرة،دت :11.

فضل إلاّ بالتقوى}[1] ولقد أعطى الإنسان حريته ،ورفع كرامته عندما أناطه بمهمة تعمير الأرض والقضاء على الجّهل والظّلام ،مستندا من أجل ذلك على حريـّة عقله وتفكيره،وعلى تعاليم الدّين التي أنار الله بها طريق الهداية ،ولقد جاءت دعوة وحدة المجتمع الإسلامي في كثير من شرائعه الاجتماعية :كالزكاة والصدقة والإحسان وصلاة الجماعة والحج.[2]

أثره على الحياة العقلية:

أثّر الإسلام على حياة العربي العقلية ،فرفع مستواها من عالم مادي وثني يسوده الجهل والأوهام إلى عالم روحي أسمى ،وأصبح يؤمن بوجود الله الخالق القادر وانتهى من عبادة الأصنام التي لا تنفع ولا تضر ،كما نقله من تلك الحياة المادية التي انغمس أهلها في اللّهو والشهوات إلى حياة سامية تمثلت في عبادة الله والدعوة إلى العمل الصالح للفوز بالحياتين ،[3] فارتقى بذلك عقله الذي جمّدته الحياة الجاهلية وتفتَّح بدعوة الإسلام ومبادئه التي أعطت للإنسان الحرية في التفكير وإلى ضرورة إعمال العقل واستخدامه في البّحث والتجربة والتأمّل في مخلوقات الله وفي أسرار الطبيعة والإفادة من ثرواتها ،فولَّد في الناس حبّ المعرفة التي كانت سببا في نشوء العلوم المختلفة والتي كانت أســاس المدنية والحضارة في الإسلام مما كان له دور في الرقي الفكري والعقلي للعربي المسلم.[4] كما يحسب للإسلام كذلك الفضل الكبير في توحيد اللّغة العربية وانتشارها ،فقد كان لتعاليمه ومبادئه دور في الفهم والعمق والدقة التي تميّزت بها اللّغة بعد ظهوره ،ولقد أحدث ألفاظا جديدة وأبطل أخرى ،أما عن تأثيره في الأدب الجاهلي فقد أبطل سجع الكهّان وغادر الأدباء الفجر في الأسلوب وأصبح متأثرا

[1]-العقد الفريد ،ابن عبد ربه،:149.
[2]-ينظر: الإسلام والحضارة الإنسانية ،محمد عبد المنعم خفاجي ،دط ،دار الكتاب اللبناني ،بيروت1982: 32
[3]-ينظر: الإسلام في حضارته ونظمه،أنور الرفاعي،ط3،دار الفكر،سوريا،1997 :68
[4]-ينظر:المرجع السابق،خفاجي عبد المنعم:34،المرجع السابق،أنور الرفاعي:64.

بالعاطفة الدينية القوية وبالجوّ الروحي الذي خلقه الدّين الجديد ،أما عن أغراض اللّغة فأصبحت تستعمل بشكل أوسع بعدما أثّر الدّين الإسلامي على حياة العرب الثقافية والحضارية[1].

دور الإسلام في الحياة الحضارية:

تعد رسالة الإسلام رسالة حضارية بالدرجة الأولى حيث استطاع أن يخرجهم من حياة البدو والصحراء إلى الحياة الإنسانية ،ونقلهم من قبائل متشتتة متنافرة إلى أمَّة واحدة يحركها هدف واحد وهو نشر الإسلام في أنحاء المعمورة ،فبعد أن كان الجاهلي يعيش في ذلك المحيط الضيق تغمره العصبية ،أصبح يجاهد في سبيل نشر هذا الدّين لتحـقيق العدالة والمساواة بين الناس والقضاء على العبودية باختلاف أنواعها والخضوع لله الواحد الأحد ،وما هو إلاّ نصف قرن من الزمان حتّى وحّدوا شملهم في الجزيرة العربية وخرجوا منها فاتحين فارس والروم ،فتكوّنت بذلك الأسس المتينة لدولة قوية ومتماسكة يضيء الإسلام طريقها ومفعمة بمكارم الأخلاق ،وقد غَنَمَت هذه الأخيرة الكثير من الثروات من المدنيات السابق ذكرها مما هيّأ لبزوغ حضارة راقية تجمع ما بين المّادة والروح ،ويؤكّد ذلك أنور الجندي قائلا :"ليس هناك فاصل بين العالمين الروحي والدنيوي ،بل تكامل كل شيء في الإسلام لله ،عالم القيم هو أساس عالم الناس الذي هو تطبيق للقيم مع حرية الإرادة التي هي مناط المسؤولية والالتزام الأخلاقي..."[2] ومن أهم القيم التي ركز عليها هذا الدّين الراقي طلب العلم والمعرفة كما حثّ على العمل الديني والدنيوي ،ولعلّ هذا نموذج من عشرات النماذج التي تعكس نباهة الدّين الإسـلامي في الجمع بين العالمين المـادي والروحي .فالمادة والروح عالمين متكاملين

[1]-ينظر:الحياة الأدبية بعد ظهور الإسلام،محمد عبد المنعم خفاجي:16-18.
[2]-عالمية الإسلام،أنور الجندي:12

في الدّين الإسلامي ولابدّ للمسلم أن يتّصف بالأخلاق الحميدة وبالقيم النبيلة حتّى تتحقق إنسانيته كاملة كفرد فعال وسط المجتمع الذي أسسه الإسلام والذي ينصّ على هذه الروابط الإنسانية والذي يدعو إلى تبادل المصالح المادية ولكن في محيط العلاقات المشروعة[1].

أثر قيم الإسلام على الشّعر العربي:

لقد كان للجانب الروحي في الإسلام أثر على شِعر المخضرمين ولاسيما على شعراء المدينة الذين كانوا بجنب رسول الله (ﷺ) يؤمنون بنبوّته وبِهديٍ رسالته وفي مقدمتهم حسان بن تابت ،وكعب بن مالك ،وعبد الله بن رواحة(ت:8هـ) ،أمّا شعراء البادية فبالرغم من بعدهم عنه – ﷺ–وضعف إيمانهم مقارنة بشعراء مكة والمدينة إلاّ أنّ شِعر بعض شعرائهم لم يخلُ من هذا الأثر كعبيدة بن الطبيب وسويد بن أبي كاهل الشكري وأبو ذؤيب الهذلي وغيرهم...[2] ولقد تميّز الشّعر عموما بالوضوح والبساطة في المعاني والأفكار التي ابتعدت عن المبالغة والغلو وتميّزت بالصدق والحق ،كما تضمن الشّعر الكثير من المعاني التي جاءت بها العقيدة الإسلامية كالصّلاة والصّيام والجنّة والنّار وغيرها ،وتبدو العاطفة الدينية جلية في معاني الشعر[3] ،أما عن أثره في الأغراض فلقد هجر الشعراء المسلمون الأغراض التي تتنافى مع تعاليم الدعوة الإسلامية كالغزل الفاحش والخمريات والهجاء المقذع ،في حين استحدثت حياتهم الجديدة أغراضا أخرى تعنى بعقائد الدّين ومثله العليا وتدعو إلى التّمسّك بها فنظموا في وحدانية الله وفي وحي النبوة ودعوا إلى ما دعا إليه الدّين الإسلامي من التّمسّك

[1]-ينظر:منهج القرآن في تطوير المجتمع،محمد البهتي،دط،مكتبة وهيبة،القاهرة،2002 :4.
[2]-ينظر:الأدب العربي في العصر الإسلامي:شوقي ضيف:68
[3]-ينظر: الحياة الأدبية بعد ظهور الإسلام،محمد عبد المنعم خفاجي:210-211.

بالأخلاق الفاضلة ونهوا عمّا نهى عنه من الرذائل والصفات المنبوذة.[1] وهذه بعض النماذج التي تعكس هذا الأثر وفي مقدمتها أبيات حسان بن ثابت الذي يقول:

شَـــهِدتُ بِـــإِذنِ اللهِ أَنَّ مُحَمَّـــداً رَسولُ الَّذي فَوقَ السَمَاواتِ مِن عَلُ
وَأَنَّ أَبـــا يَحيـــى وَيَحيـــى كِلَيهِمـــا لَـــهُ عَمَـــلٌ فـــي دينِـــهِ مُتَقَبَّـــلُ
وَأَنَّ الَّـذي عـادى اليَهـودَ اِبـنُ مَـريَمٍ رَسولٌ أَتى مِن عِندِ ذي العَرشِ مُرسَلُ
وَأَنَّ أَخـــا الأَحقـــافِ إِذ يَعذِلونَـــهُ يُجاهِـــدُ فـــي ذاتِ الإِلَـــهِ وَيَعـــدِلُ [2]

وهذا عبد الله بن رواحة يقول:

شَـــهِدتُ بِـــأَنَّ وَعـــدَ اللهِ حَـــقٌّ وَأَنَّ النـــارَ مَثـــوى الكافِرينـــا [3]

وفي أبيات أخرى يقول أبو الدرداء:

يريـــد المـــرء أن يُـــؤْتَى مُنَـــاه ويـــأبى الله إلاّ مـــا أرادا
يقـــول المـــرء فائـــدتي و مالـــي وتقـــوى الله أفضـــل مـــا اســـتفادا[4]

يتضح من هذه الأبيات على أنّ هؤلاء الشعراء قد نظموا شِعرهم بأسلوب جديد استوحوه من القرآن الكريم والسُّنّة النبوية ،فنلاحظ اقتباسهم للكثير من الألفاظ الإسلامية:رسول ،عرش ،الأحقاف ،الكافرين ،التقوى... ويبدو أنّ تركيزهم على حشد الألفاظ الجديدة قد أفقد رونق الإبداع في أبياتهم فجاءت عباراتهم سهلة وبسيطة.

ومن شعراء البادية الذين تأثر شِعرهم بمبادئ الإسلام وقيّمه عبيدة بن الطبيب الذي يقول:

أُوصِـــيكُمُ بِتُقَـــي الإِلَـــهِ فَإِنَّـــهُ يُعْطِـــي الرَّغائِـــبِ مَـــنْ يَشَـــاءُ ويَمْنَـــعُ
وبِبِـــرِّ وَالِـــدِكُمْ وطاعـــةِ أَمـــرِهِ إِنَّ الأَبَـــرَّ مِـــن البَنِـــينِ الأَطْـــوَعُ

[1]-ينظر:الإسلام والشعر،سامي مكي،دط،المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب،الكويت،1996 :67
[2]-ديوان حسان بن ثابت،تحقيق:مجيد مهنا،ط2،دار الكتب العلمية،لبنان،1994 :189
[3]-الاستيعاب،عمرو بن عبد البر،ج1،دط،دار الفكر،لبنان،2006 :538
[4]-المصدر نفسه،ج2 :396.

وَاعْصُـوا الَّـذِي يُزْجِـي النَّمَـائِمَ بيْـنَكم مُتَنَصِّـــحاً، ذَاكَ السِّـــمامُ المُنْقَـــعُ

يُزْجِـــي عَقَارِبَـــهُ لِيَبْعَـــثَ بَيْـــنَكم حَرْبـاً كمـا بَعَـثَ العُـرُوقَ الأَخْـدَعُ [1]

يدعو عبيدة بن الطبيب إلى تقوى الله لأنّ بيده كلّ شيء ،كما يدعو إلى طاعة الوالدين والحذر من الإنسان النمّام الذي يغرس أشواك حقده في القلوب مدّعيا النصيحة في حين أنه يترقب من وراء تصرفه حربا وفتنة.

وفي أبيات أخرى يدعو النمر بن تولب الله عز وجل حفظه من ضيق النفس ومن كلّ ما قد تضمره نفسه من أمور سيئة:

أَعِـــذني رَبِّ مِـــن حَصَـــرٍ وَعـــيٍ وَمِـــن نَفـــسٍ أُعالِجُهـــا عِلاجـــا

وَمِـــن حاجـــاتِ نَفســـي فَاعصِـــمَنّي فَـــإِنَّ لِمُضـــمَراتِ الـــنَفسِ حاجـــا

وَأَنـــتَ وَلِيُّهـــا وَبَرِئـــتَ مِنهـــا إِلَيـــكَ وَمـــا قَضَـــيتَ فَـــلا خِلاجـــا[2]

ومن الأغراض التي استحدثت في هذا العصر شِعر الحماسة والذي عني خصيصا بتحميس الجند للجهاد في سبيل الله ،وكذلك شِعر الفتوح الذي راح الشعراء يصفون فيه البلدان المفتوحة ويتغنوا بانتصاراتهم ويمدحون عظمة الجيش الإسلامي. وهذا كعب بن مالك يصوّر قوة الإسلام وما تركه في قلب المشركين من رعب وجزع:

قضـــينا مِـــن تهامـــةَ كـــلَ ريـــبٍ وخيبـــرَ ثـــمّ أجممنـــا الســـيوفا

نخـــيِّرُها ولـــو نطقـــتْ لقالـــت قواطـــعُ هـــن دَوسًـــا أو ثقيفـــا

فلســـتُ لحاضـــنٍ إن لـــم تروهـــا بســـاحة دارِكـــم منـــا ألوفـــا

ونـــردى الـــلات والعـــزى وودّا ونســـلبها القلائـــد والشنـــوفا[3]

وهذا النابغة الجعدي يقول لامرأته حين خرج غازيا:

---

[1]-المفضليات،تحقيق:أحمد محمد شاكر،عبد السلام هارون،ط6،دار المعارف،مصر،دت:146

[2]-الحيوان،الجاحظ:الجزء 2 :305.

[3]-المصدر نفسه:89

باتَـــت تُـــذَكِّرِنُي بِـــاللهِ قاعِـــدَةً وَالــدَمعُ يَنهَــلُّ مِــن شَــأنَيهِما سَــبَلا

يــا ابنَــةَ عَمِّــي كِتــابُ اللهِ أَخرَجَنــي عَــنكُم وَهَــل أَمــنَعَنَّ اللهَ مــا فَعَــلا

فَــإِن رَجَعــتُ فَــرَبُّ النــاسِ يُرجِعُنــي وَإِن لَحِقــتُ بِرَبّــي فَــابتَغي بَــدَلا

مــا كُنــتُ أَعــرَجَ أَو أَعمَــى فَيَعــذِرَني أَو ضارِعاً مِن ضنًى لَم يَستَطِع حِوَلا [1]

إنّ هذه الأبيات تنّم عن إيمان الشاعر القوي بقضاء الله وقدره ،وأنّ الخروج في سبيل الدفاع عن الدّين الإسلامي واجب لا يمكن التخلي عنه.

وما هي إلاّ سنوات قلائل حتّى عرف التاريخ الإسلامي مرحلة جديدة تمثلت في تشييد الأمويين لأسس الدولة الإسلامية الجديدة بعد انقضاء عصر الخلفاء الراشدين ، وما يهمّنا نحن من هذا عصر :أثر الإسلام الذي انتشر بشكل أوسع والذي بلغت ثقافته المجتمع العربي باختلاف طبقاته والمجتمع الأجنبي باختلاف أجناسه ،ولعلّ ما يعكس لنا هذا الأثر ما نلتمسه حينما نطالع القصائد التي نقلتها لنا كتب التاريخ والأدب ،والتي كتبها الشعراء الأمويون ولكن الظاهر بأنّ أثر الإسلام في الشّعر الأموي سيظلّ متفاوتا من شاعر إلى آخر كما هو الحال في عصر صدر الإسلام ،وتجدر الإشارة أنّ أشعار هذا العصر جاءت في مستوى أرفع من التي قيلت في العصر الذي سبقه ،وهذا أمر طبيعي إذ إنّ العرب في هذه الفترة كانوا قد اجتازوا مرحلة الاصطدام بواقع جديد ودين جديد ومبادئ لم يكن لهم عهد بها ،وأصبحوا ينتمون قلبا وقالبا إلى الدولة الجديدة التي اقتضاها الدّين الإسلامي.

لقد صوّر الأدب الأموي التناقض الذي مس الدولة الأموية في شتى ميادينه ، فظهرت فئتين من الشعراء :الأولى تأثّرت بالحياة الجديدة وبمظاهر الثراء والترف في الحجاز أو بشظف العيش والحرمان في البادية ،فنظمت في المدح والفخر والغزل

[1]-الشعر والشعراء ،ابن قتيبة:183.

والهجاء ولكن أثر الإسلام يظلّ قائما على هذه الأغراض ،وأخرى أثّرت فيها التقلبات الاجتماعية وابتعدت عن ضوضاء اللهو والحضارة وظلت تنظم فيما جاء به الدّين الإسلامي وما نهى عنه وتدعو إلى الجهاد في سبيل الله. ومن الأغراض التي يبدو فيها أثر الإسلام واضحا وجلّيا :الغزل العذري الذي عرفته البوادي وكذلك الذي نظم فيه فقهاء مكة والمدينة ،فتبدو المسحة الدينية واضحة في صفاء معانيه وبلاغة وروعة ألفاظه التي توحي بالنَّقاء النفسي والسمو الروحي ،فرفعت من قيمة الحب الذي وضعه الشعراء الجاهليون وحتى شعراء بنو أمية الذين سكنوا المدن والذين تأثروا بمدنيات الأمم المفتوحة ،فراح الشعراء يبكون لوعة بُعد الحبيب الذي أصبح لقاؤه مستعصيا بعد مجيء الإسلام ،فجاء شِعرهم طاهرا وعفيفا متأثرا بعفة الإسلام وتعاليمه[1] ،قال جميل:

إلى اللهِ أَشكو لا إلى الناسِ حُبَّها وَلا بُدَّ مِن شَكوى حَبيبٍ يُوَدِّعُ

ألا تتقين الله فيمن قتلته فأمسى إليكم خاشعا يتضرع

فَيا رَبِّ حَبِّبني إِلَيها وَأَعطِني الـ مَوَدَّةَ مِنها أَنتَ تُعطي وَتَمنَعُ [2]

وأثر الإسلام في المدح قائم ،وقد اتخذ الشعراء من الصّفات والأخلاق التي نادى بها الإسلام عنصرا مهما من عناصر المدح التي تقرّب الشاعر من الخليفة الذي يفيض بالعطاء لممدوحه بعدما وصف عدالته وتقواه وواجبه السوي تجاه رعيته التي تطيع أوامره تبعا لما جاء به الدّين الإسلامي ،وقد تنافست الفرق السياسية بين مدى توافق شروط الحاكم التي جاء بها الإسلام مع الحكماء والوُلّاة الأمويين[3].ومن النماذج التي تعكس هذا الأثر أبيات جرير التي يمدح فيها عبد الملك بن مروان:

لولا الخليفَةُ والقرآنُ يقرؤهُ ما قام للنَّاسِ أحكامٌ ولا جُمَعُ

[1]-ينظر:تاريخ الأدب العربي في العصر الإسلامي،شوقي ضيف:177.
[2]-ديوان جميل بثينة،ط2،دار صادر،بيروت:73.
[3]-تاريخ الأدب العربي في العصر الإسلامي ،شوقي ضيف:178.

أنــت الأمــينُ أمــينُ اللهِ لا سَــرِفٌ فيمـــا ولِـــيتَ ولا هيَّابـــةٌ ورِعُ
أنــت المبــاركُ يهــدي الله شــيعتَهُ إذا تفرَّقَـــتِ الأهـــواءُ والشِّيـَـــعُ
فكـل أمـرٍ علــى يُمــنٍ أمـرتَ بــه فينــا مُطــاعٌ ومهمــا قلــتَ مُســتَمعُ
يـــا آل مـــروانَ إنّ الله فضـَّـــلَكمْ فضـلاً عظيماً علـى مـن دينُـه البِدَعُ[1]

إنّ الأشعار التي قيلت في العصر الأموي تكاد لا تخلُو من أثر الإسلام ،ثمّ تأتي الفئة الثانية من الشعراء التي عُرفت بالزهد لتجعل من الإرشاد والوعظ غرضا قائما بذاته متأثرين بوعّاظ المساجد ،فتجد المرشد داعيا وناهيا ،مذكِّرا ومرشدا[2] فتسيل من شِعره ينابيع الإيمان والتّقوى ،ويحاول قدر إمكانه تحريك ضمائر الغافلين وإنقاذهم من ظلالهم وإعادتهم إلى الطريق السّويّ. وكان الشعراء يتوجّهون بها إلى الخلفاء والحكّام الذين كانوا يعجبون بـها ويتخشّعون بسماعها. وهذا سابق البربري يخاطب واعظا الخليفة عمر بن عبد العزيز:

باسـم الـذي أُنزِلـت مـن عِنـدِه السُّـوَرُ والحَمــدُ للَّهِ أمَّـــا بَعـــدُ يـــا عُمَـــرُ
إن كنــتَ تَعلَــمُ مــا تــأتي ومــا تَــذَر فَكُــن علــى حَــذر قــد يَنفَــعُ الحَــذَرُ
واصبِر على القَدَرِ المَجلُوبِ وارضَ به وإن أتــاك بِمَــا لا تَشــتَهِي القَــدَرُ [3]

والأشعار التي قيلت في الزّهد كثيرة ،نذكر منها أبيات أبا أسود الدؤلي الذي يدعو إلى التوكل على الله في جميع الأمور ولاسيّما في الرّزق فيقول:

وَإذا طَلَبــتَ مِــنَ الحَــوائِجِ حاجَــةً فـــادعُ الإِلَـــهَ وَأَحسِـــنِ الأَعمـــالا
فَليُعطِيَنَّـــكَ مـــا أَرادَ بِقُـــدرَةٍ فَهـــوَ اللَطيـــفُ لِمـــا أَرادَ فِعـــالا
إِنَّ العِبـــادَ وَشَـــأنَهُم وَأُمـــورَهُم بِيَـــدِ الإِلَـــهِ يُقَلِّـــبُ الأَحـــوالا

[1]-شرح ديوان جرير،محمد اسماعيل عبد الله الصاوي،ط1،مطبعة الصاوي،مصر،دت :355
[2]-ينظر المرجع السابق ،شوقي ضيف:182
[3]-سيرة عمر بن عبد العزيز،بن الجوزي،تصحيح:محب الدّين الخطيب،دط،مطبعة المؤيد،مصر،1913 :142.

فَـــدَعِ العِبـــادَ وَلا تَكُـــن بِطلابِهـــم لَهِجـــاً تَضَعضَـــعُ لِلعبـــادِ سُـــؤالا [1]

أثر قيم الإسلام على النثر العربي:

لقد خدمت الأغراض النّثرية على اختلافها الدّعوة الإسلامية ولاسيّما الخطابة التي زادت الحاجة إليها وأصبحت الوسيلة الأكثر خدمة لنشر الدّين الإسلامي وتعاليمه،كما كان لها دور في تحميس الجند من أجل الجهاد في سبيل الله. وتعدّدت أنواع الخطابة باختلاف موضوعاتها وكثرت في عصر صدر الإسلام الخطابة الدينية التي جاءت تدعو إلى العمل الصالح وإلى مكارم الأخلاق ،فاكتسبت بفضل الدّين الإسلامي هذه الغاية الجليلة ،وأصبحت تنطلق من قلوب تحرّكها قوة العقيدة ،وكلّ همّها نشر الخير وتعاليم الإسلام السَّمحة بين النّاس كافة ،ولقد اعتمدها إمام الخطباء سيدنا محمد ﷺ والخلفاء الراشدين من بعده ،فدعت إلى ما دعا إليه ونهت عمّا نهى عنه، ولاسيّما أنّها كانت تلقى في المساجد بغرض الدّعوة إلى العمل الصالح والموعظة الحسنة ولشرح ما تعسّر فهمه من الدّين الجديد ،فاحتلّت بذلك المرتبة الثالثة بعد القرآن الكريم والسنّة النّبوية في خدمة الإسلام. ومن النماذج التي تعكس آثار مبادئ الإسلام وقيّمه على الخطابة العربية : خطبة أبو بكر الصديق (رضي الله عنه) الذي حمد الله وأثنى عليه ثمّ قال :"أيها النّاس، إنّي أوصيكم بتقوى الله العظيم في كلّ أمر وفي كلّ حال،ولزوم الحق فيما أحببتم وكرهتم ،فإنه ليس من دون الصدق من الحديث خير. ومن يكذب يفجر ،ومن يفجر يهلك. وإيّاكم والفخر ،وما الفخر من خلق من تراب وإلى التراب يعود ،هو اليوم حي وغدا ميت ،فاعملوا وعدُّوا أنفسكم في الموتى ،وما أشكل عليكم فردوا علمه إلى الله ،وقدِّموا إلى أنفسكم خيرا تجدوه محضرا ،فإنّه قال عز

[1]-الأغاني،الأصفهاني،تحقيق،إحسان عباس وآخرون،ج12،ط3،دار صادر،بيروت،2008: 218

وجل:{يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ } آل عمران:30

استهل أبو بكر الصديق خطبته بحمد الله والثناء عليه ،وهذه ميزة جديدة تميّزت بها الخطبة إبّان هذا العصر متأثرة في ذلك بتعاليم الإسلام ،ثم يدعو الناس إلى التقوى والحق والصدق ويحذرهم من الكذب والفخر ،ثم يذكّرهم بالموت وأنّ الإنسان يجزى على كلّ صغيرة وكبيرة إلاّ ما غفر الله ،ثم قال :"فاتّقوا الله عباد الله وراقبوه واعتبروا بمن مضى قبلكم ،واعلموا إنّه لابد من لقاء ربّكم والجزاء بأعمالكم صغيرها وكبيرها إلاّ ما غفر الله إنّه غفور رحيم ،فأنفسكم أنفسكم والمستعان الله ،ولا حول ولا قوة إلاّ بالله ،إنّ الله وملائكته يصلّون على النّبي ،يا أيّها الذين آمنوا صلّوا عليه وسلّموا تسليما ،اللهم صلّ على محمد عبدك ورسولك أفضل ما صلّيت على أحد من خلقك،وزكّينا بالصلاة عليه ،وألحقنا به واحشرنا في زمرته وأوردنا حوضه. اللهمّ أعنّا على طاعتك وانصرنا على عدوّك."[1]

إنّ أبا بكر في هذا الجزء يحثّ عباد الله على التّقوى ويذكّرهم بالجزاء ويدعوهم في نهاية الخطبة للصلاة والسلام على رسول الله ﷺ ،داعيا من الله الرضوان والإعانة على حسن طاعته ،فعكست بذلك هذه الخطبة مجموعة من القيّم والمبادئ التي نادى بها الدّين الإسلامي ،وهذا أبو بكر الصديق يدعو ثمّ ينهى ثمّ يُذَكِّرْ ،ولعله كان متأثرا في ذلك بخطب رسول الله ﷺ وبالقرآن الكريم الذي يحثّ تارة ثمّ ينهى ويهدد تارة أخرى.

واستمرّ الخلفاء الأمويون في تبليغ هذه الرسالة ،ولقد عكست خطبهم مجموعة من المبادئ والتعاليم التي نادى بها الدّين الإسلامي ،وهذا عمر بن عبد العزيز يخطب قائلا : "إنّ لكل سفر زاد لا محالة ،فتزودوا من دنياكم لأخرتكم التقوى ،وكونوا كمن

[1]-العقد الفريد،ابن عبد ربه،ج4 :151،152.

عاين ما أعدّ الله له من توابه وعقابه ،فترهبوا وترغبوا ،ولا يطلن عليكم الأمد فتقسوا قلوبكم وتنقادوا لعدوّكم ،فإنّ والله ،ما بسط أمل من يدري لعلّه لا يصبح بعد إمسائه،أو يمسي بعد إصباحه ،وربما كانت بين ذلك خطوات المنايا ،وإنما يطمئن للدنيا من أمن عواقبها ،فإنّ من يداوي من الدنيا كلما أصابت جراحة من ناحية أخرى ،فكيف يطمئن إليها،أعوذ بالله إن أمركم بما أنهى عنه نفسي فتخسر صفقتي ،وتظهر عيْلتي ،وتبدو مسكنتي في يوم لا ينفع فيه إلاّ الحق والصّدق. "[1]

إنّ أثر الإسلام واضح على هذه الخطبة وتعاليمه جلية فيها ،حيث يشبِّه عمر بن عبد العزيز الدنيا بالسفر في زاده ،ويدعو من أجل ذلك إلى العمل الصالح وإلى التقوى خشية يوم عظيم ،ثم يذكِّر بفناء الدنيا داعيا إلى عدم الاطمئنان إليها ،ويحذّر من اتباع العدو الذي قد يؤدي إلى الخسارة في الدنيا والآخرة.

لقد ظلّت الخطابة على عهدها وولائها في خدمة الدّين الإسلامي ،ولقد ظهرت فئة من الخطباء الوعاظ خلال هذا العصر تعنى خصيصا بتغذية النفس الإنسانية بالأخلاق الحميدة والمواعظ الحسنة. وعلى رأسهم الخطيب والواعظ الحسن البصري الذي قال في إحدى خطبه :"يا ابن آدم ،بع دنياك بآخرتك تربحهما جميعا ،ولا تبع آخرتك بدنياك فتخسرهما جميعا. يا ابن آدم ،إذا رأيت الناس في الخير فنافسهم فيه،وإذا رأيتهم في الشر فلا تغبطهم به ...يا ابن آدم ،طأ الأرض بقدميك فإنّها عمّا قليل قبرك،واعلم أنك لم تزل في هدم عمرك مذ سقطت من بطن أمك. فرحم الله رجلا نظر فتفكر ،وتفكر فاعتبر ،واعتبر فأبصر ،وأبصر فصبر...فمن حمد الدنيا ذم

[1]-المصدر السابق ،ابن عبد ربه،ج4 :180

الآخرة،وليس يكره لقاء الله إلاّ مقيم على سخطه. يا ابن آدم ،ليس الإيمان بالتحلّي ولا بالتّمني ،ولكنّه ما وقر في القلوب ،وصدّقته الأعمال."[1]

يدعو الحسن البصري في خطبته هذه إلى الابتعاد عن ملذات الدنيا والعمل للآخرة من أجل الفوز بالحياتين ،ويذكر أنّ الموت يقترب كلما توالت الأيام لذا على الإنسان أن يتفكر ويعتبر ويبصر ويصبر حتّى ينال رضا الله عز وجل ،فالإيمان ليس مجرد قول باللسان وإنّما هو تصديق بالقلوب والأعمال.

[1]-البيان والتبيين،الجاحظ،تحقيق :عبد السلام هارون،ج3،ط7،مكتبة الخانجي،مصر،دت :132-133.

أثر الأسلوب القرآني على الأدب العربي:

إنّ الدراسة التفسيرية للقرآن الكريم من الأمور الأوّلية والواجب مراعاتها لدراسة أثر الإسلام على الأدب العربي ،ولاسيّما وأنّه الكتاب الأوّل المدوّن في تاريخ العرب،فضلا عن جمال أسلوبه وروعة أدائه وتناغم آياته ،فكان لهذه المميزات الأثر الكبير على الأسلوب والبلاغة العربية ،أو بالأحرى كان له أثر على تاريخ الأدب العربي بصفة عامة. ولقد جاءت معجزة القرآن ملائمة لمستوى تفكير الفرد العربي الذي كان يتنفس الشّعر ويتفنّن في الفصاحة والبلاغة ويهوى سماع ألفاظه العذبة والمتناغمة،وهذا عبد الله الدراز يتحدث عن الإعجاز القرآني فيقول :"إنّ كل آية من القرآن الكريم قد استوفت عناصر الجمال من القصد في اللفظ والوفاء بحق المعنى،وكونها تخاطب الناس جميعا على اختلاف مستويات عقولهم ،وتمتاز بالإجمال مع البيان والوضوح ،هذه العناصر تراها في كل قطعة من القرآن على أتم وجه وأكمله،وبلغت حد الإعجاز ."[1]

وكان لنزول هذا الكتاب العظيم آثار جليلة على حياة المسلمين الذين نقلهم من ذلك المستوى المنحط إلى مستوى القيم والأخلاق والحضارة والعلوم بعدما جاء بتلك الصورة المتكاملة حول الإنسان والحياة والكون ،ويحسب له الفضل الكبير في ظهور مُجمل العلوم آنذاك ،والتي جاءت لخدمته من وجهة وتلبية لأوامره سبحانه وتعالى في طلب العلم من وجهة أخرى. وهذا أدونيس تحدّث عن أثر القرآن الكريم على حياة العرب :"لم يكن القرآن رؤية أو قراءة جديدة ،وكما أنّه يمثّل قطيعة مع الجاهلية على مستوى المعرفة ،فإنّه يمثّل كذلك قطيعة معها ،على مستوى الشكل التعبيري ،هكذا كان النص القرآني تحولا جذريا وشاملا :به وفيه تأسست النقلة من الشفوية إلى الكتابة

[1]-النبأ العظيم،محمد عبد الله دراز،مطبعة السعادة ،1960: 61.

(من الثقافة البديهية والارتجال إلى ثقافة الرؤية والتأمل) ومن النظرة التي لا تلامس الوجود في ظاهرة الوثني إلى النظرة التي تلامسه في عمقه الميتافيزيائي وفي شموله نشأة ومصيرا."[1]

إنّ جمالية الأسلوب القرآني تدلّ على الإعجاز والقدرة الإلهية الخارقة التي تجعل الآذان تستعذب هذا الكلام الإلهي الذي يستهوي حتّى الأعجمي الذي لا يعرف من العربية شيء ،ويؤثّر في نفسه ذلك التناغم الموجود في آياته ،ويطمح لسماع المزيد وكأنه يخاطب الوجدان قبل العقل. ولقد اصطدم الجاهليون بدعوة الإسلام التي أنكرها جلهم ثمّ اتبعها أكثرهم بعد سماع هذا الكلام الرائع ،فهذا الوليد بن المغيرة يقول بعدما سمع آيات من القرآن الكريم :"والله لقد سمعت من محمد كلاما ،ما هو من الإنس ولا من كلام الجن ،وإنّ له لحلاوة ،وإنّ عليه لطلاوة ،وإنّ أعلاه لمثمر وإنّ أسفله لمغدق."[2]

وقد تناول السيد قطب التصوير الفنّي في القرآن الكريم الذي يراه أهم خاصية في الأسلوب القرآني فقال:" التصوير هو الأداة المفضلة في أسلوب القرآن ،فهو يعبّر بالصورة المحسة المتخيلة عن المعنى الذهني والحالة النفسية وعن الحادث المحسوس والمشهد المنظور ،وعن النموذج الإنساني والطبيعة البشرية ثمّ يرتقي بالصورة التي يرسمها فيمنحها الحياة الشاخصة أو الحركة المتجددة."[3] فهو بذلك يرى بأنّ القرآن الكريم يمنح الحياة والحركة إلى مختلف العناصر التي تناولها فتصبح مجسّمة مرئية بفضل هذه الخاصية ثمّ يتوسع في ذلك ويقول :"التصوير الفنّي في القرآن هو تصوير باللّون وتصوير بالحركة وتصوير بالتخيّل كما أنّه تصوير بالنغمة تقوم مقام اللون في التمثيل وكثيرا ما يشترك الوصف والحوار وجرس الكلمات ونغم العبارات وموسيقى

[1]-الشعرية العربية،أدونيس،ط2،دار الآداب،بيروت،1989 :37،36.
[2]-تفسير الكشّاف،الزمخشري:1156
[3]-التصوير الفني في القرآن الكريم،سيد قطب،ط16،دار الشروق،القاهرة،2002 :36

السياق في إبراز صورة من صور تتملاها العين والأذن والحس والخيال والفكر والوجدان."[1] ومن وجهة أخرى يركّز على ظاهرتين في التصوير الفني وهما التخيل والتجسيم أي :تجسيم المعنويات المجردة وإبرازها أجساما أو محسوسات ،ويؤكّد بأنّه الأسلوب المفضل في الأسلوب القرآني ،وقد يتعدّى هذا التجسيم إلى المواضع الحسّاسة كالذّات الإلهية مثلا.[2] ثمّ ينتقل إلى ظاهرة أخرى في التصوير والمتمثلة في التّناسق الفنّي ،فيذكر أنه ألوان ودرجات وقد تفطّن إلى الألوان الآتية أغلب الدارسين ،كالتنسيق في تأليف العبارات بتخيّر الألفاظ ثمّ نظمها في نسق خاص ،ثم الإيقاع الموسيقي الناشئ من تخيّر الألفاظ ونظمها في نسق خاص ،ثم النكت البلاغية :كأن تأتي الفاصلة بعد كلام يثبت القدرة ،ومنها كذلك التسلسل المعنوي بين الأغراض في سياق الآيات والتناسب في الانتقال من غرض لآخر ،ثم التناسق النفسي بين الخطوات المتدرجة في بعض النصوص والخطوات النفسية التي تصاحبها[3].ويزيد السيد قطب على هذه الألوان ألوانا أخرى فيقول :" هناك التي يتناسق فـيها التعبـير مع الحالة المراد تصويرها ،فيساعد على إكمال معـالم الصورة الحسيّة أو المعنوية ،وهذه خطوة مشتركة بين التعبير للتعبير والتعبير للتصوير ،فهي مفرق الطرق بين السطوح المستوية والقمم المتدحرجة."[4] ويستشهد من أجل ذلك بآية قرآنية :{والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم } فهو في هذه الآية يشبّه الكافرين بالأنعام التي تأكل غافلة عن أمور أخرى. وقد ترتسم الصورة بلفظ واحد ،إما بجرسه الذي يلقيه في الأذن أو بظله الذي يلقيه في الخيال أو بهما معا ،[5]ثم يذكُر التقابل الدقيق بين الصور الـتي

[1]-المرجع السابق:37.
[2]-ينظر:المرجع نفسه:72.
[3]ينظر:المرجع النفسه:87، 88.
[4]- ينظر:المرجع نفسه:90
[5]-المرجع السابق:91

ترسمها التعبيرات ،كونه طريقة من طرق التصوير والتلحين ،كمظهر آخر من مظاهر التناسق الفنّي.[1]

إنّ القرآن الكريم يتميّز بتلاؤم ألفاظه وقوة سبك عباراته وبإيقاع موسيقي خاص يتبع حجم الفواصل ،بالإضافة إلى انسجام الحروف في الكلمة والألفاظ في الفاصلة. ويجمل السيّد قطب الكلام عن التناسق الفني في القرآن مقارنة بالأدب العربي من حيث الوزن والقافية فيقول :"لقد جمع النّسق القرآني بين مزايا النّثر والشّعر جميعا،فقد أعفي التعبير من قيود القافية الموحّدة والتفعيلات التامة ،فنال بذلك حرية التعبير الكاملة عن جميع أغراضه العامة ،وأخذ في الوقت ذاته من الشّعر الموسيقى الداخلية،والفواصل المتقاربة في الوزن والتي تغني عن التفاعيل والتقفية المتقاربة التي تغني عن القوافي."[2]

لقد تنوّع التصوير الفنّي في الأسلوب القرآني بين التخيّل والتجسيم تارة ،وبين التّناسق الفنّي والتّناغم الموسيقي تارة أخرى ،ولعلّ هذا ما يعكس نقاط الإعجاز على مستوى أسلوبه الذي كان وسيظلّ المعجزة الحاضرة في كلّ زمان ومكان.

وتجدر الإشارة إلى أنّ للقرآن الكريم أثر بارز على اللّغة من حيث إنّه وحّد لهجات العرب وأسهم بشكل كبير في ذيوع اللّغة العربية والحفاظ عليها ،ولقد جاء كذلك بمعان وألفاظ لم تعهدها اللّغة بفضل أسلوبه الراقي ونظمه الفريد تركيبا وبلاغة[3]. وبفضله استبدل الأدباء الألفاظ الحوشية والغريبة بألفاظ عذبة وسلسة تمتاز بالرقة والسهولة مقارنة بالألفاظ الجاهلية ،وفي ذلك يقول أحمد حسين الزيات :"أما تأثيره في اللّغة وأدبها ،فلقد خالط من القوم قلوبا قاسية فألانها ،وطباعا جافية فأرّقها ،وأحلاما

[1]- ينظر:المرجع نفسه:96.
[2]- ينظر:المرجع نفسه:102.
[3]-. ينظر:الحياة الأدبية بعد ظهور الإسلام،عبد المنعم خفاجي:40 ،الأدب العربي في العصر الإسلامي،شوقي ضيف:31-33.

طافية فأقرها ،فأكسب ذلك اللّغة عذوبة في اللفظ ورقة في التركيب ودقة في الأداء وقوة في المنطق وثروة في المعاني."[1] أمّا عن تأثيره في الأدب العربي ،فلقد انبهر العرب بالقرآن كأدب لم يعهدوه وبنظمه الذي لم يألفوه ،وراحوا يرددون آياته التي ليس لها مثيل فأصبح أدبهم الأمثل الذي غمر قلوبهم وعقولهم ،وأخذ الأدباء ينسجون منه عباراتهم ويقتبسون من صوره آيات ينمقون بها أشعارهم تارة وخطبهم تارة أخرى ،وفي هذا المقام يذكر الباقلاني :"ليس للعرب كلام مشتمل على هذه الفصاحة والغرابة والتصرف والبديع والمعاني اللطيفة والفوائد الكثيرة ،والتّناسب في البلاغة والتّشابه في البراعة على هذا الطول وهذا القدر ،وإنّما تنسب إلى حكيمهم كلمات معدودة وألفاظ قليلة ،وإلى شاعرهم قصائد محصورة يقع فيها ما نبنيه بعد هذا الاختلال ويعترضها ما نكشفه من الاختلاف ،ويقع فيها ما نبديه من التّعمل والتّكلف والتّجاوز والتّعسف."[2] فكان أثره على الأدب العربي كبيرا أسلوبا وبلاغةً ،أما من حيث الشّكل فقد أوجد فنونا أدبية جديدة كأدب الزهد والحماسة ،وأبطل أخرى كسجع الكهان والهجاء الكاذب والفّخر وغيرها ،فضلا عن كونه الأساس الذي وضعت من أجله العلوم التي تعنى بدراسة اللّغة بعامة ولغة القرآن بخاصة كعلوم البلاغة وغيرها مما أسهم في وضع الأصول العلمية للثقافة الإسلامية ،كما أثّر الأسلوب القرآني على بلاغة الأدب العربي القديم بيانا وبديعا وارتقى بالمعاني الأدبية دلالة وتركيبا ،وظهر اهتمام خاص من قبل الأدباء بالمعاني الإسلامية وتأثّروا بتعبيره ومنهجه في صياغة الحجج والآراء.[3]

عموما ،لقد أمعن الشعراء المتأثرون بالأسلوب القرآني في جمال السّبك وعذوبته،ولقد كثر الاقتباس من القرآن الكريم ،والأبيات المذكورة سالفا قد عكست جلّها

---

[1]- تاريخ الأدب العربي:90

[2]-إعجاز القرآن،الباقلاني،دط،دار المعارف،مصر،دت:36

[3]-ينظر:الحياة الأدبية بعد ظهور الإسلام،خفاجي عبد المنعم:41، 42.

هذا التأثر فضلا عن كونها اشتملت على مجموعة من القيم والمبادئ الإسلامية،ونذكر في هذا المقام أبيات النابغة الجعدي التي نسجها في ضوء القرآن الكريم وهديِه باقتباسه مجموعة من الآيات التي سكنت روحه ووجدانه حتّى نظمها شِعرا فقال:

الحَمـــــدُ لِلهِ لاَ شَـــــرِيكَ لَـــــهُ مَـــن لَـــم يَقُلهـــا فَنَفسَـــهُ ظَلَمـــا

المُـــولِجِ الليـــلَ فـــي النهـــارِ وَفِـــي الليـــلِ نَهـــاراً يُفـــرّجُ الظُّلَمـــا

الخـــافِضِ الرافِـــعِ السَـــماءَ عَلـــى ال أَرضِ وَلَـــم يَـــبنِ تَحتَهـــا دِعَمـــا[1]

نلاحظ بأنّ الشاعر قد اقتبس العديد من الآيات القرآنية في هذه الأبيات،ففي البيت الأول اقتبس قوله تعالى:{ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَٰكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ } يونس-44-ثم اقتبس الآية الكريمة في البيت الثاني:{ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ...}آل عمران-27- وفي البيت الثالث اقتبس قوله تعالى:{ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا }الرعد-2-

هذا ،ولقد رفع القرآن الكريم من شأن النّثر في الأدب العربي القديم الذي كان قد غلب عليه الشّعر في العصر الجاهلي ،وكان لأسلوبه أكبر الأثر على النثر بعامة وعلى الخطابة بخاصة ،حيث نقلها من تلك الجمل المسجوعة التي تميّزت بالقصر والتفكك إلى جمل متناسقة ومتآلفة يكتمل حسنها بالصور البيانية والمحسنات البديعية التي تزيدها رونقا وجمالا.[2] وفي هذا المقام ذكر الجاحظ أنّ العرب المسلمين استحسنوا تضمين آيات من القرآن الكريم في خطبهم ورسائلهم ،ولاسيّما الخطب الدينية في الجمع والأعياد ونحوهما ،قال :"وكانوا يستحسنون أن يكون في الخطب يوم الحفل وفي الكلام يوم الجمع آيات من القرآن فإنّ ذلك مما يورث الكلام البهاء والوقار والرقة وسلس الموقع ،وقال الهيثم بن عدى :قال عمر بن حطان :إنّ أول خطبة خطبتها عند زياد

[1]-الشعر والشعراء،ابن قتيبة:184.
[2]-تاريخ الأدب العربي ،محمد حسين الزيات:87

أو(عند ابن زياد) فأعجب بها الناس وشهدها عمي وأبي ،ثم أني مررت ببعض المجالس فسمعت رجلا يقول لبعضهم :هذا الفتى أخطب العرب لو كان في خطبته شيء من القرآن."[1]

ولقد تأثر عثمان بن عفان كغيره من خطباء ذلك العصر بالقرآن الكريم،والخطبة التي في متناولنا تضمنت آية من آياته ،قال فيها:

"إنكم في دار قلعة ،وفي بقية الأعمار ،فبادروا آجالكم بخير ما تقدرون عليه ،فلقد أتيتم ،صبّحتم أو أمسيتم ،ألا وإنّ الدنيا طويت على الغرور ،فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور ،اعتبروا بمن مضى ،ثم جدوا ولا تغفلوا ،فإنه لا يغفل عنكم ،أين أبناء الدنيا وإخوانها الذين أثاروها وعمروها ،ومنعوا بها طويلا ،ألم تلفظهم ارموا بالدنيا حيث رمى الله بها ،واطلبوا الآخرة ؛فإنّ الله قد ضرب لها مثلا ،وللذي هو خير ،فقال عز وجل ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ فَأَصۡبَحَ هَشِيمٗا تَذۡرُوهُ ٱلرِّيَٰحُۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقۡتَدِرًا ٤٥ ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ أَمَلٗا ٤٦﴾ الكهف : 45 و46

يحذّر عثمان بن عفان (رضي الله عنه) من الغرور والغفلة في الدنيا الفانية،ويدعو إلى طلب الآخرة ،ثم يستشهد بآية قرآنية حتّى يدعّم ما ذهب إليه ،وحتّى تكون خطبته أشدّ وقعا وتأثيرا في النفوس.

أثر الحديث النبوي على الأدب العربي القديم:

يعدّ الحديث النبوي المصدر الإسلامي الثاني من المصادر التشريعية بعد القرآن الكريم ،وجاء مفصّلا وموضّحا ومتمّما لتعاليم الدّين الإسلامي ،ومنظّما للأمور الدينية والدنيوية ،وهو ثاني المصادر روعة من حيث الأسلوب والأداء بعد القرآن

[1]-البيان والتبيين ،الجاحظ،:118.

الكريم،فتركت بذلك بلاغته آثارا جليلة في اللّغة والأدب ،ولا غرو ،فإنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أفصـح العرب ،ولذلك تميّزت أحاديثه بالبساطة والإيجاز والتلميح[1]،وبنيت على أساس الخلوص ؛أي:الأسلوب العصبي الجامع المجتمِع على توثيق السرد وكمال الملاءمة ثمّ القصد الذي يخدم اللفظ والمعنى في آن واحد ،ثم الاستيفاء ؛أي خلو تركيبه من الإحالة أو الاضطراب ،وبعبارة أخرى فإنّ الأحاديث النبوية قد استوفت معناها وغايتها[2]. وقد ذكر الجاحظ أنّ رسول الله ﷺ "لم يتكلم إلاّ بكلام قد خفّ بالعصمة وشدّ بالتأييد ويسّر بالتوفيق ،وهو الكلام الذي ألقى الله عليه المحبة وغشّاه بالقبول ،وجمع له بين المهابة والحلاوة وبين حسن الإفهام وقلّة عدد الكلام...ثم لم يسمع الناس بكلام قط أعمّ نفعا ولا أقصد لفظا ولا أعدل وزنا ولا أجمل مذهبا ولا أكرم مطلبا ولا أحسن موقعا ولا أسهل مخرجا ،ولا أفصح معنى ولا أبين في فحوى من كلامه ﷺ."[3]

ولقد اختلفت صيّغ الأحاديث النبوية باختلاف المواضع والقيم كما أشار إلى ذلك الدكتور محمد مرتاض قال :"كانت لغته تساير المناسبة وقيمة المخاطب في الفصاحة،ولكن لجوء الرسول أحيانا إلى الغرابة لا يعني أنّ مرد ذلك إلى التشبث أو الولوع بها ،وإنما لكونه يخاطب كلاّ حسب لغته واستطاعته وقدراته الثقافية ،بينما تكون الأحاديث الأخرى بيّنة الدلالة ،واضحة العبارة حتّى في التمثيل والاستعارة والكناية وغيرها من آيات البيان العربي."[4]

[1]-ينظر:تطور الأساليب النثرية،أنيس المقديسي،ط6،دار العلم للملايين،بيروت،1979 :85

[2]-ينظر:إعجاز القرآن والبلاغة النبوية،مصطفى صادق الرافعي،تقديم:نجوى عباس،ط1،مؤسسة المختار،القاهرة،2004 :263- 264

[3]-البيان و التبيين،الجاحظ،،تحقيق:عبد السلام هارون،ط1،مكتبة الخانجي،مصر،ج2،دت:17

[4]-الرسائل النبوية وقيمتها الفنية(رسالة لنيل دبلوم الدراسات المعمقة)،محمد مرتاض،إشراف:محمد عبد الغاني الشيخ،معهد اللّغة والأدب العربي،جامعة وهران،1978 :57.

وبذلك ،فقد جمع (ﷺ) بين الفصاحة والوضوح ،وبين الإيجاز وروعة التصوير،وبين الحكمة والصدق ،ولعل هذا ما أضفى عظمة وجمالا في أسلوبه الذي جاء متميّزا بتميّز رسول الأمة الإسلامية وحكيمها وبسمو غايته وقوة عقيدته.

وانفرد الحديث النبوي في اللّغة العربية ببلاغته ونسقه وبيانه وبإحكامه في الصناعتين اللغوية والبيانية ،وفي هذا يذكر الرافعي:" رأيته في الأولى مسدّد اللفظ محكم الوضع جزل التركيب ،متناسب الأجزاء في تأليف الكلمات :فخم الجملة واضح الصّلة بين اللّفظ ومعناه واللّفظ وضريبه في التأليف والنسق ،ثم لا ترى فيه حرفا مضطربا ،ولا لفظة مستدعاة لمعناها أو مستكرهة عليه ،ولا كلمة غيرها أتم منها أداء للمعنى وتأتيّا لسرّه في الاستعمال ،ورأيته في الثانية حسن المعرض ،بين الجملة،واضح التفضيل ،ظاهر الحدود ،جيد الرصف ،متمكن المعنى ،واسع الحيلة في تصريفه ،بديع الإشارة ،غريب اللمحة ،ناصع البيان ،ثم لا ترى إحالة ولا استكراها ،ولا ترى اضرابا ولا خـطلا ،ولا استعانة من عجز ،ولا توسعا من ضيق ،ولا ضعفا في وجه من الوجوه."[1] وبهذا ،فالحديث النبوي جاء في نسق بلاغي متكامل لغة وبيانا ،حيث جاءت ألفاظه مناسبة وقوية وبليغة ،واتسمت عباراته بالاتساق وحسن السّبك ،أما بلاغته فزادت التركيب وضوحا وجمالا ،ولعل سر تميّزه– ﷺ– بهذا البيان والإلهام والعبقرية يكمن كما ذكر أحمد حسين الزيات في نشأته التي كانت بقريش واسترضاعه في بني سعد والتي تعدّ أفصح القبائل العربية ،فضلا على تأثره بالقرآن الكريم واضطلاعه على لغة العرب،ويبدو أنه ﷺ تميّز بقدرته الفطرية في اختراع الأساليب البيانية الجديدة والعالية[2]،مما جعلته ثاني الأساليب روعة بعد القرآن الكريم.

[1]-إعجاز القرآن والبلاغة النبوية،الرافعي:253-254.
[2]-ينظر:تاريخ الأدب العربي،محمد حسين الزيات:95.

أما عن تأثيره في اللّغة والأدب فقد أسهم الحديث النبوي بجانب القرآن الكريم في توحيد لهجات العرب والإبقاء على اللّغة العربية وذيوعها ،كما يحسب له الفضل في توسيع المادة اللغوية بتلك الألفاظ الدينية والفقهية التي لم يكن للعرب عهد بها ،وبفضل الحديث النبوي قامت العديد من العلوم التي عنيَت خصيصا بدراسة هذه المادة الغّنية شكلا ومضمونا ،وظهر اهتمام خاص بالكتابة التاريخية التي اهتمت بتدوين السّيرة النبوية وبتراجم المحدثين ،وهذا ما هيأ لظهور كتب الطبقات في مختلف الفنون ،كما يعد المادة الأساس في علوم الفقه والتفسير[1].

ولقد أثرى رسول الله ﷺ اللّغة العربية بتراكيبه البيانية التي لم تعهدها العرب،فاحتذاها البلغاء الذين راحوا ينمقون بها خطبهم ،فكانت تزيد اللّغة ليونة وجمالا بروعة سبكها وقوة بلاغتها ،فتركت في نفوس الأدباء أثرا جليلا انعكس ظلّه على بلاغة الأدب العربي وأسلوبه[2]. كما يحسب للحديث النبوي الفضل في نقل الأدب من الحوشية والغرابة إلى السلاسة والوضوح أسلوبا وبيانا ،بالإضافة إلى إسهامه في الرفع من منزلة النثر وفي تهذيب الأغراض الأدبية ،ولقد تأثر به الأدباء بعامة والخطباء بخاصة الذين قلّدوا نظمه واقتبسوا من أحاديثه التي كانت تزيد المعنى قوة ووضوحا،ولاسيّما الذين اشتدّ اختلاطهم به كالإمام علي بن أبي طالب.[3]

وتجدر الإشارة إلى أنّ الشّعر قد تأثّر هو الآخر بالحديث النبوي ،ومن النماذج الشعرية التي تعكس ذلك ما نظمه سلمان بن ربيعة (ت:25هـ) متأثرا بقوله صلى الله عليه وسلم :"عليك بذات الدّين تربت يداك"[4] فقال:

---

[1]-ينظر:الأدب العربي في العصر الإسلامي،شوقي ضيف:40،41،الحياة الأدبية بعد ظهور الإسلام،عبد المنعم خفاجي:63.

[2]-ينظر:المرجع السابق ، محمد حسين الزيات:245 ،246.

[3]-ينظر:المرجع السابق،عبد المنعم خفاجي:63،المرجع السابق، محمد حسين الزيات:98

[4]-صحيح مسلم،ط1،دار طيبة،الرياض،2006 :670

تربّتّ يداك وهلْ رأيت لقومه مثلي على يسري وحينَ تعلَّتي[1]

وكذلك اقتباس أبو أسود الدؤلي من قوله ﷺ:"أحْبِبْ حَبيبَكَ هَوْناً ما عسَى أن يكونَ بَغِيضَكَ يَوماً ما وأبْغِضْ بَغيضَكَ هَوْناً ما عَسى أن يكونَ حَبيبَكَ يوماً ما."[2] فقال:

أَحبِــب إذا أَحبَبــتَ حُبّــاً مُقارِبــاً فَإِنَّــكَ لا تَــدري مَتــى أَنــتَ نــازِعُ

وَأَبغِـض إذا بغَضـتَ بُغضـاً مُقارِبـاً فَإِنَّـكَ لا تَـدري مَتـى أَنـتَ راجِـعُ[3]

وهذا حسان بن ثابت يرثي سعد بن معاذ متأثرا بقوله ﷺ:"اهتز العرش بموت سعد بن معاذ"[4] فقال:

وَما اِهتَزَّ عَرشُ اللهِ مِن مَوتِ هالِكٍ سَــمِعنا بِــهِ إِلّا لِسَــعدٍ أَبــي عَمــرِ[5]

يتجلى بيّننا أن الإسلام قد أثّر على أدب صدر الإسلام والأدب الأموي ،حيث وجدنا أنّ معظم الأدباء والشعراء قد استمّدوا أفكارهم ومعانيهم وبلاغتهم من القرآن الكريم والسنة النبوية ،فتأثروا بمبادئه تارة ،وبأسلوبه الجديد تارة أخرى ،كما مال الكثير منهم نحو اقتباس الآيات القرآنية والأحاديث النبوية حتّى تزيد إبداعاتهم الشعرية والنثرية قوة في المعنى وجمالا في المبنى.

[1]-المستقصي في أمثال العرب،الزمخشري،ج2،ط1،مطبوعات دائرة المعارف العثمانية،1962: 23

[2]-الجامع الصحيح سنن الترمذي،الترمذي،تحقيق:أحمد محمد شاكر،ج4،ط2،مطبعة مصطفى البابي الحلبي،1978 :360،(1997)

[3]-الأغاني:ج12 :231

[4]-اللؤلؤ والمرجان،محمد فؤاد عبد الباقي،ج3،دط،دار إحياء الكتب العربية،دت :158.

[5]-الاستيعاب،عمرو بن عبد البر:363/1.

الفصل الثاني

واقع الحضارة العربية الإسلامية في العصر العباسي

- نبذة عن قيام الخلافة العباسية

-الحياة الاجتماعية في العصر العباسي

- الحياة الفكرية في العصر العباسي

-مظاهر الثراء والترف في الحضارة العباسية

-نبذة قيام الخلافة العباسية:

إنّ ما يميّز صفحات التاريخ الاسلامي هو ذلك التعاقب الذي عرفته العصور الإسلامية ،ومن أغرب ما يذكر في هذا المقام قيام الدولة العباسية على أنقاض ملك بني أمية ،بعد أن تهيّأت لها الأسباب وبعد أن تضافرت مجموعة من العوامل أدّت إلى انهيار الأولى وقيام الثانية ،ونوجز أهمها فيما يلي:

-صراع الحركات الدينية والأحزاب السياسية حول الخلافة شكّل خطرا هدّد الخلافة الأموية وأدّى إلى إضعافها[1].

-موجات الاستياء ضد الحكم الأموي ولاسيّما بعد خروج الأمويين عن نظام الشورى الذي كان سائدا في حكم الخلفاء الراشدين واعتمادهم نظام التوريث الذي ميّز ملكهم بالاستبداد والطغيان ،هذا بالإضافة إلى ميل الملوك إلى اللهو وابتعادهم عن القيم الأخلاقية والمبادئ الدينية.[2]

-تعدّ العصبية القبلية التي أذكى نارها خلفاء بني أمية من أهم الدواعي التي أسهمت في زوال ملكهم ،ولقد انقسم العرب على إثرها إلى يمانية وقيسية ،ولقد نتج بينهما عداء كبير نتيجة لانحياز الأمويين إلى أحدهما دون الآخر.[3]

-تهميش الموالي واحتقارهم والاستبداد بهم كان وليد شعورهم بالذل والإهانة وحقدهم الشديد على الخلفاء.[4]

---

[1]-ينظر:تاريخ الفكر العربي حتّى أيام بن خلدون،عمر فروخ،ط4،،دار العلم للملايين،بيروت1983 :197-198.

[2]-ينظر: تاريخ الإسلام،حسن ابراهيم حسن،ج2،ط14،دار الجيل،بيروت،1996: 12،دراسات في تاريخ العرب،العصر العباسي الأول،السيد عبد العزيز سالم،ج3،مؤسسة شباب الجامعة،اسكندرية،1993 :32.

[3]-ينظر:تاريخ العصر العباسي،أمينة بيطاردط،مطبعة جامعة دمشق،دت:11

[4]-ينظر:حضارة العرب في العصر العباسي،حسين حاج حسن،ط1،المؤسسة الجامعية،بيروت،1994 :7

–لقد كان لنظام تولية العهد لأكثر من واحد أثر على أفراد البيت الأموي حيث كثرت بينهم الفتن والمنازعات.[1]

ولقد صوّر أحد شيوخ بني أمية أسباب سقوط الخلافة الأموية فقال :"إنّا شُغِلْنا بلذّاتنا عن تفقّد ما كان تفقّده يلزمنا ،فظلمنا رعيتنا ،فيئسوا من إنْصافنا ،وتمنّوا الراحة منا ،وتحومل على أهل خَراجنا ،فتخلّوا عنا ،وخرجت ضياعنا ،فخلت بيوت أموالنا،ووثقنا بوزرائنا ،فآثروا مرافقهم على منافعنا ،وأمضوا أمورا دوننا أخفوا علمها،وتأخّر عطاء جندنا ،فزالت طاعتهم لنا ،واستدعاهم أعادينا ،فتضافروا معهم على حربنا ،وطلبنا أعداءنا فعجزنا عنهم لقلة أنصارنا ،وكان استتار الأخبار عنّا من أوْكَد أسباب زوال مُلكنا."[2]

لقد اعتبر المؤرخون الدّعوة العباسية من أغرب القصص وأكثرها بداهة وفطنة من حيث التحضير المحكم والعبقرية في تسلسل الأحداث حيث مرت بمرحلتين:

المرحلة الأولى:شملت التحضير السري للدعوة التي كان يديرها الإمام محمد بن علي العباسي (118–125هـ) ،والتي كان ينظمها في حميمة كمركز للدعوة بفضل موقعها الجغرافي الذي جعل منها منطقة استراتجية باعتبارها تقع على خط القوافل التجارية وطريق الحج ولبعدها عن المسرح السياسي ،ولقد حرص الإمام علي على إخفاء أطماعه نحو الخلافة حينما طلب من أتباعه دعوة الناس إلى ولاية آل البيت. ولقد ركّز على الكوفة (لتواجد أنصار علي) وعلى خراسان (مقر الموالي) حتّى يؤيِدونه وينتقمون من بني أميـة ،ولقد توفي الإمام محمد في عام 125هـ وأوصى بالإمامة بعده لابنه ابراهيم.

[1]-ينظر: دراسات في تاريخ العرب،العصر العباسي الأول ،السيد عبد العزيز سالم:37،36.
[2]-مروج الذهب،المسعودي،مراجعة:كمال حسن مرعي،ج3،ط1،المكتبة العصرية،بيروت،2005: 189.

والأخرى:وهي مرحلة القوة والإعلان عن الدعوة العباسية ،وفيها انضم أبو مسلم الخراساني إلى الدعوة ،هذا الرجل الذي تميّز بالذكاء وحسن التسيير وعلى درجة عالية من الكفاءة ،وهو من أصل فارسي ،ولقد تم اختياره عن قصد لأنّه سيخدم الدعوة العباسية بقلبه وروحه انتقاما من الخلفاء الأمويين ،ولقد استطاع أن يسيطر على زمام الأمور في الشرق وحقق الكثير من الانتصارات.[1] ولقد علم الحكام الأمويون خطورة الوضع ولكن بعد فوات الأوان ،وإن حاولوا السيطرة على زمام الأمور ،إلا أنّ محاولاتهم باءت بالفشل لتفشي هذه الدعوة في معظم الأقاليم الشرقية. ولقد تم إعلان قيام الدولة العباسية سنة 132هـ بعد أن انهزم الجيش الأموي أمام الجيش العباسي عند نهر الزاب، وقاموا بمبايعة أبو عباس السفاح خليفة لهم.[2]

انطلاقا من ظروف قيام الدولة العباسية يمكننا أن نقف عند بعض النقاط التي سيكون لها أثر بالغ الأهمية في التاريخ العباسي والحضارة العربية الإسلامية ،ونوجز أهمها فيما يلي:

-انتقال حاضرة الخلافة من دمشق إبّان الحكم الأموي إلى بغداد في فترة الحكم العباسي.

-كثرة العنصر الفارسي ومساواته بالعنصر العربي بعد الدور الكبير الذي أدّاه العنصر الأجنبي في انجاح الدعوة العباسية ،مما كان له أثر في الامتزاج الثقافي بين الجنسين.[3]

[1]-ينظر:تاريخ الدولة العباسية، محمد سهيل طقوش،ط2،دار النفائس،بيروت،1998 :18 و ما بعدها،دراسات في تاريخ الدولة العباسية،عصام الدّين عبد الرؤوف الفقي،دط،دار الفكر العربي،القاهرة،1999 :19،تاريخ الإسلام،حسن ابراهيم حسن:16،17.

[2]-ينظر:دراسات في تاريخ الدولة العباسية،عصم الدّين عبد الرؤوف الفقي: 22.

[3]- ينظر:تاريخ الدولة العباسية، محمد سهيل طقوش:30

-انتهاج العباسيون سياسة تختلف عن تلك التي اتبعها الخلفاء الأمويون في فرض الضرائب وإنهاك الرعية بها مما أدى إلى تحسن الأحوال الاقتصادية.[1]

لقد امتد الحكم العباسي من سنة 132هـ إلى سنة 656هـ ،ابتدأ بأبي عباس السفاح وانتهى بوفاة المستعصم بالله ،ولقد قسم المؤرخون هذا العصر العظيم إلى مراحل حسب التغيرات والتطورات التي مست مختلف الميادين ،وتتمثل في الآتي:

العصر الأول:عصر القوة و التوسع والازدهار(132-232هـ).

العصر الثاني:عصر النفوذ التركي(232هـ-334هـ).

العصر الثالث:عصر النفوذ البويهي الفارسي(334-447هـ).

العصر الرابع:عصر النفوذ السلجوقي التركي(447هـ-656هـ)[2].

[1]- ينظر: دراسات في تاريخ الدولة العباسية ، عصم الدّين عبد الرؤوف الفقي:24

[2]-ينظر: تاريخ الدولة العباسية ، محمد سهيل طقوش: 32 -33.

2-الحياة الاجتماعية:

لقد أثّرت الأحداث السياسية والتغيرات التي طرأت على الدولة الإسلامية في الحياة الاجتماعية التي تحكما عبر مسارها عاملين أساسين وهما:

-الفتوح الإسلامية وما نتج عنها من تنوّع في التركيبة الاجتماعية التي أصبحت تضمّ أجناسا مختلفة حدث بينها امتزاج جنسي وثقافي وانعكست آثارها على الحياة العباسية.

-انتشار موجة الثراء والترف عند طبقة دون أخرى ولّد نزعتين مختلفتين :الفئة المترفة مالت إلى اللهو والخلاعة والمجون متأثرة في ذلك بالعادات والتقاليد الأجنبية ،أما الفئة المحرومة فمالت إلى الزهد ونبذت ما آلت إليه الفئة الأولى من التحلل الأخلاقي ،والتزمت بتعاليم الدّين الإسلامي ومبادئه.

ولقد نتج عن هذين العاملين مجموعة من المظاهر الاجتماعية تمثلت فيما يلي:

1-كثرة الجواري و الغلمان:

انتشرت تجارة الرقيق في هذا العصر انتشارا واسعا ،ومع كثرة الأموال اهتمّ الملوك والأمراء والطبقة الميسورة من التجّار والعلماء باقتناء الجواري والغلمان الذين كانوا من أجناس مختلفة ،وكانت أثمانهم تزيد وتنقص باختلاف أجناسهم وثقافتهم ،لذلك اهتم التجّار بتعليمهم لتحقيق الرّبح من وراء بيعهم ،وكانت النساء أكثر عددا من الرجال ،فمنهن:السنديات والفارسيات والحبشيات والخراسنيات والأرمنيات والتركيات والروميات وغيرهن ،وكان لهن تأثير واضح في المجتمع العباسي بحكم اختلاف أجناسهن وثقافتهن ولغاتهن وديانتهن ،وامتد هذا الأثر إلى قصر الخلافة ،حيث كان أكثر الخلفاء من أبنائهن ،كالمنصور الذي كانت أمه حبشية ،والهادي والرشيد اللذين كانت أمهما رومية ،والمأمون التي كانت أمه فارسية...[1]

[1]-ينظر:أمراء الشعر العربي في العصر العباسي،أنيس المقديسي:55،56،الأدب العربي في العصر العباسي،شوقي ضيف:56،ضحى الإسلام،أحمد أمين،ج1،ط7،مكتبة النهضة المصرية،القاهرة،دت: 87.

ولقد أسهم هؤلاء الجواري في الشعور بالجمال ،حيث كنّ جميلات الخلق وميالات إلى الفنون الجميلة من غناء ورقص وتصوير ،وهذا ما دفعهم إلى تعليمهن هذه الفــنون. وتجدر الإشارة إلى أنّ هناك نوعين من الجواري :جوار مغنيات للخاصة:كالخليفة والأمراء والأغنياء ،والنوع الآخر يدعى القيان ،حيث تكون هؤلاء الجواري ملكا لنخّاس يعرضهنّ في أماكن معيّنة ،يأتي الفتيان لسماعهن والإنفاق عليهن ،وهذا النوع هو الذي ترك آثارا سيئة ،وكان سببا في انتشار الخلاعة والمجون،وقد بالغ بعضهم حين استخدم الغلمان في وظيفة الجواري ،وهذه عادة سيئة عكست الانحطاط الأخلاقي في ذلك العصر.[1]

مجالس الشرب و الغناء:

لقد كفّ العرب خلال العصور الأولى من دخول الإسلام عن شرب الخمر التي حرمت تدريجيا من خلال آيات القرآن الكريم التي كان آخرها دليلا على التحريم القطعي في قوله تعالى :{يَا أَيُّهَا الذين آمنُوا إنّما الخمرُ والميسرُ والأنصابُ والأزلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشّيْطان فاجْتَنِبُوه لَعَلَكُم تُفْلِحون* إنّما يُرِيدُ الشَّيْطانُ أَنْ يوّقِعَ بَيْنَكُم العَدَاوةَ والبَغْضَاءَ في الخَمْرِ والمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُم عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَعَنِ الصَّلاةِ فَهَل أنتم مُنتَهُونَ}[2] ،ولقد ظلت الشريعة نافذة في حدّ السكارى في العصر الأموي ،لكن هذا لم يمنع الناس من تعاطيه وارتياد الحانات ،ولقد وفرت الأسباب السياسية والاجتماعية الجو المناسب للّهو والشّرب إبّان العصر العباسي ،ونرى في الشّعر الإشارات الواضحة على صحة قول المؤرّخين الذين نقلوا لنا ما كانت عليه الحياة الاجتماعية ولاسيّما حياة الخاصة ومجالستهم المغنين والقيان ،ذلك أنّ الشراب كان مقرونا عادة بالغناء الذي

[1]-ينظر:المرجع السابق :95 وما بعدها ، أمراء الشعر العربي في العصر العباسي،أنيس المقديسي:56.
[2]-سورة المائدة:90-91.

وجد ضالته في هذه البيئة[1] ،ولاسيما في فترة حكم الهادي الذي جعل من بغداد دارا كبيرة للغناء ،فجذبت إليها المغنين والمغنيات ،واهتدى به الهادي ،ويبدو أنّ الرشيد كان شغوفا بالغناء حتّى جعل المغنين مراتب وطبقات ،ومن أبرزهم حينئذ :ابراهيم الموصلي،ومنهم ابن الجامع مغني الرشيد ؛ولقد أغدق الخلفاء عليهم الأموال والهدايا،وبلغ الاهتمام بهذا الفنّ إلى حد إقبال أبناء الخلفاء على تعلّمه وصناعتهم لألحان وأصوات نُسبت إليهم ،فارتفع نتيجة لذلك ثمن الجواري والقيان اللائي كنّ بارعات في أدائه وفي استمالة القلوب لسماع أصواتهن الجميلة التي تترك في أنفس الحاضرين غبطة وابتهاجا. ولم يقتصر الغناء على أواسط الخاصة بل تعدّاها إلى عامة الناس ،فانتشر المغنون والمغنيات في كل مكان ،وهذا ما أسهم في ارتقاء الذوق العربي بشكل مبهر ،وفي زرع البهجة في قلوب الناس بدون استثناء.[2]

الشعوبية:

لقد اتسعت الدولة الإسلامية في العصر العباسي ،وأصبحت تضم عناصر مختلفة من شعوب حصل بينها امتزاج وتفاعل ،أما عن التقسيم فظلّ طبقيا يكاد لا يختلف عن العصور السابقة ،فكان يتألف من مسلمين وغير مسلمين ،ومن أحرار وعبيد ،وإن شكّل المسلمون الأغلبية من السّكان ،وكانوا ينقسمون إلى فئتين كبيرتين:العرب والفرس ،وقد حصل تنافس وصراع بينهما وهو ما أدّى إلى ظهور حركة الشعوبية التي تمثلت في ثلاث نزعات :تذهب الأولى إلى أنّ العرب هم خير الأمم ،أمّا الثانية فتدعو إلى المساواة وأنّ العرب ليسوا أفضل من غيرهم ،وثالث النزعات ترفع من شأن الأمم الأخرى وتحطّ من شأن العرب ،ولكل منها دعاة يدافعون عن نزعتهم وحجج

[1]-ينظر:أمراء الشعر العربي ،أنيس المقديسي:56،57.
[2]-ينظر :تاريخ الأدب العربي في العصر العباسي،شوقي ضيف:60،64،تاريخ الدولة العباسية ،محمد سهيل طقوش:155.

وبراهين[1] ،وكانت لفظة الشعوبية في بادئ الأمر تطلق على النزعة الثانية القائلة بالمساواة ،وهذا ما دلّت عليه أخبار القدامى كقول ابن عبد ربه في العقد الفريد:"الشعوبيون هم أهل التسوية"[2] ،ويُرجَّح أنّ هذه النزعة سبقت الثالثة لذلك اقتصرت لفظة الشعوبية عليها ،ثم بعد ذلك ظهرت النزعة الثالثة وأصبحت الشعوبية مصطلحا يطلق على النزعتين معا ،ولقد بلغت هذه الحركة أوجّها في القرن الثالث الهجري بعدما حصل امتزاج جنسي بين العرب وغيرهم ،وظهرت فئة المولّدين من الخلفاء الذين تعصبوا للإسلام ولم يتعصبوا للعربية ،فكافحوا الزندقة ولم يكترثوا للشعوبية وهذا ما زاد من حدّتها.[3]

المجون والزندقة:

انتشرت لفظة الزّندقة في العصر العباسي انتشارا واسعا ،وأصبح النّاس يتهمون بها حقا وباطلا ،ولعلّ السبب في ذلك يرجع إلى أنّ لفظة الزندقة تدلّ على الشّك أو الإلحاد اللذين كثرا بعدما نقلت الفلسفة اليونانية إلى اللّغة العربية ،وسبب آخر يتمثل في ذلك الدافع السياسي الذي كان وراء مطامع الفرس في استرجاع سلطانهم الذي لا يكون إلاّ بنشر عقائدهم ودياناتهم لإضعاف إيمان العرب بالإسلام ،فأخذوا يعملون على نشر المانوية[4] والزرادشتية[5] والمزدكية[6]...

ومعنى الزّندقة يختلف في الأذهان بين العامة والخاصة ،وغالبا ما تطلق لفظة زنديق على المستهتر الماجن بين العامة ،أما بين الخاصة فكانت تطلق على من

---

[1]-ينظر:حضارة العرب في العصر العباسي،حسين حاج حسن:31،29،ضحى الإسلام،أحمد أمين:63.

[2]-العقد الفريد،ج3 :351.

[3]-ينظر:ضحى الإسلام،أحمد أمين:63.

[4]-المانوية:نسبة إلى مذهب ماني،وهو من أصل فارسي عاش في القرن الثالث للميلاد،وعمل على التوفيق بين المسيحية والزرادشية(المعجم الفلسفي،جميل صليبا،ج2،دط،دار الكتاب اللبناني،لبنان،1982: 314.

[5]-الزرادشية:نسبة إلى زرادشت(674-551ق م)وهو مفكر ديني ظهر في فارس،و"الزرادشية"عبادة توحيدية وثنية في آن واحد(أطلس الأديان،سامي بن عبد اللهبن أحمد المغلوث،ط1،مكتبة العبيكان،الرياض،2007 :600.)

[6]-المزدكية:نسبة إلى مذهب مزدك الذي يلغي الملكية الفردية ويقول بإباحة النساء وإلغاء الزواج(المرجع نفسه:601).

يتظاهرون بدخول الإسلام وهم يكتمون إيمانهم الباطن بالديانات الفارسية القديمة وخاصة مذهب ماني ،وكان هدفهم من وراء هذا التظاهر إفساد العقيدة الإسلامية لنشر دياناتهم ومذاهبهم بهدف الاستيلاء على الدولة الإسلامية.[1]

ولقد أسهم الفرس في نشر موجة المجون والتّهتُّك والانحلال الأخلاقي في البيئة العباسية ،وعكف النّاس على ارتياد الحانات ومارسوا ألوانا من الانحراف كمعاشرة الجواري والغلمان ،كما أدمنوا على شرب الخمر ،ولعل من أسباب انتشار الظاهرة الأخيرة يعود اجتهاد بعض فقهاء العراق في إحلال بعض الأنبذة :كنبيذ التمر والزبيب المطبوخ أدنى طبخ ونبيذ العسل والتّين ،وهو ما فسح المجال رحبا إزّاء ضعفاء العقيدة ،فأقبلوا يشربون منها حتّى الثمالة ويتبعونها بأشكال أخرى من الانحراف.[2]

حركة الزهد:

إذا كان الخاصة من القوم قد انشغلوا بطلب الدنيا وملذاتها ،وأسرفوا في اتباع شهواتهم إلى حدّ المجون ،وبالغت فئة منهم في الغلو حتّى وصلت إلى الزندقة والإلحاد ،فإنّ هناك أناسا آخرين تزعموا تيارا يناقض الأول ويسخط على ما آلت إليه الطبقة الخاصة من الانحلال الأخلاقي والعبث واللّهو ،وتجدر الإشارة إلى أنّ الثراء (الذي كان متبوعا بالحياة الماجنة) كان متاحا للطبقة الخاصة دون العامة التي كانت تعيش على الكفاف في بؤس وضنك وضيق عيش ،ويعد هذا العامل من أهم العوامل التي أسهمت في ظهور تيار الزهد الذي كان يدعو إلى التحقير من مباهج الحياة ،ويدعو للإيمان وإتباع تعاليم الإسلام والتفكير في الموت ويوم الحساب والعقاب.

[1]-ينظر:ضحى الإسلام،أحمد أمين،ج1: 138-150

[2]-ينظر:المرجع السابق،أحمد أمين:119،حضارة العرب في العصر العباسي،حسين حاج حسن:182-184،تاريخ الأدب العربي في العصر العباسي،شوقي ضيف:65،العقد الفريد،ابن عبد ربه،ج8 :67.

ولقد اتبع تيار الزهد الكثير من الناس الذين لم يجدوا سبيلا أحسن منه لاطمئنان أنفسهم وراحة ضمائرهم ،وترى فئة من المترفين تمشي قدما تاركة وراءها مباهج الحياة المادية المترفة إلى حياة الروح والقيم والعكوف على طاعة الله الواحد الأحد ،واللّجوء إلى التّقشف أملا في رحمة الله ومغفرته ،وكانت هذه الفئة تدعى بالزّهاد التائبين. كما كثر الوعاظ في هذا العصر رافضين المتاع الدنيوي ،داعين إلى اتباع الصراط المستقيم للفوز بنعيم الآخرة.[1]

[1]-ينظر:حضارة العرب في العصر العباسي،حسين حاج حسن:194،195،ضحى الإسلام،أحمد أمين،ج1 :132.

3- الحياة الفكرية في العصر العباسي:

يعد الإسلام الدّعامة الأساس للنهضة العلمية التي عرفها العرب في العصور الإسلامية ،والتي أخذت تتكون وتتبلور تدريجيا ،حيث ظهرت بذورها بظهور الإسلام ثمّ أعطت ثمارها في العصر الأموي واكتمل نضجها إبّان العصر العباسي ،ولعلّ هذا هو السبب الذي جعل العلماء المسلمين يهتمون بالعلوم الدينية أكثر من العلوم العقلية خلال العصور الأولى من ظهور الإسلام حتّى نهاية العصر الأموي ؛وهذا ما يؤكّده أحمد أمين في قوله: " فقد ظلّ الدّين أساس كل الحركات العلمية إلى أواخر العصر الأموي،فأساس التاريخ سيرة النبي ﷺ وغزواته وفتوح المسلمين والفقه مبني على ما ورد من القرآن والحديث ،ووعظ الوعاظ وبحث العلماء دائر حول الدّين من تفسير الحديث وفقه وما إلى ذلك ،وما أثر عن ذلك العصر من دراسات دنيوية من طب وصناعة (كيمياء) قليل نادر وأكثر من اشتغل بهما من غير المسلمين."[1]

ولعل اهتمام المسلمين إبّان هذه الفترة بالدين وعلومه أمر طبيعي وطور تمهيدي للنهضة العلمية التي اكتملت فيما بعد ،والأرجح أنّ انشغالهم بالعلوم الدينية يعود إلى رغبتهم في الكشف عن أسرار هذا الدّين العظيم الذي بهرهم حسنا وروعة وأداء ،ولعل الآيات الكثيرة التي تدعو إلى التأمل والتفكّر وتحث على إعمال العقل كان لها أثر على استنهاض العزائم للغوص في غمار البحث والمعرفة.

وما هي إلاّ سنوات قلائل حتّى عرف التاريخ الإسلامي عصرا من أزهى العصور الإسلامية التي شهدت ازدهارا ونضجا في شتى المجالات ولاسيما الفكرية منها ،وبذلك انتقل المسلمون إلى طور آخر اقتضاه التطور التدريجي الذي نتج عن

[1]-المرجع السابق،أحمد أمين،ج2: 8

ظهور الإسلام كقوة دافعة للنهضة العلمية ،حيث اهتم المسلمون في هذا العصر بالعلوم الدينية والدنيوية على السواء ،وبلغوا درجات عالية من التفوق والتقدم ،وهذا ما يشير إليه أحمد أمين في قوله :" أوّل ما نلاحظه أنّ الأمة الإسلامية في هذا العصر(يقصد العصر العباسي) خطت خطوة جديدة في حياتها العقلية ،وحركتها العلمية ،وكان هذا نتيجة لازمة لكل ما أحاط بها من بيئة طبيعية واجتماعية ."[1]

عوامل النهضة العلمية في العصر العباسي

لقد تلاحمت مجموعة من العوامل من أجل ازدهار الحياة العلمية في الحضارة العباسية ،ولعل أهمها تتمثل في الحاجة الدينية إذ لم يقتصر اهتمام العلماء المسلمين بدراسة العلوم الدينية فحسب ،وإنّما اهتموا كذلك بالعلوم الدنيوية ولاسيّما تلك التي من شأنها خدمة الدّين الإسلامي ،فدرسوا علم الفلك والنجوم (مثلا) لتحديد اتجاهات القبلة في الصلاة ولتحديد أوقاتها[2] كما كان لانصهار الثقافة العربية بالثقافات الأجنبية كالفارسية والرومية وغيرهما أثر في نشأة جيل جديد أجاد العربية وأسهم في هذه النهضة العلمية بعد أن أضاف الثقافة الإسلامية إلى ثقافته الأولى.[3]

ولقد كان تشجيع الخلفاء والأمراء على طلب العلم وإغداق الهدايا الثمينة والأموال الطائلة على العلماء عاملا لا يستهان به من عوامل النّهضة العلمية ،كما أسهمت صناعة الورق في تشجيع العلماء لتدوين مؤلفاتهم ونسخها بسهولة وبأقل التكاليف مقارنة بالكتابة على القراطيس والجلود وسعف النخل وغيرها من الأدوات القديمة التي

---

[1]-المرجع السابق:1

[2]-ينظر:العلم العربي و تطوره في العصر العباسي الأول،عبده النصوح القادري،إشراف:صلاح رسلان ويمنى طريف الخولي،جامعة القاهرة،2000 ،2001 :142

[3]-المرجع السابق،أحمد أمين:14

كانوا يلجأون إليها يومئذ ،وبذلك نشطت الكتابة التي ساعدت على انتشار الثقافة بين مختلف طبقات المجتمع العباسي.[1]

وتعد رحلة العلماء المسلمين إلى مختلف الأمصار قصد الاستفادة من ينابيع العلم والمعرفة من كبار العلماء من أهم العوامل التي أسهمت في النهضة العلمية بالإضافة إلى انتشار المجالس والمناظرات العلمية بين العلماء والتي كانت تعقد في الدور والقصور والمساجد للنقاش والجدال حول مسائل مختلفة كان لها دور في رواج الحركة العلمية.[2] كما كان لانتقال حاضرة الخلافة من الشّام إلى العراق واختلاف المظاهر الاقتصادية بينهما إلى ضرورة اللّجوء إلى العديد من الأساليب التي من شأنها أن تخدم الانتاج ،وإتباع أرقى السّبل لإنجاح العلاقات التجارية ،ولقد استلزمت هذه الحاجة البحث والعمل من أجل إشباع هذه الغاية.[3]

وتعدّ الحاجة الحضارية والاحتكاك الثقافي بين العرب والشعوب الأخرى من أجل تطوير العمران سببا من أهم الأسباب للاهتمام بالحياة الفكرية ،[4]كما كان لانتشار المكتبات وازدهار حركة الترجمة دور في بناء هذا الصّرح الكبير للحياة العلمية في العصر العباسي ،[5]بالإضافة إلى الاستقرار الاجتماعي الذي شهده العصر العباسي والذي كان له أثر على انكباب العباسيين على مناهل العلم والمعرفة.[6]

[1]-ينظر:حضارة العرب في العصر العباسي،حسين حاج حسن:61-63،المرجع السابق،أحمد أمين:54

[2]-ينظر:دراسات في تاريخ الدولة العباسية،عصام الدّين عبد الرؤوف الفقي :99-103،المرجع السابق،أحمد أمين:54.

[3]-ينظر:العلم العربي و تطوره في العصر العباسي الأول: 83، ضحى الإسلام،أحمد أمين،ج2: 15

[4]-ينظر:المرجع نفسه،أحمد أمين:105.

[5]-ينظر:حضارة العرب في العصر العباسي،حسين حاج حسن67.

[6]-ينظر:العالم الإسلامي في العصر العباسي،حسن أحمد محمود وأحمد ابراهيم الشريف،دط،دار الفكر العربي،القاهرة،1995 :203.

حركة الترجمة وأثرها على الحياة الفكرية في العصر العباسي:

تعد الترجمة عاملا من أهم العوامل الذي أسهم في النهضة العلمية للحضارة العربية الإسلامية ،ولقد ظهرت بذور هذه الحركة في العصر الأموي لكنّها لم تعدُ مجرد محاولات فردية يمارسها القليل من الناس وتموت بموتهم.[1] فلما أحلّ هذا العصر تلاحمت مجموعة من البواعث دفعت المسلمين إلى التفكير في ترجمة تراث الأمم الأخرى إلى العربية ،ولعلّ أهمّها ما يتلخص فيما الآتي:

-لقد أدرك العرب بعد احتكاكهم بغيرهم من الشعوب أنّ لها رصيد ثقافي لابدّ من الاستفادة منه.

-الحاجة الدّينية (كما ذكرنا سالفا) دفعتهم إلى البحث عن علوم من شأنها أن تسهّل عليهم تأدية فرائض الدّين الإسلامي بوجهه الصحيح والكامل ،فنقلوا الرياضيات وعلم الفلك لهذه الغاية.

-تعاليم الإسلام التي تدعو إلى التفكير وإعمال العقل.

-التقدّم الحضاري يدفع النفوس دائما إلى البحث والتفكير وهذا ما حدث في العصر العباسي.[2]

أجل ،لقد ازدهرت حركة الترجمة في العصر العباسي منذ عهد الخليفة المنصور،حيث قام السريان بنقل الفلسفة اليونانية إلى اللّغة العربية ،ثم زادت ازدهارا في عهد الخليفة هارون الرشيد الذي جاء بكتب نفيسة جرّاء غزواته المتكررة على بلاد الروم ،وزادت نشاطا في عهد المأمون الذي كان شغوفا بالعلم والمعرفة ،حيث أرسل

[1]-ينظر:ضحى الإسلام،أحمد أمين،ج1: 271.
[2]-ينظر:تاريخ الفكر العربي حتّى أيام بن خلدون،عمر فروخ:271،270.

بعثة إلى الامبراطور البيزنطي "تيوفيل" يطلب منه إرسال كتب الحكمة إليه ،وقد جاءت البعثة مُحمّلة بالكتب النّفيسة من كل فروع العلم.[1]

وكان للترجمة دور كبير وأثر عظيم على الحياة الفكرية بصفة عامة ،ولعل المُلفت للنّظر هو أنّ العلوم الدينية هي الأخرى قد تأثّرت إبّان هذا العصر بالفلسفة اليونانية ولاسيّما منطق أرسطو ،وهذا ما يؤكّده أحمد أمين في قوله :"...فتحوّلت الدّعوة الدّينية إلى علم الكلام ،وتأثّر تفسير القرآن وتفسير الحديث والتّشريع بهذا الأثر الفلسفي،ورأينا العلماء يجتهدون في شرح كل ما يعرض لهم من ذلك بملل عقلية وعبارات منطقية."[2] وبذلك تطورت الدراسات التي كانت تعنى بالعلوم الدينية وأصبحت تستند إلى المنطق وإلى الحجج العقلية.

واهتم المسلمون بنقل مختلف العلوم إلى اللّغة العربية من فلسفة وطب ورياضيات وفلك وكيمياء ونبات وغيرها ،كما ترجموا عن لغات مختلفة كاليونانية والسريانية والفارسية والهندية بالدرجة الأولى ،وترجموا أحيانا عن النبطية واللاتينية وعن القبطية ،ولقد كانت ترجمتهم انتقائية حيث أخذوا ما يهمُّهم وتخلوا عما لا حاجة لهم به،ولم يكن هدفهم نقلي فحسب بل أرادوا أن يدرسوا هذا التراث ويصححوه ثمّ يزيدوا عليه إسهاماتهم الجديدة التي أخذت الصبغة الإسلامية وأصبح تراثا إسلاميا أصيلا.[3]

الامتزاج الثقافي:

لقد أدى اتساع الدولة الإسلامية في العصر العباسي إلى تنوع في التركيبة الاجتماعية التي أصبحت تضم شعوبا مختلفة من حيث الجنس والثقافة واللّغة ،ولقد

[1]-ينظر:دراسات في تاريخ الدولة العباسية، عصام الدّين عبد الرؤوف الفقي:120،121

[2]-ضحى الإسلام،أحمد أمين، ج2 :9

[3]-ينظر:الحضارة العربية الإسلامية،عبد المقصود،عبد الحميد أبو عبية:303-308.

انصهرت هذه الشعوب وسط البيئة العربية ،وامتزجت الثقافات ،مما كان له أثر واضح على الحياة الفكرية إبّان هذا العصر ،وهذا ما ينصّ عليه محمد عبد المنعم خفاجي في قوله :"ظهر أثر هذا الاختلاط في العقول والأفكار ،فاتسعت الثقافة ،ونضج التّفكير،ودقّت الأفهام ،وحصفت العقول ،وقويت المدارك ،ونمت المواهب ،وجنح الناس إلى العلوم والفنون والآداب."[1]

1-الثقافة الفارسية:

لقد انتشرت الثقافة الفارسية في هذا العصر انتشارا عظيما لأسباب أهمها:

-كثرة العنصر الفارسي ومساواته مع العنصر العربي بعد الدَّور الذي أدّاه في إنجاح الدّعوة العباسية.[2]

-انتقال عاصمة الخلافة من دمشق إلى بغداد ،والتي تعد أقرب إلى خراسان على عكس دمشق التي كانت بعيدة عنها.

-إنشاء منصب الوزارة الذي كان يسند إلى الفرس غالبا واتخاذهم الكتَّاب كأعوان لهم (تقليدا للنظام الفارسي) ولّد ثقافة خاصة من هؤلاء الكتَّاب الذين كانوا على دراية بأحوال الناس الاجتماعية بحكم مناصبهم ،ولقد أسهموا في نشر الثقافة العامة بعد أن ضمّوا الآداب الفارسية إلى الآداب العربية.[3] كما أثّر الفرس على الثّقافة العربية ،وبرزوا في مجالات مختلفة منها :الفكرية والسّياسية والاقتصادية ،ويحسب لهم الفضل في إسهاماتهم النقلية من اللّغة الفارسية إلى اللّغة العربية ،فترجموا كتب التنجيم والهندسة

[1]-الآداب العربية في العصر العباسي الأول:36 معلومات الكتاب ناقصة تحتاج المراجعة
[2]- ينظر:تاريخ الدولة العباسية ،محمد سهيل طقوش،:30
[3]-ينظر:ضحى الإسلام،أحمد أمين،ج1 :164-173

والجغرافية والسِّيَّر...واهتموا بالأدب شعرا ونثرا فجاء أدبهم كإنتاج جديد جمع بين بلاغة العرب ومعاني الفرس ليعكس الامتزاج الثقافي بين الجنسين[1].

ويبدو أثر اللّغة الفارسية جلّيا في الألفاظ اللغوية ،فبعد أن انتقلت البيئة العربية من البداوة إلى الحضارة وجدت نفسها بحاجة إلى ألفاظ تدلّ على مرافق الحياة الجديدة،ومن أجل هذه الغاية استمدّت أحيانا ألفاظها من الفارسية حتّى تواكب اللّغة العربية الحضارة الجديدة.[2]

الثقافة اليونانية:

اشتهرت بلاد اليونان منذ القدم بكنزها العظيم الذي يتمثّل في تلك الثّروة الثّقافية التي جاءت لتغذي العقول ،ولتنفخ الروح في مختلف العلوم والفنون ،ولقد كان للثقافة العربية نصيب منها بعد أن امتزجت الثقافتان عن طريق فتوح الإسكندر المقدوني الذي فتح آسيا وإفريقيا ،والذي سعى جاهدا لنشر الثقافة اليونانية في هذه الربوع ،والتي ظلت تنمو وتزدهر بعد انسحاب الجيش اليوناني من هذه المناطق التي أصبحت فيما بعد منبعا للثقافة اليونانية ولاسيّما جنديسابور وحرّان والإسكندرية.[3] ولقد أسهمت هذه المدن في النهضة العلمية التي عرفتها الدولة الإسلامية إبّان العصر العباسي ،بعد أن تسربت الثقافة اليونانية إلى الفكر العربي الذي تأثر بها شكلا ومضمونا. فأمّا من حيث الشكل :فلقد تأثرت العلوم العربية بالمنطق اليوناني ،ولو دقّقنا النّظر فيها لوجدنا أثره واضحا في طريقة الجدل والبّحث والتّعبير والتّدليل ،فأخذت بذلك صبغة جديدة لم تكن تعرف من قبل .[4]ويوضّح أحمد أمين ذلك في قوله :"فإنْ أنت قارنت بين أسلوب القرآن

[1]-ينظر:العالم الإسلامي في العصر العباسي،حسين أحمد محمود:219،196،195.
[2]-ينظر:المرجع السابق ،أحمد أمين،ج1 :174.
[3]-ينظر:المرجع السابق:253-255
[4]- ينظر:المرجع نفسه:275،274.

الكريم وأسلوب المتكلمين وجدت فرقا كبيرا يمكنك أن تلخّصه في أنّ أساليب المتكلمين جارية في أساليب منطق أرسطو."[1] أمّا من حيث الموضوع :فيبدو أثرها واضحا في الفلسفة الإسلامية التي عكست أثر المتكلمين المثقفين بالثقافتين الإسلامية واليونانية،هذا بالإضافة إلى أثرها على العادات والتقاليد والفنون والنظم التي راح العرب يقتبسون منها ،كما كان للبلاغة اليونانية أثر على علوم البلاغة عند العرب ،وتجدر الإشارة إلى انعدام أثر الأدب اليوناني على الثقافة العربية ،والسبب في ذلك يعود إلى أنه كان مليئا بالخرافات والأساطير التي تتنافى مع تعاليم الدّين الإسلامي ،فالأدب اليوناني كان أدبا وثنيا ،والذوق العربي لم يستسغ هذا النوع من الأدب ،فتخلى عنه.[2]

الثقافة الهندية:

لقد اتّصل العرب بالهنود منذ القدم ،وكان هذا الاتصال على مراحل مختلفة:ففي الجاهلية اتّصلوا بهم تجاريا ،ثم مع اتساع الفتح الإسلامي تمّ غزو بعض المناطق ،إلا أن توغلوا في أرجاء الهند خلال القرن الرابع الهجري ،فانتشر سباياهم في المملكة الإسلامية ،وحدثت المصاهرة والمزاوجة بين الجنسين كما كثرت الهجرة المتبادلة من الطرفين ،مما أسهم في تعانق الثقافتين الهندية والعربية وامتزاجهما.[3] فأما عن أثرها على الثقافة العربية فكان من ناحيتين :الأولى مباشرة والتي كانت عن طريق التجارة والفتح ،أما الأخرى فكانت عن طريق نقل الثقافة الفارسية إلى اللّغة العربية.

ويبدو أثر الثقافة الهندية واضحا على الثقافة العربية ،ولاسيّما في الرياضيات والنجوم والأدب ،كما ينبغي أن نشير إلى تأثر بعض الفرق الدينية بالنظرية الهندية

[1]-المرجع نفسه:275.
[2]-ينظر:المرجع نفسه:277-281.
[3]-ينظر:المرجع السابق: 230،229،حضارة العرب في العصر العباسي،حسين حاج حسن:52-54.

القائلة بتناسخ الأرواح ،لكن أثر هذه الالهيات بقي سطحيا ولم يتوغل إلى أعماق الفكر العربي.[1]

العلوم الدينية في العصر العباسي

لقد شكّلت اللّبنات المعرفية التي أقامها الأمويون عبر مشوارهم الفكري دعائم أساسية للحياة الدينية في العصر العباسي ،حيث شهدت تطورا ملموسا على مختلف الأصعدة ،سواء ما يتعلق منها بالقرآن الكريم أو بالسنة النبوية ،وهذه بعض العلوم الدينية التي اكتمل نضجها إبّان هذا العصر:

أ-**التفسير**:اهتم المسلمون بدراسة القرآن الكريم والبحث في معانيه واستنباط أحكامه منذ صدر الإسلام ،ولقد أشار حسن ابراهيم حسن إلى أنّ المفسرين قد اتّجهوا في تفسير القرآن اتجاهين اثنين :"يعرف أوّلهما باسم التفسير بالمأثور ،وهو ما أثِر عن الرسول وكبار الصحابة ،ويعرف ثانيهما باسم التفسير بالرأي ،وهو ما كان يعتمد على العقل أكثر من اعتماده على النقل ،ومن أشهر مفسري هذا النوع المعتزلة والباطنية."[2] ولقد ذكر شوقي ضيف أسماء أهمّ المفسرين العباسيين الذين اعتمدوا طريقة التفسير بالمأثور :"سفيان بن عينية وعبد الرحمان بن زيد ،وابن أسلم بالمدينة ،ووكيع بن الجراح ،وأبو بكر بن أبي شيبة."[3]

ب-القراءات :لقد عني العباسيون بعلم القراءات الذي يمثل المرحلة الأولى لتفسير القرآن ،ولعلّ السبب في ظهور هذا العلم يرجع إلى طبيعة الخط العربي الذي تحتمل رسم الكلمة الواحدة فيه أكثر من شكل في القراءة استنادا على النّقط الذي قد

[1]- ينظر:المرجع السابق،أحمد أمين،ج1: 233-239،العالم الإسلامي في العصر العباسي:218،217.
[2]-تاريخ الإسلام،حسن ابراهيم حسن،ج2 :266
[3]-تاريخ الأدب العربي،العصر العباسي الأول،شوقي ضيف:129.

يكون فوق الحروف أو تحتها .[1]ولقد ذكر حسن ابراهيم حسن أشهر أصحاب القراءات في العصر العباسي الأول :"يحيى بن الحارث النمري(ت 145 هـ) وحمزة بن حبيب الزيات(ت 156 هـ) في خلافة أبي جعفر المنصور ،وأبو عبد الرحمان المقرئ(ت 213 هـ)،وخلف بن هشام البزاز."[2]

ج-الفقه:يجمع الدارسون على أنّ فترة الحكم العباسي مثّلت فترة ازدهار للعلوم الدينية بعامة ،ومنها علم الفقه ؛ويعرّفه ابن خلدون على أنه :"معرفة أحكام الله تعالى في أفعال المكلّفين بالوجوب والحظر والندب والكراهة والإباحة ،وهي متلقاة من الكتاب والسنة وما نصه الشارع لمعرفتها من الأدلة .فإذا استخرجت الأحكام من تلك الأدلة قيل لها فقه."[3]

إنّ لعلم الفقه علاقة مباشرة مع مصادر التشريع (القرآن والحديث والقياس والإجماع) ،ولعل اختلاف الفقهاء في تأويلها لتطبيقها في الحياة أدّى إلى نشأة المذاهب الأربعة .ولابدّ من التنويه إلى أنّ الفقه في البداية انقسم إلى طريقين :"طريقة مرجعها العقل والقياس وواضعها الإمام أبو حنيفة ،وطريقة مرجعها الحديث وواضعها مالك بن أنس ،ومن هاتين الطريقتين تفرعت مذاهب الإسلام الأربعة في الفقه وهي :المذهب الحنفي والمذهب المالكي والمذهب الشافعي والمذهب الحنبلي."[4]

د-علم الكلام : لقد وفّرت البيئة العباسية الجو المناسب لازدهار علم الكلام؛ ويقصد به :"الأقوال التي كانت تصاغ على نمط منطقي أو جدلي ،وعلى الأخص المعتقدات ،كما يسمى المشتغلون بهذا العلم المتكلمين ،وكان يطلق هذا اللفظ أوّل

[1]-ينظر:تاريخ الإسلام،حسن ابراهيم حسن: 265
[2]-المرجع نفسه: 266.
[3]-مقدمة ابن خلدون:563.
[4]-حضارة العرب،أسعد داغر:135.

الأمر على من يشتغلون بالعقائد الدينية ،غير أنه أصبح يطلق على من يخالفون المعتزلة ويتّبعون أهل السنة والجماعة."[1]

وتعدّ فرقة المعتزلة أهم الفرق الكلامية في العصر العباسي ،وفي هذا الصدد يذكر عمر فروخ :"إنّ الاعتزال كان حركة علمية في دولة كانت تشجع العلم ،ومن ذلك أنّ نفرا من المعتزلة كانوا من كبار المفكرين ،وكان نفر منهم يمتّون بنسب من الصداقة المتينة إلى الخلفاء العباسيين."[2]

ويبدو أنّ الاهتمام البالغ بحركة الاعتزال أمر طبيعي في ذلك العصر الذي كانت تشعّ فيه منارات التفكير العقلي والفلسفي ،وهذا شوقي ضيف يتحدث عن الآثار الإيجابية للاعتزال فيقول :"لقد نجح نجاحا كبيرا في أن صبغ العقول بصبغة فلسفية،وأن مرّنها تمرينا واسعا على الدّقة والتعليل والمهارة في الاستنباط لخفيات المعاني ودقائقها والبراعة في تفريعها وتشعيبها وتوليدها ،مع القياس الناصع والبرهان الساطع ،وسرت من ذلك أسراب في جميع جوانب الفكر العباسي."[3]

هـ-الحديث: بدأ التأليف في الحديث النبوي في منتصف القرن الثاني هجري،وكان الهدف الأساس من جمع الأحاديث في البداية يكمن في الاعتماد عليها من أجل تسهيل استنباط الأحكام التي تخدم التشريع ،ولعلّ أهم مؤلف دوِّن أثناء هذه الفترة كان كتاب الموطّأ لمالك بن أنس ،والذي جاء مرتّبا ترتيبا فقهيا ،ثم عرف تدوين الحديث مرحلة أخرى ،وأصبح يُدوّن على أبواب ،كما مزج حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم بأقوال الصحابة وفتاوى التابعين.[4]

---

[1]-تاريخ الإسلام،حسن ابراهيم حسن:274/2

[2]-تاريخ الفكر العربي حتّى أيام بن خلدون:288

[3]-تاريخ الأدب العربي،العصر العباسي الأول:133.

[4]-ينظر:ضحى الإسلام،أحمد أمين:108/2،107.

ولقد حدثت مرحلة أخرى في تاريخ التدوين في أواخر القرن الثاني ،والتي تقوم على أساس تخليص الحديث من الفقه ،وتدعى هذه الطريقة باسم المساند ،ولعلّ أشهر المؤلفات في هذا الاتجاه **مسند ابن حنبل** (ت241ه).[1] ثمّ خطا التدوين خطوته الموالية نحو النضج في هذا المجال ،وفي هذا الصدد يقول أحمد أمين :"حتى إذا كان القرن الثالث نشطت حركة الجّمع والنّقد ،وتمييز الصحيح من الضعيف ،وتشريح الرجال والحكم لهم أو عليهم ،فكان بذلك خير العصور ،وفيه أُلّفت أهم كتب الحديث،وكانت الكتب المؤلفة بعده مستمدة منه ومبنية عليه ،وشأن الحديث في ذلك شأن كثير غيره من العلوم كالفقه والنحو واللّغة وغيرها."[2]

وأُلِّفتْ في هذه الفترة أصحّ مصادر الحديث النبوي والتي تسمى عادة بالكتب الستة :صحيح البخاري (ت256ه) وصحيح مسلم (ت261ه) وسنن ابن ماجة (ت273ه) وسنن أبي داود (ت275ه) وجامع الترمذي (ت279ه) وسنن النسائي (ت303ه).[3]

اهتمام العلماء العباسيين بالعلوم اللغوية

لقد ظلّت اللّغة العربية لقرون قبل الإسلام يتداولها العرب عن طريق السليقة،واحتفظت بمقوّماتها اللغوية السّليمة لفترة من الزمن بعد ظهور الإسلام ،إلى أن حدث ذلك الامتزاج بين العرب وغيرهم من الشعوب الأخرى الذي أدى إلى ظهور لهجات جديدة تهدّد سلامة اللّغة العربية وتزيد من إمكانية إصابتها باللّحن ،مما دفع بمجموعة من العلماء إلى جمع أشعار العرب وألفاظ اللّغة حتّى لا تفنى وسط البيئة

[1]-ينظر:تاريخ الأدب العربي،العصر العباسي الأول،شوقي ضيف:128،127.
[2]-المرجع السابق،أحمد أمين:109.
[3]-ينظر:المرجع نفسه:110.

الجديدة التي أصبحت تضم عناصر مختلفة تجانست مع العنصر العربي ،ولقد تعمّدوا جمع المادة اللغوية الفصيحة من البوادي البعيدة عن ضوضاء الحضارة.

وتواصلت هذه الدراسات إبّان العصر العباسي وتعاقبت عليها ثلاثة أجيال من علماء البصرة والكوفة ،أشهر أفرادها :الأصمعي وأبو زيد الأنصاري (ت214هـ) وأبو عبيدة (ت210) ومحمد بن سلام الجمحي صاحب كتاب طبقات فحول الشعراء الجاهليين والإسلاميين ،وحماد الراوية (ت156هـ) الذي كان عالما بالشّعر والغريب،والمفضل الضبي صاحب المفضليات ،وأبو عمر الشيباني(ت213هـ) وغيرهم[1]...

واهتم العلماء كذلك بوضع قواعد النحو وتحديد مصطلحاته ،ويعد الخليل بن أحمد الفراهدي الواضع الحقيقي لهذا العلم في صورته النهائية ،وهو الذي تتلمذ على يده سيبويه ،ومن أبرز النحاة الكوفيين :أبو جعفر الرواسي ،ومعاذ بن مسلم الهراء (ت187هـ) والكسائي (ت189هـ) والفرّاء (ت207).[2]

ولقد اهتم العلماء العباسيون بعلوم البلاغة والنّقد في هذا العصر ودرسوا الصَّنعة الشعرية وعناصرها البيانية والبديعية ،ولعل أشهر هذه المؤلفات تتمثل في كتاب البديع لابن المعتز (ت274هـ) ،وكتاب الموشّح في مآخذ العلماء على الشعراء للمرزباني (ت384هـ) ،ونقد الشّعر لقدامة بن جعفر (ت362هـ) ،وكتاب الموازنة بين أبي تمام والبحتري للآمدي (ت 371هـ) ،وعلى رأس هذه المؤلفات كتابان نفيسان للعلاّمة عبد القاهر الجرجاني (ت415هـ):"أسرار البلاغة" و"دلائل الإعجاز"[3]

[1]-ينظر:تاريخ الأدب العربي،العصر العباسي الأول،شوقي ضيف:118-120.
[2]-ينظر:المرجع نفسه:121-123.
[3]-ينظر:ضحى الإسلام،أحمد أمين،ج2 :183-185.

المراكز والمعاهد العلمية في العصر العباسي:

لقد تضافرت مجموعة من العوامل أسهمت في إذكاء جذوة النهضة العلمية إبّان هذا العصر ،ولعل أهمها تتمثل في تلك المعاهد والمراكز التي كان كل هدفها تحقيق الرّقي الفكري وتعميم المنفعة بين مختلف طبقات المجتمع العباسي.

ويكون أولى بنا أن نشير في مقدمة هذه المعاهد إلى **المساجد** التي تعد أقدم المراكز التي أسهمت في وضع الأسس الأولى لصرح الثقافة الإسلامية منذ ظهور الإسلام .[1] ولقد بقيت مكانا للعبادة والفّصل في الأمور ومعهد للعلوم الدينية حتّى نهاية العصر الأموي ،ولما ازدهرت الحياة الفكرية في العصر العباسي وتنوعت المعارف،تحول هذا المعهد الشريف إلى مدرسة تقام فيها الحلقات المختلفة باختلاف علوم العصر من نحـو ونقد وأدب وغيرها.[2]

ولقد كثرت في هذا العصر **المدارس والمكتبات** وأدّت دورها بامتياز ولاسيّما بيت الحكمة أو دار الحكمة التي عدّت أكبر مكتبة آنذاك ،وكانت تضمّ مجموعة كبيرة من الكتب النفيسة في شتى الميادين من فلسفة ومنطق وطب ونجـوم ورياضيات وغيرها... ويرجّح أنّها تأسست في عهد الرشيد الذي وضع نواتها ،ثم نمت وازدهرت في عهد المأمون.[3]

[1]-ينظر:حضارة العرب في العصر العباسي،حسين حاج حسن:59،60.
[2]-ينظر:المرجع السابق ،أحمد أمين،ج2 :53.
[3]-ينظر:المرجع السابق:61

المنهج العلمي عند العلماء المسلمين:

يعد المنهج العلمي الذي اتبعه العلماء المسلمون من أهم مظاهر الحياة الفكرية إبّان العصور الإسلامية ،فقد استمد مزاياه وخصائصه من القرآن الكريم ومن أصول الفقه أو ما يسمى بالقياس الأصولي ،حيث وضع القرآن اللّبنات الأساسية لهذا المنهج انطلاقا من تلك المبادئ التي أنارت نهج الحضارة العربية الإسلامية وفتحت آفاقها إلى أبعد الحدود ،كإقراره بحُريّة العقل وبضرورة استخدامه ،ودعوته إلى الاحتكام بالحجج والأدلة المنطقية ،وتأكيده ثبات سنن الكون ،ودعوته المستمرة لتحصيل العلم.[1] كل هذا كان له أثر على توجيه جهود العلماء لاتِباعِ هذا الطريق السّوي الذي دعا إليه القرآن الكريم .ولقد أدى القياس الأصولي دورا كبيرا في تأسيس منهج البحث العلمي لانطوائه على عدة عمليات فكرية يمارسها المجتهد للاستدلال على الحكم.[2]

ولقد اتبع العلماء المسلمون هذا المنهج في العلوم العقلية والنقلية ،فاعتمدوا في تأليف العلوم النقلية على الرواية وصحة السند أمّا في العلوم العقلية فلجأوا إلى المنطق تارة وإلى التجربة والاختبار العملي تارة أخرى ،وهكذا استطاع العلماء المسلمون أن يدرسوا تراث الأمم السابقة بجديّة وبطرق علمية حتّى يضمنوا صحتها ،وقد اعتمد العلماء على المنهجين معا إذا استدعى الأمر ذلك كالفقه والنحو مثلا ،فالفقه بعد العصر الأول أصبح يحتاج إلى البرهان المنطقي للرد على الخصوم ،والنحو كذلك احتاج إلى البرهان العقلي بعد مرحلة السماع لتجنب الهفوات.[3]

---

[1]-ينظر:العلم و مناهج البحث في الحضارة الإسلامية،نادية حسنى صقر،دط،مكتبة النهضة المصرية،القاهرة،1991 :99.

[2]-ينظر:المرجع نفسه:100

[3]-ينظر:ضحى الإسلام،أحمد أمين،ج2: 16

وهذه زيغريد هونكه تتحدث عن المنهج العلمي في قولها :"لم يبدأ البّحث العلمي الحق القائم على الملاحظة والتّجريب إلاّ عند العرب ،فعندهم فقط بدأ البحث الدائب الذي يمكن الاعتماد عليه ،يتدرج من الجزئيات إلى الكليات ،وأصبح منهج الاستنتاج هو الطريقة العلمية السليمة للباحثين."[1]

ويتضح مما سبق أنّ للعلماء المسلمين الدّور الكبير في وضع أسس البحث العلمي الذي أصبح يعتمد عليه في الكشف عن الحقيقة ،ويعود الفضل في ذلك إلى مبادئ القرآن الكريم وسبل دراسته التي وجّهت المنهج العلمي إلى طريق الدّقة والموضوعية ،فقدم بذلك إنجازا عظيما خدم البحث والمعرفة وتبنّته الإنسانية جمعاء حتّى عصرنا الحالي.

[1]-شمس العرب تسطع على الغرب،زيغريد هونكه،ترجمة:فاروق بيضون وكمال دسوقي،مراجعة:مارون عيسى خوري،ط8،دار الجيل،بيروت،1993 :401.

مظاهر الثراء والترف في الحضارة العباسية:

لقد ظهرت بذور الحضارة العربية الإسلامية في عصر الخلفاء الراشدين ،حيث أخذت الأموال تسيل إلى خزائن الدولة الإسلامية عن طريق الفتوح التي توالــت على بلاد فارس والروم ،فامتلأت هذه الخزائن بالذهب والفضة والجواهر النفيسة ،ولقد جُلب العبيد الذين كانوا يسبون من الحروب ،والذين كانوا يحملون معهم عادات وتقاليد بلادهم،وألوان مختلفة من الحضارة الوافدة ،ثم توسعت هذه الفتوح إبّان العصر الأموي،وكثرت معها الأموال ،وبدأت بذور الثّراء تخرج ثمارها ،فشُيّدت القصور الشاهقة والأبنية الفاخرة بالجص والآجر والتي اتخذت أبوابها من الساج ،وتفنّن القوم في مِلَح العيش والتّمتع بالحياة بمختلف مباهجها ،ويظهر التأنق الحضاري جليا في طعامهم الذي أصبح متنوعا ،وفي الأواني الراقية التي كانت من الذّهب والفضة ،وفي ملابسهم حيث اتخذوا الخز والدّيباج والإستبرق ،وفي زينتهم بالحلي والجواهر ،وقد بالغ بعضهم حينما اتخذ مائدته من الذهب والفضة.[1]

وتلاحمت الأسباب التي ساعدت على نضج الحضارة العربية الإسلامية في فترة الحكم العباسي ،حيث بلغت الذروة في كل شيء ،فكثر النعيم ،وتدفقت الأموال والخيرات على بغداد وغيرها من المدن الكبرى ،ومال الخلفاء والأمراء والأثرياء من عليــة القوم وخاصتهم إلى الترف والإسراف ،وبالغوا في التأنق وفي أسباب الرفاهية والبذخ ،وفي هذا المضمار يبيّن ابن خلدون(ت:808هـ) الطور الذي بلغته الحضارة العباسية مفسرا ظروف ما آلت إليه فقال :"إنّ الأمّة إذا تغلّبت وملكت ما بأيدي أهل الملك قبلها ،كثر رياشها ونعمتها ،فتكثر عوائدهم ،ويتجاوزون ضرورات العيش وخشونته ،إلى نوافله ورقّته وزينته ،ويذهبون إلى اتباع من قبلهم في عوائدهم وأحوالهم

[1]-ينظر:حضارة العرب في العصر الأموي،حسين حاج حسن،ط1،المؤسسة الجامعية،بيروت،1994 :117،111.

وتصير لتلك النوافل عوائد ضرورية في تحصيلها ،وينزعون مع ذلك إلى رفه الأحوال في المطاعم والملابس والفرش والآنية ،ويتفاخرون في ذلك ،ويفاخرون فيه غيرهم من الأمم في أكل الطيب ولبس الأنيق ،وركوب الفارة."[1]

ولقد نقلت لنا المصادر شواهد حية تعكس التّحضر الذي بلغته الدولة العباسية ، وشغف الطبقة الخاصة بتشييد القصور والدُّور وإقامة المنشآت على مختلف أصنافها ، كما نقلت لنا مظاهر التأنّق في المأكل والملبس وأنواع الزِّينة وتعدد أدوات اللّهو والترويح ،كما وصفت مدى اهتمام العباسيين بإقامة الحفلات والأعراس ،هذا وقد اهتم المؤرخون بنقل روايات مختلفة حول إسراف الخلفاء وحاشيتهم ،ولعلّ أغرب ما يُذكر في هذا المقام ما فعله المهدي عند زواج ابنه هارون الرشيد بالسّيدة زبيدة ،فقد ذُكر أنّه قدم لها من الآلة والصناديق والجوهر والحلّي والتيجان والأكاليل وقباب الفضة والذهب والطيب والكسوة ،ووهب الناس في ذلك اليوم أواني الذّهب المملوءة بالفضة وأواني الفضة مملوءة بالذهب والمسك والعنبر ،وزيَّنها بكثير من الحلّي والجواهر ،حتى إنّها لم تقدر على المشي لكثرة ما عليها من هذه الحلي والجواهر ،وبلغ ما أنفقه الرشيد من ماله الخاص خمسين ألف درهم.[2] ويرجَّح أنّ عهد الرشيد يمثل فترة شباب للدولة العباسية ،حيث يروي ابن خلدون أنّ المحمول إلى بيت المال في أيامه بلغ 7500 قنطار في كل سنة.[3]

ولم يقتصر هذا الثراء على الخليفة فحسب ،وإنما شمل رجال دولته وكثيرا من ولّاته وقواده الذين اهتموا ببناء القصور الشاهقة وتأثيثها بأثمن ما يكون من الفرش

---

[1]-المقدمة:209.

[2]-ينظر:الديارات،الشابشتي:67،66www.mostapha.com

[3]-ينظر:المقدمة،ابن خلدون:227

والأثاث.[1] ولقد اهتموا بتقديم الهدايا إلى الخلفاء في المناسبات المختلفة ،ويُروى أنّ الهدايا التي أهداها يحيى بن خالد البرمكي للرّشيد قُدّرت باثني عشر ألف دينار ،وهذا ما يدلّ على ثراء كبار رجال الدولة وترفهم.[2]

ويروي لنا المسعودي قصة زواج المأمون ببوران بنت وزيره الحسن بن سهل الذي أمهرها بمائة ألف دينار وخمسة ملايين درهم ،وقيل إنه أوقد لها شموع العنبر وبسط لها حصيرا منسوجا بالذّهب ومكلّلا بالدّر والياقوت ،ونثرت جدتها عليها حين جلس إليها المأمون ألف درة.[3]

ومن أهم مظاهر الثراء والترف في الحضارة العباسية:

1-التأنق في المطعم و المشرب:

لقد تأثّرت الحياة العربية في العصر العباسي بالتّقاليد الفارسية وأساليب عيشهم،ويبدو ذلك واضحا في شرابهم ومأكولاتهم التي كانت معظمها تعود إلى أصل فارسي ،ولقد ذكرت لنا المصادر أنواعا من الأطعمة لم يكن للعرب عهد بها كالإسفيدباج والسكباج وأصناف من الحلوى كاللوزنج والفالوذج والأرنين والقطايف والهريسة وغيرها ،كما ظهرت أنواع جديدة من المشروبات التي لم يفوّت حتّى الخلفاء فرصة شربها والتمتع بمذاقها .ولقد تسابق الناس في إقامة الولائم العظيمة وتفنّنوا في أصناف المأكولات وتقديمها في أوانٍ من الذهب والفضة ،وترى صِحاف الصيني

[1]-ينظر:التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية،أحمد شلبي،ط8،مكتبة النهضة المصرية،القاهرة،1985 :148
[2]-ينظر:دراسات في تاريخ العرب،العصر العباسي الأول،عبد العزيز سالم:296
[3]- ينظر:مروج الذهب،المسعودي،ج4 :26 ،المقدمة،ابن خلدون:216،217.

المزخرفة المنقوشة والصِّحاف الزجاجية المحفور عليها شتى الصّور والنّقوش تزيّن موائدهم لتعكس المستوى المعيشي السائد في البيئة العباسية.[1]

ومن طريف ما يحكى عن الترف البالغ في الطعام ما ذكره ابراهيم بن المهدي حيث قال :"استأزرت الرشيد بالرقة ،فزارني وكان يأكل الطعام الحار قبل البارد ،فلمّا وضعت البوارد رأى فيما قرب إليه منها جام قريض سمك ،فاستصغر القطع وقال:لم صغَّر طبّاخك تقطيع السمك ؟ فقلت يا أمير المؤمنين ،هذه ألسنة السمك ،قال :فيشبه أن يكون في هذا الجام مائة لسان ،فقال مراقب مطبخه :يا أمير المؤمنين ،فيها أكثر من مئة وخمسين ،فاستحلفه عن مبلغ ثمن السمك ،فأخبره أنه أكثر من ألف درهم...قال ابراهيم بن المهدي :وكان شراء الجام مئتين وسبعين دينار".[2] وهذا ما يدلّ على ثراء العباسيين وميلهم إلى الإسراف في أصناف الطعام وشغفهم بالنّادر والأغلى ثمنا لتُنمِّق موائدهم التي كانت تشمل غالبا أوانٍ من المعادن النَّفيسة .ويروى أنّ عامة أهل بغداد كانوا يسرفون في في اجتلاب ألوان الطّعام في غير مواعيدها من صيد وفواكه وخضروات ،حيث كانوا يزِنون هذه الأطعمة أحيانا بما يعادلها في الوزن من الفضة ،وكانوا يجلبون ألوان الطعام مثل السّمك والجبن من البلاد الأخرى كفارس وعمّان والهند.[3]

2-التأنق في اللباس وأدوات الزينة:

لقد تجلى تأثر العباسيين بالتقاليد الفارسية بصورة واضحة في الأزياء ،التي أصبحت تميّز كل طبقة عن الأخرى مثلما كان معـمولا به في الدّولة

[1]-ينظر:الإسلام في حضارته و نظمه:493،حضارة العرب فيي العصر العباسي،حسين حاج حسن:179،مروج الذهب،المسعودي،ج4 :228 وما بعدها

[2]-المصدر نفسه،ج3 :300

[3]-ينظر:العالم الإسلامي في العصر العباسي،حسين أحمد محمود:180.

الساسانية،فاختلفت في شكلها وأنواعها وطرق صناعتها باختلاف الوظائف[1] ،ويرجّح أنّ المنصور هو أوّل من دفع إلى ذلك ،فأمر كل طائفة من طوائف الموظفين ورجال الدّولة أن تلبس زيًّا خاصا بها يُميّزها عن الطوائف الأخرى ،وكان للخليفة زيّ فاخر يرتديه في المواكب ،وهو عبــارة عن قباء أسود أو بلون البنفسج يصل إلى الرُّكبة ،وهو مفتوح عند الرقبة ليظهر القفطان زاهيا من تحته ،وله منطقة مرصعة بالجواهر وعليه عباءة سوداء وعلى رأسه قلنسوة طويلة زُيّنَت بالجواهر النّفيسة ،ولقد لبس الفقهاء والعلماء عمامة سوداء بشكل خاص ومبطَّنة ،وطيلسان أسود ،أما القضاة فلبسوا القلانس الطوال والطيالسة الرقاق ،ولبس الشعراء الوشي والمقطعات الحريرية ،ولبس المغنون قطوع الديباج والخزّ ،وكان للطبقة الراقية زيّها الخاص بعلو مقامها وثرائها،وغالبا ما كان يتألف من سروالة فضفاضة وقميص ودراعة وقباء وقلنسوة،وكانوا أحيانا يلبسون الجوارب المصنوعة من الحرير أو الصوف أو الجلد ،ويسمونَها "مزاج".[2]

وقابل السواد الذي كان سائدا في الأزياء الرسمية ألوانا زاهية خُصِّصت لأزياء المُنادمة ،وهي عبارة عن ثياب خزّ مصبوغة بألوان مختلفة كالأحمر والأصفر والأخضر.[3]

وتطوّرت فنون الزينة عند المرأة بفضل زوجات بعض الخلفاء اللائي اهتممنَ بهذه الأمور أيّما اهتمام ،فكان لهنّ الدور البارز في ترويج بعض الإبداعات الجمالية كفكرة تعصيب الرأس بعصائب مكلّلة بالجواهر ،أو شيوع الثّياب المصبوغة والنِّعال الملوّنة المرصَّعة ،أو تزيين الرأس بتاج مرصَّع بنرجس من الذهب والفضة ومحلى

[1]-ينظر:كتاب الوزراء والكتاب،الجهشياري،تقديم:حسن الزين،دط،دار الفكر الحديث،لبنان،1988 :9
[2]-ينظر:العالم الإسلامي في العصر العباسي:180،حضارة العرب في العصر العباسي:174،173.
[3]-ينظر:دراسات في تاريخ العرب، العصر العباسي الأول،السيد عبد العزيز سالم:320.

بسلسلة ذهبية مُزَيَّنة بالأحجار الكريمة ،ويقال إنّ هذا الزيّ ابتكرته علية بنت المهدي،[1] ويعود الفضل إلى زبيدة أم الأمين التي تعدّ (كما ذكر المسعودي) :"أول من اتخذ الآلة من الذّهب والفضة المكلّلة بالجوهر ،وصُنع لها الرفيع من الوشي ،حتى بلغ الثوب من الوشي الذي اتخذ لها خمسين ألف دينار."[2]

3- أدوات الترويح والتسلية:

لقد عرف العباسيون أنواعا من التسلية ،بعضها اختص بالطبقة الخاصة والبعض الآخر مارسته الفئتان دون استثناء ،ولعلّ أهمها تتمثّل في لعبة النّرد والشّطرنج والرّمي بالنِّشاب والصّيد ولعبة الجوكان والمصارعة وسباق الخيل وسباق الحمام الزاجل ،وتربية الحيوانات المختلفة كالغزلان والطيور والحيّات والأسماك ،ولقد فُتن الخلفاء بالصيد بالبندق والسهام والجوارح والفخاخ ،وكانت لعبة الشّطرنج لعبة الطبقة الارستقراطية في العصر العباسي[3] ،ويروي المسعودي أن: "الرّشيد أول خليفة لعب بالصولجان في الميدان ،ورمى بالنشاب في البرجاس ولعب بالأكرة والطباب ،وقرب الحذاق في ذلك،فعمَّ الناس ذلك الفعل ،وكان أوّل من لعب الشطرنج من خلفاء بني العباس،وبالنرد وقدم اللّعاب ،وأجرى عليهم الرزق."[4] ويبدو أنّ الخلفاء وأفراد الطبقة الخاصة قد قلّدوا الرشيد في هذا ،ثم شاعت هذه الألعاب وسط عامة الناس الذين وجدوا في ممارستها المتعة والتّسلية.

---

[1]-ينظر:المرجع السابق:326،العالم الاسلامي في العصر العباسي،حسين أحمد محمود:180.
[2]-مروج الذهب،المسعودي،ج4 :252
[3]-ينظر:الاسلام في حضارته و نظمه،أنور الرفاعي:498،497،حضارة العرب في العصر العباسي،حسين حاج حسن:189،179.
[4]-مروج الذهب،المسعودي،ج4 :252.

4-الحركة العمرانية:

تعدّ الحركة العمرانية مظهرا من أهم مظاهر الحضارة العربية الإسلامية ،ولقد اهتم بها المسلمون بعد فترة وجيزة من ظهور الإسلام ،أو بالأحرى مع هجرة رسول الله ﷺ إلى مدينة يثْرب ،حيث طرأت عليها بعض التَّغيرات التي تتماشى مع مقتضيات الدّين الجديد ،فأُقيم المسجد الجامع الذي لم يقتصر على الوظيفة الدينية فحسب ،وإنّما أصبح كذلك مركزا سياسيا وإداريا ،وأخذت الخطوط التصميمية والفنون المعمارية تتطور شيئا فشيئا ،وقد ساعد على ذلك ثراء الدولة الإسلامية النّاتج عن الفتوح والهيمنة على التجارة العالمية من وجهة ،ولاحتكاكهم بشعوب الأمم المفتوحة واطِلاعِهم على فنونهم المعمارية من وجهة أخرى ،ولقد تنوّعت المنـشآت بتنوّع وظائفها ،فتجد المنشـآت الدينية كالمساجد والزوايا ،والمنشآت العسكرية كالمدن والقلاع والحصون والأبراج ،والمنشآت الاجتماعية كالبيمارستنات والسّبل ،ومنشآت سكنية كالقصور والبيوت.[1]

ولقد شَغُف الخلفاء العباسيون ببناء المدن والقصور ،ومن عجيب ما ذكره ابن خرداذبة :أنّ المتوكل أنفق على الأبنية التي بناها مائتي ألف ألف وأربعة وسبعين ألف ألف درهم ،ومن العين مائة ألف ألف دينار.[2]

ويشير الدارسون إلى بعض التَّغيُرات الجوهرية التي دخلت على أساليب الفنّ المعماري إبّان العصر العباسي والتي تمثَّلت في استعمال الآجر بدلاً من الحجر ،والأكتاف بدلا من الأعمدة ،وتفضيل الزخارف الجصّية على الزخارف الفخرية.[3]

[1]-ينظر:أضواء على تاريخ العلوم عند المسلمين،،ط1،دار الكتاب الجامعي،الإمارات العربية،2001:234.
[2]-ينظر:الديارات،الشابشتي:69.
[3]-ينظر:تاريخ العصر العباسي،أمينة بيطار:405.

1-عمارة المدن:

اشترط المسلمون مجموعة من العوامل التي لابدّ أن تتوفر في منـطقة بناء المدينة والتي تتمثل في :توفر المياه والمناخ المناسب وطيبة الهواء ،كما اشترطوا أن تكون ذات موقع استراتيجي حتّى تسهل حصانتها مع مراعاة سهولة المواصلات سواء عن طريق البر أو البحر .ومن وجهة أخرى حددوا العناصر الأساسية التي لا تقوم المدينة بدونها ،والتي أصبحت تُميّز المدينة الإسلامية عن غيرها من المدن ،ومن أهمها المسجد الذي يكون في قلب المدينة وحوله قصر الإمارة ودواوين الدولة الإسلامية وغيرها من العناصر الضرورية التي تخدم الحكَّام والرَّعية دون استثناء.[1]

مدينة بغداد:

لقد اقتضى انتقال الحكم من الأمويين إلى العباسيين إلى استبدال عاصمة الخلافة التي جعلها السّفّاح في الحيرة ثمّ انتقل إلى الأنبار وبنى الهاشمية لكنها لم تَرُقْ المنصور من بعده ،ولاسيَّما بعد أن بلَغه أنّ أهل الكوفة كانوا يَسعون لفساد جنده،فسعى إلى إيجاد عاصمة جديدة ،فوقع اختياره على قرية بغداد التي تقع على الضِّفة الغربية من دجلة[2] ،وتعدّ منطقة استراتجية للتّبادل التجاري ،وأرضها خصبة صالحة للزراعة فهي سهلة التموين والرّي وجيّدة المناخ[3] ،ولقد سمّاها المنصور مدينة السّلام ،[4]ولقد شــرع في بنائها سنة 145هـ ،ويقال إنه أمر بإحضار المهندسين والبنائين والفعلة والصّنـاع من النّجارين والحفّارين والحدّادين وغيرهم من الشام والموصل والجبل والكوفة وواسط ،ولم يشرع في بنائها حتّى تكامل بحضرته عدد هائل من العمال في مختلف

[1]-ينظر:أضواء على تاريخ العلوم عند المسلمين،محمد حسين محاسنة:237،234.
[2]- ينظر:الاسلام في حضارته ونظمه،أنور الرفاعي:348
[3]-ينظر:البلدان،اليعقوبي،تقديم:محمد أمين الضناوي،دط،دار الكتب العلمية،بيروت،،دت:11
[4]-ينظر:معجم البلدان،الحموي،دط،دار صادر،بيروت،1977: ج1 :456.

المهن والصناعات ،ولقد اختار قوما من أهل الفّضل والعدالة والفقه والأمانة والمعرفة بالهندسة.[1] ويقال إنّه أنفق عليها أربعة آلاف ألف وثمانمائة وثلاثة وثلاثين درهما.[2]

وتعتبر مدينة بغداد نموذجا فريدا في العمارة الإسلامية ،ويرجح أنّ المنصور تأثر بتخطيط المدن الفارسية القديمة ،[3]حيث جعلها مدوَّرة ،ولقد احتل القصر المَركز بجانب المسجد الجّامع ،وحوْل المدينة منازل أولاد المنصور ومن يقرب من خدمته من عبـيده ،وبيت المال ،وخزانة السلاح والدواوين .وجعل للمدينة أربعة أبواب ،وهي :باب خراسان ،باب الكوفة ،باب الشام ،باب البـصرة، وعمل عليها الخنـادق ،وأقام لها سورين وفصيلين ،وأمر أن تبنى المنازل في الفصيل الثاني دون الأول لحصانة المدينة. ولقد جعل لأبواب المدينة أربعة دهاليز عظاما معقودة كلها بالآجر والجص،وعلى كل باب من أبواب المدينة قبة معقودة عظيمة مُذهّبة ،وجعل بين كلّ بابين ثمانية وعشرين برجا ،إلا باب البصرة وباب الكوفة فإنّه يزيد واحدا .[4]ويذكر الحموي أنّ المنصور قد مدّ قناة من نهر دجيل الآخذ من دجلة وقناة من نهر كرخايا الآخذ من الفرات وجرّهما إلى مدينته في عقود وثيقة من أسفلها ،محكمة بالصاروج والآجر من أعلاها ،فكانت كل قناة تدخل المدينة وتنفُذ في الشَّوارع والدُّروب والأرباض،تجري صيفًا وشتاءً ،لا ينقطع ماؤها في شيء من الأوقات .[5]ثم أمر المنصور ببناء الرّصافة في الشرق ،والتي كانت في البداية بمثابة ثكنات الجيش،ولكنّها ما لبثت أن توسّعت وظهرت فيها الحدائق والمنتزهات والميادين الواسعة والمباني الفّخمة ،كما أمر ببناء كرخ في الغرب بمثابة أسواق للمدينة .[6]

[1]-ينظر:تاريخ الطبري:ج7: 618.
[2]-الفخري في الآداب السلطانية،ابن طباطبا:163.
[3]-ينظر:دراسات في تاريخ العرب،العصر العباسي الأول،السيد عبد العزيز سالم:353.
[4]-ينظر:معجم البلدان،الحموي،ج1 :459،البلدان،اليعقوبي:25 وما بعدها،تاريخ بغداد،الخطيب البغدادي:382.
[5]-ينظر:المصدر السابق ،الحموي،ج1 :460.
[6]-ينظر:تاريخ بغداد،البغدادي:393،390.

مدينة سامراء :

لقد اختُلِف في أصل تسمية سامراء ،فمنهم من قال أنّ أصلها سُرَّ من رأى فخففها الناس وقالوا سامراء ،ومنهم من قال إنّها مدينة بُنيَتْ لسام فنُسبَت إليه بالفارسية "سام راه" وتعني طرق سام ،وقيل بل هو موضع عليه الخراج فقالوا بالفارسية "ساء مره" أي موضع الحساب .ولقد أنشأها المعتصم ونزلها سنة 221هـ بعدما أحسّ بأنّ بغداد قد ضاقت بعساكره .[1]وسكنها سبع خلفاء من بعده وهم :الواثق والمتوكّل والمنتصر والمستعين والمعتزّ والمهتدي والمعتمد ،ويقال إنّه أمر المهندسين باختيار أصلح مواضع المدينة لبناء القصور فكان منهم الجوسق الخاقاني والعمري والوزيري ،كما قام باختيار العمّال والصنّاع وأرباب المهن من سائر الأمصار الإسلامية ،بعدما قام بتخطيط القطائع والمسجد الجّامع والأسواق ،ثم وضع الأساس للبناء في الجانب الشرقي من دجلة وهو جانب مدينة سامراء ،وعقد جسرا إلى الجانب الغربي من دجلة فأنشأ هناك العمارات والبساتين وحفر الأنهار وحمل النخيل من سائر البلدان .[2]ولم يبنِ أحد من الخلفاء بسامراء من الأبنية الجليلة مثلما بناه المتوكل ،حيث بنى مسجدا جامعا والكثير من القصور كالهاروني والعروس والمختار والجعفري والغريب والجوسق وغيرها،ويقال إنه اشتق عن دجلة قناتين إحداهما شتوية والأخرى صيفية تدخلان الجامع وتتخللان شوارع سامراء.[3]

2- عمارة القصور:

لقد عَنِيَ الخلفاء والأمراء وكبار رجال الدولة بتشييد القصور إبّان العصر العباسي ،والتي تميّزت بحسن بهائها وبفخامة بنائها واتساعها ،وزاد في رونقها الحدائق

[1]-ينظر:معجم البلدان ،الحموي،ج3 :173.
[2]-ينظر:البلدان،اليعقوبي:52 وما بعدها
[3]-ينظرالمرجع نفسه:الحموي،ج3 :175.

التي ازدانت بالمناضد الثمينة والزهريات الخزفية والتربيعات المرصّعة والمذهّبة .[1]ويبدو من خلال بعض أسماء القصور التي شيِّدت في هذا العصر (كقصر الخُّلد وقصر السَّلام) أنّ الخلفاء قد تأثروا بالجنَّاتِ التي وعد الله بها عباده المتقين ،فتعجلوا أوصافها،وراحوا يلقبون قصورهم بأسمائها[2].

وقصر **الجوسق الخاقاني** واحد من قصور الخليفة المعتصم الذي أقامه على الضّفة اليسرى لنهر دجلة ،ويتكون تخطيطه العام من قسمين رئيسين :**القسم الجنوبي** الذي يضم المدخل الرئيسي للقصر والمعروف بباب العامة ،وقاعة العرش ،ودور الحريم ،بالإضافة إلى رحبة أو فناء كبير يشغل الجانب الشرقي منه ،ويتكوَّن القصر من ثلاثة أواوين كبيرة وسراديب متعدّدة ،وتمثِّل المطلة منها على النهر مدخل قصر الخليفة أو ما يسمى بباب العامة والذي تتألف واجهته من ثلاثة عقود ،وخلفها توجد حجرات بسقوف نصف أسطوانية معقودة ،أما الحجرة الوسطى فهي الإيوان الكبير الذي يعلوه قبو نصف أسطواني ،ويوجد في نهايته باب يعلوه شبّاك معقود بعقد مدبب،وكانت هذه الأواوين مزدانة بزخارف من الجصّ بديعة النّقش والمنظر ،ويوجد خلف الإيوان الكبير باب تعلوه قنطرة مدببة تعلوها نافذة[3] ،وتجد خلف المدخل الرئيسي للقصر ست قاعات يرجح أنّها كانت قاعات انتظار ،ومن الجهة الشمالية نجد حجرات الخليفة ،أمّا الجزء الخاص بالحريم فيقع في الجهة الجنوبية ،ويطلّ الحمام الكبير على الرّحبة مباشرة .أما قاعة العرش شكلها مستطيل تحيط بها أربع قاعات ،وهي مليئة بالزخارف الرّخامية ،أما سقفها فيُرجَّح أنّه كان عبارة عن قبة .هذا ويعد ملعب الصولجان من أهم مميزات الجوسق الخاقاني ،وكان يُعرف لذى العامة بهاوية السّباع ،ومدخله عبارة عن

[1]-ينظر:تاريخ الاسلام،حسن ابراهيم حسن:329.
[2]-ينظر:التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية،أحمد شلبي:148.
[3]-ينظر:من معالم الحضارة العربية الإسلامية،قصي حسين،ط1،المؤسسة الجامعية،بيروت،1993 :24،العمارة الإسلامية في العصرين العباسي والفاطمي،أحمد عبد الرزاق،ط1،دار القاهرة،القاهرة2002 :47،46.

حجرة مربعة نقشت على جدرانها زخرفة من الجصّ الملوّن ،أما السرداب ذاته فهو عبارة عن فجوة منقورة في الصّخر ،وكانت في أرضيتها حوض ماء ،وكان يحيط بالسّرداب غرف عديدة في صفوف متوازية يرجَّح أنّها كانت إسطبلات لخيول فرسان ورجال الحاشية .[1]أما فيما يتعلّق **بالقسم الشمالي** من القصر فيرجّح أنّه بيت المال للخليفة المعتصم ،لكن أغلب ملامحه مطموسة وغير واضحة.[2]

يتجلّى بيّننا من خلال هذه اللّمحات الموجزة عن الحضارة العباسية أنّها بالفعل حضارة عظيمة استطاعت أن تحقق الكثير من الإنجازات على مختلف الأصعدة،فبغض النّظر عن آثار الحضارة السّلبية وما جلبته من مجون وعادات سيّئة في المجتمع العباسي إلاّ أنها من جانب آخر نجدها قد رفعت راية العلم والفكر عاليا فأسّست الكثير من العلوم اللّغوية والدّينية وطوّرت علوما أخرى ،ولم تقتصر على تدوين هذه العلوم على الورق فحسب ،وإنّما سخّرته كذلك في تأسيس مدنها وقصورها وجوامعها ماديّا ومعنويا.

[1]-ينظر: من معالم الحضارة العربية الإسلامية ،قصي حسين:25.
[2]-ينظر: العمارة الإسلامية في العصرين العباسي والفاطمي ،أحمد عبد الرزاق:57.

الفصل الثالث

مواطن التأثير الحضاري في الأدب العباسي

-ملامح الأدب العباسي من خلال الحياة الحضارية

-التجليات الاجتماعية في الشعر العباسي

-تمثل الأدب العباسي للحياة الفكرية

لقد حاولت من خلال هذا الفصل التّركيز على أهم مواطن التّأثير الحضاري في الأدب العباسي ،فقمنا بتقديم لمحة شاملة لآثار الحضارة المختلفة على شكله ومضمونه دون تحديد نوع المؤثرات الحضارية ،كما حاولنا الوقوف عند تجليات التأثير الاجتماعي في الشّعر العباسي ،منتقلين إلى أهم المحطات المعنوية للحضارة العربية الإسلامية والتي تتمثل في الحياة الفكرية ومدى تأثيرها في الشّعر والنثر على السواء.

1-ملامح الأدب العباسي من خلال الحياة الحضارية:

لقد توفّرت البيئة العباسية على الأسباب الحضارية اللّازمة من أجل التّقدم والازدهار على الصّعيدين الثّقافي والمدني ،كما وجد الأدباء في ظلّ هذه الحياة الجديدة غايتهم المنشودة للتّجديد والإبداع. وكان من الطبيعي أن يتأثر الأدب العباسي بملامح المجتمع العباسي في ظلّ الحياة الحضارية ،فالتغيُّر الذي أصاب التركيبة الاجتماعية التي أصبحت تضم شعوبا مختلفة ،وتطوّر الحياة الحضارية بشقيها المادي والمعنوي تعد أسبابا رئيسة تلاحمت من أجل ابتكار عناصر إبداعية جديدة أسهمت في تميّز الأدب العباسي.

واعتبارا لما سبق ،فإنّ الإطار الفني للشعر العباسي تمثل في ثلاثة اتجاهات:

الاتجاه الأول :ويمثل الولوع بالتّجديد والاهتمام بالمظاهر الحضارية المختلفة ،وتسمى الفئة التي تعنى بهذا الاتجاه بالمحدثين وقد تسمى كذلك بالمولّدين.

الاتجاه الثاني :يمثل الاعتدال في التأثر وعدم الإفراط في التجديد.

الاتجاه الثالث :ابتعد عن هذا وذاك ،وبقي ينظم في الأغراض القديمة.[1]

وبإجمال ،فقد ظلّ الشعراء العباسيون ينظمون في الكثير من الأغراض القديمة،كما احتفظت القصيدة العربية بالكثير من المقومات التي ورثتها عن الأدب

[1]-ينظر:الشعر في بغداد حتّى نهاية القرن الثالث هجري،أحمد عبد الستار الجواري،ط2، مطبعة المجمع العلمي العراقي،1991 :234،231

العربي القديم ،والتّجديد الذي أصاب الشّعر في بعض جزئياته ما هو إلاّ من دواعي التوافق بين صورة هذا الأدب والواقع الحضاري الجديد. وفي هذا المضمار يقول أنيس المقدسي :"إذا وازنت بين الشّعر القديم والشّعر المولّد ،فلا شكّ أنّك تجد في الأخير أثر التقدم ظاهرا للعيان ،على أنّ ذلك لم يبلغ به مبلغا يخرجه عن المناهج التي اختطها الأقدمون."[1] وهذا ما سيتضح لنا من خلال استقصائنا للآثار المختلفة التي أضفتها الحياة الحضارية على الشّعر العباسي والتي يمكن إجمالها في:

أولا :هجرَ الشعراء بعض الأغراض الشعرية التي كانت سائدة في الأدب العربي القديم والتي كانت تعكس صورة البداوة الغالبة على الحياة العربية ،وهذا ما يشير إليه عبد المنعم خفاجي في قوله :"فهناك أغراض أصبحت لا تلائم أذواقهم ،ولا تتسق مع مدنيَّتِهم ،وقد وجدوا في مشاهد الحضارة ومظاهر الحياة الجديدة ما يغنيهم عنها ،ولذلك هجروها ،بل سخروا منها كل السُّخرية ،ومن هذه الأغراض :بكاء الدّيار ،ومناجاة الأطلال ،وتتبُّع الآثار ،ونعت الناقة ،ووصف الصحراء ونحو ذلك من مظاهر البادية،وإن كان بعض الشعراء قد ظلّ على وفائه القديم ،ورأى أنّ القول في هذه الموضوعات إبقاء على التراث العربي ،وحِفظٌ لعمود الشعر."[2]وتجدر الإشارة كذلك إلى ضعف الشّعر السياسي في هذا العصر حيث أصبح كما ذكر طه حسين :"شعرا بسيطا يقال سرًّا وفي مقطوعات قصيرة يقولها الشاعر ويهمس بها في الآذان ،ويتناقلها الناس على أنّها من الأشياء التي لا يجب أن يرفع بها الصوت."[3] وربما ضعف لانشغال كبار الشعراء العباسيين بالاهتمام بالحياة الحضارية دون غيرها ،أما عن دواعي النَّظم في هذا الغرض فلا يعنينا في موضوعنا هذا.

---

[1]-أمراء الشعر العربي في العصر العباسي،أنيس المقدسي:86.

[2]-الآداب العربية في العصر العباسي الأول،ط1،دار الجيل،بيروت،1992 :94

[3]-في تاريخ الأدب العربي ج ،ط5 دار العلم للملايين لبنان،1991 :50

ثانيا :التجديد في بعض الأغراض الشعرية:

1-**الوصف**:يعدُّ أكثر الأغراض الشعرية استيعابا وتصويرا للبيئة المعيشة ،وبذلك فمادّته تتغير بتغير الواقع والعصر اللذين يترعرع في أحضانهما ،ولقد انصب اهتمام الشعراء في العصور التي سبقت العصر العباسي على نعت طبيعة بيئته البدوية وكلّ ما يحيط بها ،ثم احتك بالواقع الحضاري الجديد في العصر العباسي وأصبح يتفنَّن في وصف المظاهر الحضارية المختلفة :كالقصور ،والبرك ،والحدائق ،والولائم ،والسفن ، والجيوش...وهذا ما يشير إليه ابن رشيق في قوله:"وليس بالمحدث من الحاجة إلى أوصاف الإبل ونعومتها ،والقفار ومياهها ،وحمر الوحش ،والبقر ،والظلمان ،والوعول،وما بالأعراب ،وأهل البادية ،لرغبة الناس في ذلك الوقت عن تلك الصفات وعلمهم أنّ الشاعر إنّما يتكلّفها تكلفا ليجري على سنن الشعراء قديما."[1]

2-**الهجاء** :لقد خرج هذا الغرض عن الدائرة المباحة التي كان ينظم فيها،وأصبح الشعراء يهجون خصومهم بأفحش العبارات وأقبحها ،ثم تحوّل إلى فنّ يقوم على الهزؤ والسخرية ،ثم انتقل من عراك مباشر ومكشوف إلى معان كلها رموز وإيحاءات.[2] ولقد تفطّن عبد الستار الجواري إلى أثر الحضارة على عقلية الشعراء من خلال تطور فنّ الهجاء فقال :"ذلك أنّ الهجاء في بعض جوانبه تعبير عن غريزة الخصام والمقاتلة،فكلما كان غرضه الإيلام والإيجاع كان ذلك دليلا على أنّ الغريزة لم تزل في حالة من البدائية والسذاجة ،وكلَّما تحول إلى الهزل باستخدام المدح والإمتاع كان ذلك

[1]-العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده:295/2

[2]-ينظر:الشعر في بغداد،أحمد عبد الستار الجواري:232

أمارة التسامي والإعلاء في الغريزة ،وتلك ظاهرة تنبئ بمكان المجتمع في الحضارة وتدلّ على تطور المعايير الاجتماعية فيه."[1]

3-**شعر الحكمة:**هو من الأغراض الشعرية القديمة ،عرف منذ العصر الجاهلي،حيث كان يعكس بعض التجارب الشخصية ولكن بحكم المستوى الفكري السائد آنذاك بقي يُنظم في حدود ضيقة ،ثم أخذ يتطور بشكل تدريجي ابتداء من ظهور الإسلام الذي وجد فيه فيضا لا ينتهي من المادة الشعرية اللازمة لمبتغاه ،إلى أن احتك هذا الغرض الشعري بالحياة الفكرية الجديدة التي نهلت من الثقافات الأجنبية كل ما يرتقي بها إلى الآفاق ،فاستفاد الشعراء من الحكم النادرة التي نمّقوا بها أشعارهم.[2]

4-**الرثاء** :إنّ المتأمّل في الكثير من قصائد الرثاء التي قيلت في هذا العصر يلاحظ اللمسة الحضارية ولاسيّما في تلك التي نُظمت عن المغنين وأهل اللّهو ،حيث تتضارب المعاني المقصودة في ذهن القارئ بين الهزل والعبث والمجون وبين الحزن والبكاء ،وبذلك فالحياة البهيجة تكاد لا تفارق الشّعر على اختلاف أغراضه حتّى ولو كان رثاءً.[3] والأبيات الآتية لأبي أسد الحماني تعكس ما سبق ؛يقول:

تَـــولَّى المَوْصِـــلِيّ فقـــد تَوَلَّـــتْ بَشَاشـــــاتُ المَزَاهِـــــر والقيَـــــانِ
وأيُّ مَلاَحَـــــةٍ بقيَـــــتْ فَتَبْقـــــى حيـــاةُ المَوْصِـــلي علـــى الزَّمـــانِ
سَـــــتْبكيهِ المَزَاهِـــرُ والمَلاَهـــــي وُيُسْـــــعدُهُنَّ عاتقـــــةُ الـــــدَّنان[4]

5-**المدح:**هو غرض قديم ،تغيَّر شكله بعدما اصطدم بموجة الحضارة منذ العصر الأموي ،حينما وجد الشعراء مكسبا بمدحهم للخليفة وحاشيته ،ثم ازداد تطورا

[1]-المرجع السابق:269.
[2]-ينظر:تاريخ الأدب العربي في العصر العباسي الأول،حامد حفني داود:14
[3]-ينظر:الشعر في بغداد،أحمد عبد الستار الجواري:188
[4]-الأغاني،أبو فرج الأصفهاني،ج14: 90

بعد احتكاكه بالثقافات الأجنبية ولاسيما الفارسية ،فبالغ الشعراء في الإطراء والثناء على الممدوح.[1]

ثالثا:ظهور أغراض جديدة:

لم يقتصر الأمر على التجديد في الأغراض القديمة فحسب ،وإنما تعدّى ذلك استحداث أغراض جديدة لم يكن للعرب عهد بها متأثرين في ذلك بالعوامل المختلفة التي اقتضتها الحياة الحضارية بشقَّيْها المادي والمعنوي ،وكذلك نتيجة لاحتكاك العرب بالعادات والثقافات الأجنبية والتي يجملها أحمد حسين الزيات في قوله:"وأما في أغراضه فبالمبالغة في نعت الخمر ومجالسها ،ووصف الرياض والصيد ،وغزل المذكر ،والمجون ،والوعظ ،والزهد والأخلاق ،والفلسفة ،وضبط العلوم كالنحو وغيره..."[2]

رابعا:التجديد في المعاني والأسلوب:

لقد اختلفت آراء الدارسين حول المستوى الفني للشعر في العصر العباسي،فمنهم من يرى فيه ضعفا لضعف الفطرة الشعرية التي كانت أساس إلهامه في العصور التي سبقت هذا العصر ،ويتضح هذا جليا من خلال قول نجيب البهبتي:"أما عن هذا العصر (يقصد العصر العباسي) فقد كان عصر تحضُّر وتعمُّق ،ونظر وفكر،عهد مدنِيَة تضعف معها قوة الفِطرية الشّعرية ،وتضيق فيه آفاق الخيال ،مما يوشك أن تصبح معه مدنية عملية ،فخضع الشّعر في ظلالها لما تخضع له كل فروع الحياة من نظر وفكر وقياس ،وكان حظ العقل فيه أرجح من حظ العاطفة ،وكان نصيب الصنعة فيه أكثر من نصيب الطَّبع."[3] وهذا ما أكّده عمر فروخ في قوله :"إنّ الروعة الأدبية

---

[1]-ينظر: تاريخ الأدب العربي في العصر العباسي الأول،حامد حفني داود:13

[2]-تاريخ الأدب العربي،:251.

[3]-تاريخ الشعر العربي حتّى آخر القرن الثالث هجري،دط،دار الكتب المصرية،القاهرة،1950 :274.

الخالصة التي جاءت في الشّعر القديم كانت أشدّ تعبيرا عن الشعور الفطري في الفرد المتّصل بقومه وتاريخ قومه الأدنين ،وبهذا المعنى كان الأدب القديم أحسن تعبيرا عن معاني الإنسانية الصافية ،أما الأدب المحدث فنظر صاحبه إلى منازع النفس الشخصية منقطعة على كل شيء إلاّ عن وساوسها الآنية النابعة في الأكثر من رغباتها الشخصية..."[1]

وفي المقابل نجد شوقي ضيف ينفي القول بضعف السليقة في قرائح الشعراء العباسيون لأنّها تحولت إليهم عن طريق شعراء البادية وعلماء اللّغة الذين أسهموا في جمع اللّغة الشعرية مع وضع المقاييس اللازمة حتّى لا يبتعد الشعراء بعامة والمحدثين بخاصة عن عمود الشّعر العربي.[2]

على أنّ الدارسين يجدون في تجديد الشّعر العباسي جمالا ومتعة ،منهم أحمد عبد الستار الجواري الذي يقول :"ومن آثار الحضارة في الشّعر أنّها جعلته فنا يقصد فيه إلى الجمال ،ولا يقتصر فيه على محض التّعبير عن المشاعر دون أن يلتفت الشاعر إلى صورة ذلك التعبير ،وأن يعمد فيها إلى التّزويق والتّنميق والتّفنن ،وانتقل الشّعر من جمال البداوة الساذج البسيط إلى جمال الحضارة المعقَّد ذي التّهاويل والتّفاصيل ،فجعلت الشعراء يقصدون في شِعرهم إلى الصّور التعبيرية قصدا ولا يأتونها عفوا من غير تعمد ،كما كان أسلافهم يفعلون..."[3]

ولكن الحقيقة التي لا يمكن تغييرها أنّ لكل مرحلة شِعرية مميزاتها وخصائصها التي تستمدها من البيئة التي تعيش فيها ،وبذلك فالمقارنة الفنية بين عصرين مختلفين تماما ستكون حتما انحيازا يخلق نوعا من الهوة بين مستوى الشعرين تجعل كل واحد

[1]-تاريخ الأدب العربي،الأعصر العباسية،ط4،دار العلم للملايين،1981 :127.
[2]-تاريخ الأدب العربي،العصر العباسي الأول:138
[3]-الشعر في بغداد:228،227.

منهما في مسار يعاكس الآخر. ثمّ إنّ الشّعر العباسي من الناحية الفنية هو امتداد للمراحل السابقة لكن في حلّة جديدة ،ولقد أصاب شوقي ضيف في تعريف أسلوب المولّدين على أنه :"أسلوب قام على عتاد من القديم وعدّة من الذوق الحضاري الجديد،أسلوب يحافظ على مادة اللّغة ومقوّماتها التصريفية والنحوية ويلائم بينها وبين حياة العباسيين المتحضرة بحيث تُنْفَى عنه ألفاظ العامة المبتذلة كما تُنْفَى عنه ألفاظ البدو والحوشية..."[1]وفي مقام آخر يقول :"هو أسلوب مرن ،فيه سلاسة وسهولة ووضوح ،وفيه رشاقة وعذوبة ،أسلوب لا يتوعّر ولا يسلم إلى تعقيد يفسده ويهجنه،معانيه ظاهرة مكشوفة وألفاظه لا تلطف عن العامة ولا تجفو عن الخاصة ،مع أناقة التعبير ودقّة الحس والذّوق."[2] وبشار بن برد واحد من الشعراء المولّدين والذي يقول فيه ابن المعتز :"كان شِعره أنقى من الراحة ،وأصفى من الزجاجة ،وأسلس على اللسان من الماء العذب."[3]

أجل ،لقد أضفت الحياة الحضارية لمستها على الشّعر فأكسبته غزارة في المعاني التي تميّزت بالدّقة والعمق ،ورقة في العبارات والألفاظ وقوّة في التّصوير وأفقا فسيحا في الخيال[4] ،ولقد اختلف الأسلوب من فئة إلى أخرى ،إحداها مالت إلى السهولة والأخرى تفننت فيه بتزويق العبارات وترصيعها بالمحسنات اللفظية[5] ،وبذلك فالبديع عرف نوعا من التجديد وقد أشار عبد الستار الجواري إلى هذا في قوله:"وقد كان تجديدا من وجه وتقليدا من وجه آخر ،فهو في الحقيقة ليس إلاّ إكثارا من فنون في

---

[1]-تاريخ الأدب العربي في العصر العباسي الأول:146.

[2]-الفنّ ومذاهبه في الشعر العربي،ط11،دار المعارف،القاهرة،1960 :129

[3]-طبقات الشعراء،تحقيق:عبد الستار أحمد فراج،ط3،دار المعارف،مصر،دت:28

[4]-ينظر:تاريخ الأدب العربي،العصر العباسي الأول،شوقي ضيف:181،الآداب العربية في العصر العباسي الأول،محمد خفاجي عبد المنعم:86

[5]-ينظر:الشعر في بغداد،أحمد عبد الستار الجواري:306

التّعبير عرفها الشّعر العربي قديما ،وهو من ناحية أخرى تجميل في الأسلوب تأثر فيه الشعراء بمظاهر الحضارة."[1]

أما من ناحية الشكل فقد ظلّت القصيدة العربية في العصر العباسي تنظم على منوال القدامى ،تتألف من مقدمة ،وموضوع وخاتمة[2] ،وإنّ التّجديد الذي أصاب القصيدة كان في مضمون بعض هذه الأجزاء ،كهجر المقدّمات الطللية واستبدالها بالخمرة كما فعل أبو نواس في قصائد مدح علية القوم وخاصتهم.[3] كما أخذ الشعراء يهتمون بمطلع القصيدة التي أصبحت تدلّ على الغرض المقصود ،مع اختيار الألفاظ المناسبة التي تخدمه.[4]وبعد أن كانت القصيدة تبنى على تعدد الموضوعات ،أصبحت أميل إلى وحدة الموضوع ،مما جعلها قصيرة في أغلب الأحيان غير لائقة إلاّ بمجالس اللهو والغناء والغزل والعبث.[5]

ومن وجهة أخرى نجد أنّ الشّعراء المحدثين اهتموا بالتجديد في الأوزان ،وهذا ما أشار إليه عمر فروخ في قوله:"وحدث تطور آخر في الشّعر ،إذ مال المحدثون إلى الأوزان القصيرة وإلى نظم المقطعات :الأبيات المعدودة في أغراض محدودة ،كما أحبّوا القوافي التي كانت إلى ذلك الحين مهجورة أو شبه مهجورة ،فبنوا بعض مقطعاتهم على ما عذب من الذال والطاء والضاد ،فلم تنفر في السمع لأنّهم لم يطيلوا في القصائد فيضطروا إلى الاستعانة بقواف غريبة."[6]

---

[1]-المرجع السابق:308

[2]-ينظر:تاريخ الشعر العربي حتّى آخر القرن الثالث هجري،نجيب البهبيتي:385

[3]-ينظر:الشعر في بغداد،أحمد عبد الستار الجواري:309.

[4]-ينظر:الآداب العربية في العصر العباسي الأول،محمد عبد المنعم خفاجي:77.

[5]-ينظر:المرجع نفسه،أحمد عبد الستار الجواري:269.

[6]-تاريخ الأدب العربي،الأعصر العباسية:40

أما النثر فقد وجد ضالته في البيئة العباسية التي احتضنت تلك الحركة الفكرية العظيمة في تاريخ الحضارة العربية الإسلامية ،وأصبح اللّغة الناطقة بالحضارة الجديدة والأداة المساهمة في النّهضة العلمية ،فتعدّدت ألوانه وتنوّعت مجالاته الإبداعية ،ولعلّ الكتب والموسوعات التي ألفها أصحابها إبّان ذلك العصر دليل قاطع على ما آل إليه هذا الفّرع الأدبي من تقدم وازدهار شكلا ومضمونا. فعلى إثر ذلك الزخم الفكري والحضاري الذي شهدته البيئة العباسية نشطت الكتابة وأصبح لها مكانة عالية في العصر العباسي ؛وفي هذا الصدد يقول شوقي ضيف :"كانت الكتابة في هذا العصر الجسر الذي يصل الشخص إلى أرفع المناصب ،وكان من يتقنها من الوزراء والقُوّاد والولاّة يلقى الإكبار والإعجاب في كل مكان ،وقد أخذ يسيل لعاب كل من أحس في نفسه قدرة عليها ،حتى يحظى بما يكفل له العيش فضلا عما قد يصيب من رغد ونعيم،ومن أجل هذا كثر الوافدون على أبواب الدواوين وخاصة من الناشئة ذي المطامح البعيدة ،وكانوا يعرضون أنفسهم ،فيمتحنون امتحانا عسيرا ،تبحث فيه مهاراتهم الأدبية والعقلية ."[1] وهذا يدل على قيمة الكتابة ومكانتها في المجتمع العباسي الذي شدّد في السُّبل الرئيسة من أجل بلوغ حياة حضارية متكاملة في جميع جوانبها.

وشهد النَّثر توسُّعا وتجديدا في موضوعاته ،ويجمل أحمد حسين الزيات هذا في قوله :"ولما استبحر العمران ،وطما بحر الخراج ،واتسع نطاق الدولة ،لم تعد الكتابة مقصورة على الدواوين وإنشاء الرسائل كما كانت في الدولة الأموية ،بل تعدتها إلى أغراض شتى ،كالتصنيف والترجمة ،والمقالات والمقامات ،والعهود ،والوصف ، والمناظرة ،وإنشاء الكتب في الإهداء والاستهداء ،والتعارف قبل اللقاء ،والشكر والعتاب

[1]-تاريخ الأدب العربي،العصر العباسي الأول:466،465.

والتعازي والتهاني والاستعطاف ،وغير ذلك من المعاني الحضرية التي لم يعهد أكثرها من قبل."[1]

كما أضفت الحياة الجديدة إلى النّثر العربي عمقا في المعاني وتأنّقا في الألفاظ التي ابتعدت عن الغرابة والحوشية ،وسعة في الخيال ،وتهذيبا في الأسلوب الذي تميّز بحسن السبك وقوة الأداء ،مع كثرة استعمال المحسنات البديعية ولاسيّما السجع. كما مال الكتَّاب إلى الإطناب ،وتكرار المعنى عبر جمل متوالية بالإضافة إلى استشهادهم بالأمثال والأبيات الشعرية...[2]

ومجمل القول:إنّ التأثير الحضاري تجلّى بشقيْه المادي والمعنوي في الأدب العباسي شِعرا ونثرا ،وهذا ما اتضح لنا من خلال هجر معظم الشعراء العباسيين بعض الأغراض الشعرية التي أصبحت لا تتلاءم مع حياتهم الجديدة ،بالإضافة إلى التجديد في بعضها الآخر كالوصف والهجاء وشعر الحكمة والرثاء والمدح...وكان من الطبيعي جدا أن تثمر الحياة الحضارية أغراضا جديدة كالمبالغة في وصف الخمر والمجون والغزل بالمذكر والاهتمام بوصف المظاهر الحضارية المختلفة من قصور ورياض وورود وسفن وغيرها. هذا بالإضافة إلى تجديد الشعراء في المعاني والأسلوب.وفي خضم كل ما عرفته البيئة العباسية من تقدّم وتطور على المستوى الفكري ازدهر النثر العربي باعتباره اللّغة الناطقة بالحضارة الجديدة والأداة المساهمة في النهضة العلمية،فنشطت الكتابة في هذا العصر وارتقت مكانتها ،كما شهد النّثر تجديدا في موضوعاته وتأنَّق الكتّاب في الألفاظ والمعاني التي أصبحت أكثر قوة وعمقا.

---

[1]-تاريخ الأدب العربي:215

[2]-ينظر:الآداب العربية في العصر العباسي الأول،محمد عبد المنعم خفاجي:34،المرجع السابق،أحمد حسين الزيات:216

2-التجليات الاجتماعية في الشّعر العباسي

لقد تميّزت الحياة الاجتماعية في العصر العباسي بمظاهر جديدة اقتضتها الحياة الحضارية ،وكان حظ الشّعر أوفر من حظ النثر وسط ضوضاء المجتمع العباسي الذي غلبت عليه المدنية وأخذته موجة التّرف والعادات الأجنبية إلى عالم جديد وجد فيه الشّعراء منبعا لا يفنى لمادّتهم الشِّعرية ،وهذا ما أكّده الزيات في قوله :"لقد كان أثر هذا الانتقال الاجتماعي في خواطر الشعراء أبلغ منه في نفوس الكتّاب ؛فإنّ هؤلاء بالخلفاء ألصق ونفوسهم بالتّرف والمدنية أعلق ،وهم المنادمون على الشّراب والمفاكهون في السّمر ،ضاق مضطربهم في السّعي ،فاتّسع في الخيال ،وغلبت أيديهم بالكسل عن العمل فاشتغلت أفئدتهم بالفكر وانطلقت ألسنتهم بالقول."[1]

ومن أهم المظاهر الاجتماعية التي أثرت على الشّعر العباسي:

1-مجالس الشرب والغناء في الشّعر العباسي:

لقد وصفت العرب الخمر منذ العصر الجاهلي ،لكنّها لم تبالِغ في وصفها كما فعل الشُّعراء العباسيون الذين جعلوا منها غرضا قائما بذاته ،يبالغ في التحدث عنها ويسرف في الدعوة إليها. واشتهر في هذا العصر فئة من الشعراء تفنّنت في وصف نشوتها وآثارها على الجسد والعقل وكؤوسها ومجالسها وندمانها وسقاتها[2] ،وكان إمامهم وزعيمهم أبو نواس الذي يقول في إحدى قصائده:

دَعْ عَنْكَ لَوْمِي فَإنَّ اللَوْمَ إغراءُ ... وَدَاوِنِي بالتي كانَتْ هيَ الداءُ
صَفْراءُ لا تَنْزِلُ الأحزانُ ساحتها ... لَوْ مَسَّها حَجَرٌ مَسَّتْهُ سَرَّاءُ
قامَتْ بإبْريقِها والليلُ مُعْتَكِرٌ ... فَلاحَ مِنْ وَجْهِهَا فِي البَيْتِ لألاءُ

[1]-تاريخ الأدب العربي:250.
[2]-ينظر:الآداب العربية في العصر العباسي الأول،محمد عبد المنعم خفاجي:109

فَأرْسَلتْ مِنْ فَمِ الإبريقِ صَافِيَةً كأنَّمَا أخْذُها بالعَيْنِ إغفاءُ

ثم يتفنّن ويبدع في رقة تأثيرها ولطافة احتسائها مع التعرض للنّادلة السّاقية لها فيقول:

رَقَتْ عَنْ الماءِ حتّى ما يُلائِمُها لطافةً وَجَفَا عَنْ شَكْلِهَا الماءُ

فلوْ مَزَجْتَ بِهَا نُوراً لمَازَجَهَا حَتَى تُولَدُ أنْوارُ وأضواءُ

دارَتْ على فِتْيَةٍ ذلّ الزمانُ لهُمْ فمَا يصيبُهُمْ إلاّ بِمَا شاءُوا

لِتِلْكَ أبْكِي ولا أبْكِي لِمَنْزِلَةٍ كانَتْ تَحِلُ بِهَا هِنْدُ وأسماءُ[1]

ويرجّح أنّ الخمرة التي تغنّى بها الشعراء العباسيون تعود إلى أصل فارسي ،[2]فأبو نواس يقول في إحدى قصائده:

ولا تسقياني بنتَ حولٍ ،فإنّها كما عُصِرَتْ لم يَنسَ فرْقتَها الكَرْمُ

ولكن عجوزاً ، بنتَ كسْرى ، قديمَةً معَتَّقَةً قد دَبَّ في طيشها الحِلْمُ[3]

ولقد اهتم الشعراء بوصف الحانات والأديرة وبيوت القِيان التي كانت تقام فيها مجالس الشرب والغناء ،كوصف أبي الهندي لحانة اسمها كوري زيان في قوله:

ثَبَتَ النّاسُ عَلى رايَاتِهم وَأَبو الهِنديّ في كَوي زِيانِ

مَنزِلٌ يَزري بِمَن حَلَّ بِهِ تُستحلُّ الخَمرُ فيهِ وَالزَواني

إِنَّما العَيشُ فَتاةٌ غادَةٌ وَقُعودي عاكِفاً في بَيتِ خانِ

أشربُ الخمرَ وَأَعصي مَن نَهى عَن طِلابِ الراحِ وَالبِيضِ الحِسانِ

في حَياتي لَذةً أَلهو بِها فَإِذا مِتُّ فَقَد أَودى زَماني[4]

وهذا أبو نواس يصف لنا مجلس شراب بدير بهراذان فيقول:

بدَيْر بَهْراذَانَ لي مجْلسٌ ومَلْعبٌ وسطَ بَساتِينِه

---

[1]-ديوانه،تحقيق:إيقالد قاقنر وغريغور شولر،ج3،ط2،مؤسسة البيان،بيروت،2001 :2

[2]-ينظر:التيارات الأجنبية في الشعر العربي منذ العصر العباسي حتّى نهاية القرن الثالث الهجري،عثمان موافي،دط،مؤسسة الثقافة الجامعية،دت:312

[3]-ديوانه،ج3: 283،284

[4]-طبقات الشعراء،ابن المعتز:138.

رُحـــتُ إليـــه ومعـــي فتيـــةٌ نـــــزُورُه يـــــومَ شَـــــعانِينِه
بكـــل طـــلاّبِ الهـــوى ،فاتـــكٍ قـــد آثـــر الـــدُنيا عـــن دينِـــه
حتـــى تَوافيْنـــا إلـــى مَجلسِـــه تضـــــحكُ ألـــــوانُ رياحِينِـــــه
والنَّـــرجِسُ الغَـــضُّ لـــدى وَرْده والـــوردُ قـــدْ حُـــفّ بنِسْـــرينِه[1]

كما اهتمّوا في بعض خمرياتهم بوصف السقاة ،مثل حماد عجرد الذي يصف مجلس شراب وساقيته في قوله:

فـــي جـــنان بيـــن أنـهـــ ـــــار وتعريـــش كـــروم
نتـــعاطى قـــهوة تشـــخص يقـــــــظان الهـــــموم
بنـــت عشـــر تـــترك المكـــ ـــثر مـــــنها كالأمـــيم
فـــي إنـــــاء كـــسروي مستخـــــف للحـــــليم
عنـــــدنا دهـــــقانة حنـــــانة ذات هـــمـــم
جمـــعت مـــا شـــئت مـن حســـن ومـــن دل رخيـــم[2]

يتّضح مما سبق أنّ القصيدة الخمرية قد تطورت بشكل كبير إبّان العصر العباسي على أيدي شعراء اعتبروها عنصرا هاما في بيئتهم الحضارية ،فأخذوا يتفنّنون في وصف مجالسها ودقّقوا في اختيار ألفاظها كما برعوا في نسج عباراتها ،ولقد مالت إلى الطبع تارة كما في شِعر أبي نواس وإلى الصَّنعة تارة أخرى كما نجدها في شعر مسلم وأبي الشيص. ولقد تنوّعت القصائد الخمرية بين الطّويلة التي كانت تعتمد الصّناعة الفنّية الدّقيقة ،وبين المقطعات الصغيرة التي تميّزت أوزانها بالخفّة والتي يُرجّح أنّها كانت تُلحَّن لتغنى ،ولقد عمد أصحابها إلى اختيار أرق الألفاظ وأخفّها حتّى تكون أكثر وقعا وأثرا في النفوس.[3]

---

[1]- ديوانه ،ج3: 334

[2]-الأغاني،أبو فرج الأصفهاني،ج14: 217،218

[3]-ينظر:اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني هجري،محمد مصطفى هدارة،دط،دار المعارف،القاهرة،دت:489.

ولقد شكّل الشّرب والغناء ثنائيا متلازما في أغلب الأحيان وخاصة في مجالس اللّهو ،ثم إنّ الكثير من القصائد الخمرية كانت تُغنّى في مثل هذه الأجواء وكان الشّعراء ينتقون ألفاظها وأوزانها من أجل هذه الغاية. ولقد أسهمت الظروف الحضارية وتطوّر البيئة العربية إلى تطوّر الغناء وجعله فنّا عربيا مستقلّا بقواعد وضوابط خاصة به[1] ،ويتّضح تأثيره في الشّعر بعامة من خلال ما ذكره عبد الستار الجواري في قوله:"ويتأتّى تأثر الشّعر بالغناء من طريقين :أحدهما أنّ الغناء والموسيقى يهذّبان أذواق الشعراء فيتخيّرون الألفاظ والأوزان مما تلذه الأسماع وتعلق به القلوب ،والآخر أنّهم يجتهدون في التّقرب من أذواق المغنين والموسيقيين ليحمّلوهم على اختيار أشعارهم للغناء فيقصدون إلى المعاني والأغراض التي تصلح للغناء ويحاولون أن يجودوا فيها."[2]

يتّضح مما سبق أنه كان لمجالس الشرب والغناء اللذين عرفتهما البيئة العباسية الأثر الواضح على الشّعر العربي خلال هذا العصر ،وأول ما نلاحظه تطوّر مادة الوصف وموضوعه ،فنجد الشّعراء يتأنّقون في وصف كل ما يدور حول تلك المجالس من خمرة وسقاة ويكثر وصفهم للأماكن المختلفة التي كانوا يرتادونها من أديرة وحانات وبيوت قيان ،ثم حاولوا أن يلائموا بين هذه المجالس التي كانت تحضر الغناء على الأغلب،وبين شكل وألفاظ هذا الشّعر ،فظهر بشكل جديد حتّى يتناسب مع متطلبات البيئة الحضرية ونوازعها المختلفة.

الجواري والقيان في الشّعر العباسي:

[1]-ينظر:الشعر في بغداد،أحمد عبد الستار الجواري:179

[2]-المرجع نفسه:182.

إنّ اصطدام الشعراء العباسيين بالحياة الجديدة جعلهم يهتمون بوصف كل شيء لم يألفوه ،وبحكم تواجد الأجنبيات بكثرة هائلة في البيئة العباسية فإنّهم أمعنوا في وصف جمالهن وأناقتهن وأصواتهن الجميلة العذبة ،ويذكر أحمد أمين تأثيرهن في الأدب مشيرا إلى أن:"الجواري كنّ أنشط من الحرائر في النوعين معا :أي ناحية الإنشاء الأدبي وفي ناحية الإيحاء إلى الشعراء ،ويرجع السبب في ذلك إلى النظام الاجتماعي إذ ذاك ،فقد كان الناس يغارون على الجواري ويحَجِّبون الحّرة ويشدّدون في تحجيبها...لذلك كان طبيعيّا أنّ الأدباء والشعراء يغذّون أدبهم وشعرهم بالجواري أكثر مما يغذونه بالحرائر."[1]

وتذكر المصادر الكثير من الجواري اللائي اشتهرن بنظم الشّعر كعريب التي يقول فيها أبو الفرج الأصفهاني:"كانت مغنِّية محسنة ،وشاعرة صالحة الشّعر ،وكانت مليحة الخط والمذهب في الكلام ،ونهاية في الحسن والجمال والظرف وحسن الصورة،وجودة الضرب وإتقان الصّنعة والمعرفة بالنغم والأوتار ،والرواية للشعر والأدب."[2]

ولعل الأسباب المذكورة سالفا هي التي جعلت الشعراء يتغنّون بالجواري أكثر من الحرائر اللائي كن بعيدات كل البعد عن هذا كله إلاّ القليلات منهن ،ولقد اشتهر العديد من الجواري كمعشوقات للشعراء كبشار ودعبل الخزاعي ومسلم بن الوليد وأبي نواس وغيرهم...[3]وكان بشار معجبا بجارية تدعى فاطمة ،ومن أجمل ما قال فيها:

عَجَبَـتْ فطمــةُ مــن نعتــي لهــا ... هـل يجيـدُ النّعـتَ مكفـوُفُ البصـر
دُرَّةٌ بَحْـــــــــرِيَّةٌ مَكْنـــــــــوُنَةٌ ... مازَهـــا التاجـــرُ من بـــين الدُّرر

[1]-ضحى الإسلام:98/1
[2]-الأغاني،أبو فرج الأصفهاني،ج21: 43.
[3]-ينظر:ضحى الإسلام،أحمد أمين:100/1

أُمَّتَـــــا بـــــدد هـــــذا لُـــعبي ووشـــاحي حـــــله حتّـى انتـشر
فدعـــــيني معـــــهُ يـا أمـــــتا عَلَّنـا فِـي خلْـوَةٍ نقضـي الـوطرْ
أَقْبلَـتْ مُغْضَـــــــبَةً تَضْـــرِبُها واعـــتراها كـــــــجنونٍ مسـتعر
بأبـــــــي واللـــــــه مـا أحسـنه دمـع عـينٍ يغسـلٌ الكحـل قطـر[1]

وفي قصيدة أخرى لعلي بن الجهم ينقل صورة بيت المقين المسمى بالمفضل؛إشارة واضحة على إعجابه بالقيان الموجودات هناك،فيقول:

نَزَلنـا بِبـابِ الكَـرخِ أَفضَـلَ مَنـزِلِ عَلـى مُحسِـناتٍ مِـن قِيـانِ المُفَضَّـلِ
فَلابـنِ سُـرَيجٍ وَالغَـريضِ وَمَعبَـدٍ وَدائِـعُ فـي أَسْـماعِنا لَـم تُبَـدَّلِ
أَوانِـسُ مـا لِلضَّـيفِ مـنهنَّ حِشـمَةٌ وَلا رَبُّهُـــنَّ بِالجليـــلِ المُبَجَّـــلِ
يُسَـرُّ إِذا مـا الضَـيفُ قَـلَّ حَيـاؤُهُ وَيَغفُـلُ عَنـهُ وَهُـوَ غَيـرُ مَغَفَّـلِ
وَيُكثِـــرُ مِـــن ذَمِّ الوَقـــارِ وَأَهلِـــهِ إِذا الضَـيفُ لِـم يَـأنَس وَلَـم يَتَبَـذَّلِ
وَلا يَـدفَعُ الأَيـدي المريبـةَ غَيـرَةً إِذا نـالَ حَظّـاً مِـن لَبـوسٍ وَمَأكَـلِ[2]

فالجواري والقيان تركنّ في نفوس الشعراء أثرا كبيرا فسالت أقلامهم إعجابا بهن،ومهما يكن ،فهذه الظاهرة اقتضتها الحياة الحضرية ،والشعراء وجدوا فيها متنفّسا جديدا يتلاءم مع الرفاهية واللهو اللذين اعتادوا عليهما في البيئة العباسية.

أثر المجون والزّندقة على الشّعر العباسي:

لقد نتج عن التطوّر الاجتماعي الذي أصاب البيئة العباسية انحراف فئة من المجتمع وانغماسهم في اللهو والعبث والمجون ،وشاركهم في حياتهم هذه مجموعة من الشعراء الذين مثّلوا هذه الظاهرة بشكل جديد لم يسبق لها مثيل ،وهذا ما أشار إليه أحمد أمين في قوله :"قد كان فجور الأولين بسيطا ساذجا في ألفاظه ومعانيه

[1]- ديوانه ،تحقيق محمد الطاهر بن عاشور،ج4 ،دط،وزارة الثقافة،الجزائر،2007 :68،69
[2]-الأغاني،أبو فرج الأصفهاني،ج10،176،175

كمعيشتهم،وكان فجور الآخرين مُمعنا في الوصف ،شاملا لكل مظاهر ومشاعر الشّهوة يتخيَّر أقبح اللَّفظ لا أقبح المعاني."[1]

ولقد تجلّت الحياة الماجنة في الشّعر العباسي في أشكال متعددة ،حيث نجدها أحيانا مباشرة وصريحة تدعو إلى اللَّهو بكلّ عفوية مثلما تعكسها الأبيات التي قالها مطيع بن إياس:

اِخلَـــع عَـــذارَكَ فـــي الهَـــوى وَاِشـــــرَب مُعَتَّقَـــــةَ الـــــدِنانِ
وَصِـــــلِ القَبـــــيحَ مُجـــــاهِراً فَـــالعَيشُ فـــي وَصـــلِ القِيـــانِ
لا يَلهِيَنَّـــــكَ غَيـــــرُ مـــــا تَهـــوى فَـــإِنَّ العُمـــرَ فـــانِي[2]

وهذا بشار بن برد يدعو في إحدى قصائده إلى اللهو في قوله:

مـن راقـبَ النَّـاس لـم يظْفَرْ بحاجَتِـه وفـــاز بالطيّبـــاتِ الفاتـــكُ اللَّهِـــجُ
وقــد نهــاكِ أُنــاسٌ لا صــفَا لهــم عـيشٌ ولا عَـدِموا خصـماً ولا فلِجـوا
قــالوا حــرامٌ تلاقينَــا ،فقــد كــذبوا مـا فـي التـزامٍ ولا فـي القبلـةٍ حـرجُ[3]

على أنّ التوسع في وصف الخمر يعد من تأثير الحياة العابثة التي انغمس فيها الشعراء ،وبلغ بهم الأمر إلى أنّ يمهّدوا لقصائد المّدح بمقدّمات خمرية ،كما فعل ذلك أبو نواس ومسلم بن الوليد وغيرهما...[4]

ولقد وفّرت الأسباب الحضارية الجوّ المناسب لميل الغزل بالمؤنث نحو الإباحية إلى أبعد الحدود ،وأصبح ينظم بشكل جديد يختلف عن الغزل القديم الذي لم يتجرأ الشعراء على المبالغة فيه إلاّ القليل منهم ،ولعلّ السبب في ذلك يعود إلى انتشار

---

[1]-ضحى الإسلام:184/1
[2]-الديارات 115
[3]- ديوانه: ج2 57،56
[4]-ينظر:تاريخ الأدب العربي،العصر العباسي الأول،شوقي ضيف:165.

الجواري بكثرة وتواجدهن في كلّ مكان ،حتى أصبح التّغزل بهنّ أمرا لا يستدعي العجب ،وهذا شوقي ضيف يتحدّث عن هذا الشّعر في قوله :"وهو غزل لم يعرفه العرب في العصور الماضية ،عصور الوقار ،والارتفاع عن درك الغرائز النوعية ،حقًّا عرفوا الغزل الصريح ،ولكنّهم لم يبالغوا مبلغ العباسيين في الصّراحة وما وراء الصّراحة في الجهر بالفسوق والإثم دون رادع من خلق أو زاجر دين."[1] ولقد نبغ فيه مجموعة من الشعراء كبشار بن برد ،وأبو نواس وديك الجن والحسين بن الضحاك ومطيع بن إياس ،وابن الرومي وغيرهم...[2]

وشاع غرض جديد في الشّعر العباسي وهو "الغزل بالمذكر" الذي يرجَّح أنه تسرّب من التّقاليد الفارسية كما يشير إلى ذلك أحمد محمد الحوافي :"لقد كان من عادات الفرس أنهم كانوا يملأون قصورهم ودورهم بالغلمان ،وكانوا يستخدمونهم في كثير من الشؤون ،ويلبسون ملابس الإناث ،ويحلوهم بحُلّيهِن ،وأنّ العرب حاكوهم في هذا وذاك..."[3]ونظم فيه مجموعة من الشعراء كحمّاد عجرد ووالبة بن الحبّاب وأبو نواس وحسين بن الضّحاك ويحيى بن زياد ومطيع بن إيّاس وغيرهم ،ثم تأثر بهذا الغرض شعراء الغزل بالمؤنث وأصبحوا يتغزّلون بالنّساء بالضمير المذكر.[4]

ومن النماذج الشعرية التي تعكس هذا النوع من الغزل قول أبي نواس في غلام:

ومنفـــــرد بصُـــــنوفِ الجمـــــالِ عـــديمِ المـــذاهبِ فـــي شـــبهه
تحـــارُ المـــذاهبُ فـــي وصـــفِه وينحســـرُ الـــوهمُ عـــن كنهِـــه
يتيـــــه ويجبهنـــــي ظالمـــــا، فكـــم قـــد تجرعـــتُ فـــي جبهِـــه

[1]-المرجع نفسه:177
[2]-ينظر:التيارات الأجنبية في الشعر العربي،عثمان موافي:269 وما بعدها
[3]-تيارات ثقافية بين العرب والفرس:208
[4]-ينظر:الآداب العربية في العصر العباسي الأول،محمد عبد المنعم خفاجي:100

نظـــرت إلـــى وجهِـــه خُلســـة فأبصـــرت وجهـــيَ فـــي وجهِـــه[1]

وهبّت ريح الحياة الماجنة نحو فنّ الهجاء كذلك ،الذي يعدّ من أقرب الفنون الشعرية إلى الواقعية ،ودفعته نحو الفّحش والإسفاف الخُلقي ،وقد نظم فيه الكثير من الشعراء نذكر منهم :بشار بن برد ،وحماد عجرد ،وأبا نواس ،وابن الرومي...وما يلفت الانتباه أنّ هذه الظاهرة لم تقتصر على الشعراء المجّان ،وإنما أصابت حتّى بعض الشُّعراء الآخرين كأبي تمام والبحتري وابن المعتز وغيرهم...[2]

ولقد اشتعل لهيب الزّندقة في هذا العصر على أيدي الشعراء المجّان الذين كان أغلبهم من أصل فارسي :كحماد عجرد وبشار بن برد وأبي نواس وعمر الخاركي وغيرهم...ولم تظهر الزندقة في العرب إلاّ نادرا ،وأكثرهم كانوا مجّانا ،أو اتهموا بها لغرض سياسي.[3]

وهذا عمر الخاركي يعلن زندقته في شعره فيقول:

إنْ كنـــتُ أرجـــوكَ إلـــى ســـلوةٍ فطـــال فـــي حـــبس الضَّـــنَى لبثِـــي

وعشـــتُ كـــالمَغرُورِ فـــي دينـــهِ يُـــوقِنُ بعـــد المـــوتِ بالبَعـــثِ[4]

ويقول أبو نواس في إحدى قصائده:

يـــا نـــاظرا فـــي الـــدّين مـــا الأمـــرُ لا قـــــدرَ صـــــح ولا جبـــــرُ

مـــا صـــح عنـــدي مـــن جميـــع الـــذي تـــــذكر إلاّ المـــــوت والقبـــــرُ[5]

نستنتج مما سبق الأثر الواضح الذي خلّفته الحياة الماجنة على الشّعر العباسي،حيث لم يكتف الشعراء بالتّحدث عن المُحرّمات كشرب الخمر والغزل الماجن

---

[1]- ديوانه: ج4: 372

[2]-ينظر:التيارات الأجنبية في الشعر العربي،عثمان موافي:292 وما بعدها.

[3]-ينظر:ضحى الإسلام،أحمد أمين:152،151.

[4]-الورقة،أبو عبد الله محمد بن داود بن الجراح،تحقيق:عبد الوهاب غرام وعبد الستار أحمد فراج،ط3،دار المعارف،القاهرة،2009 :59

[5]-أخبار أبي نواس،أبي هفان عبد الله المهزمي،تحقيق:عبد الستار أحمد فراج،دط،دار مصر،دت:37

والغزل بالمذكّر وإنّما نجدهم يدعون إليها ويشجعون على الانغماس فيها ،ولم تسلَم الأغراض الشعرية الأخرى من التّأثر بما أصاب المجتمع العباسي من مجون ،فلو اطلعنا على فنّ الهجاء لوجدناه ينظم بأقذع الألفاظ وأفحش العبارات ،ثم لم يلبث الشعراء أن يجددوا في قصائد المدح ،وهم لا يجدون مانعا من افتتاحها بمقدمة خمرية وأحيانا تغزلا بالمذكر ،وفي كل الأحوال كانوا يرتكبون كبائر المعاصي ولا يستحون للنظم فيها ،حتى إنّ بعضهم لم يتردد في الجهر بزندقته كما جهر بمجونه. ولقد ترك هذا الجانب انطباعا سيئا في الشّعر العباسي الذي امتلأت صفحاته بهذه المظاهر التي نشأت في ظلّ الحياة الجديدة.

أثر الشعوبية على الشّعر العباسي:

لقد اقتضى التطوّر الحضاري وما صاحبه من امتزاج جنسي وثقافي بين العرب وغيرهم من الأمم الأجنبية تركيبة اجتماعية جديدة تصارعت عناصرها الأعجمية مع العنصر العربي ولاسيّما الفارسي منها ،وانعكست آثار هذه الخصومات في الشّعر العباسي بأشكال مختلفة ،وكان العجم أكثر تعصبا وإسهاما فيها ،حيث حاولوا قدر إمكانهم الحطّ من شأن العرب بانتقادهم في كلّ ما نبغوا فيه من البلاغة وقوة الخطابة وحضور البديهة ،كما سخَروا من بداوتهم وبدائيتهم في التجهيز للحروب من ناحية الآلات المستخدمة والخيول العارية وقلّة خبرتهم في تنظيم الجيش ،كما اتخذت الشعوبية شكلا آخر تمثَّل في التأليف في مناقب العجم ،وترى المؤلفات الأعجمية تتحدث في هذا العصر عن فضل العجم على العرب مثلما فعل ذلك البختكان وغيره.[1]

[1]-ينظر:ضحى الإسلام ،أحمد أمين:الجزء1: 66-70

وقد لقى الشّعر إقبالا كبيرا من الشعراء الذين تشبّعت روحهم ومشاعرهم بالعصبية فقاموا بشنّ حروب عنيفة على العرب ،وعلى رأسهم بشار بن برد الذي أخذ يقارن بين بدواة العرب وحضارة آبائه[1] ،والذي يقول في إحدى قصائده:

أَحِينَ لبستَ بعد العُرْي خزّاً ... ونادمت الكرامَ على العُقارِ
تُفَاخِرْ يا ابن راعيةٍ وراعٍ ... بني الأحرار حسبك من خسارِ
وكنت إذا ضممئت إلى قراحٍ ... شركتَ الكلبَ في ذاك الإطارِ[2]

والحكم نفسه ينطبق على أبي نواس الذي يرجّح أنّ شعوبيته لم تكن بسبب احتقاره وكرهه للعرب وإنما "ترجع إلى شغفه بالخمر وعكوفه على المجون ،وإعجابه بالحضارات الأجنبية ،فهي شعوبية ناشئة عن الاستمتاع بالملذات ،وكان يبتغيها ما وجد إليها سبيلا ،ويجعلها غاية من غايات حياته ،وقد مضى يصوّر ذلك بدعوته إلى الانصراف عن الحياة المتبذّية الخشنة وما يتصل بها من بكاء على الأطلال والوقوف برسوم الدّيار ،إلى الحياة الناعمة المترفة وما يتصل بها من نشوة بالخمر والغلو في الشراب والإغراق في الملذّات ."[3] ويتضح هذا جليا من خلال قصائده التي يقول في إحداها:

دَعِ الأَطلالَ تَنسِفها الجَنوبُ ... وَتُبلي عَهدَ جِدَّتِها الخُطوبُ
وَخَلِّ لِراكِبِ الوَجناءِ أَرضاً ... تَخُبُّ بِها النَجيبَةُ وَالنَجيبُ
بِلادٌ نَبتُها عُشَرٌ وَطَلحٌ ... وَأَكثَرُ صَيدِها ضَبعٌ وَذيبُ
وَلا تَأخُذ عَنِ الأَعرابِ لَهواً ... وَلا عَيشاً فَعَيشُهُم جَديبُ
دَعِ الأَلبانَ يَشرَبُها رِجالٌ ... رَقيقُ العَيشِ عندهم خصيبُ
إِذا رابَ الحَليبُ فَبُل عَلَيهِ ... وَلا تُحرَج فَما في ذاكَ حوبُ

[1]-ينظر:تاريخ الأدب العربي،العصر العباسي الأول،شوقي ضيف:78
[2]- ديوانه:ج3 :230،231
[3]-تاريخ الأدب العربي،العصر العباسي الأول،شوقي ضيف:78

فَأَطيَـــبُ مِنـــهُ صـــافِيَةٌ شَـــمولٌ يَطـــوفُ بِكَأسِـــها ســـاقٍ أَديـــبُ[1]

ولقد كان يلتمس الشعراء أحيانا مبررات تأخذ شكل الدّفاع عن النّفس مثلما فعل ذلك أبو يعقوب الخريمي ،وهو على الأرجح كان من دعاة التّسوية .[2]يقول في إحدى قصائده:

أب الصـغد بـأسٌ إذ تعيّرنـي جُمـل سَـفاهاً ومـن أَخـلاق جارتنـا البخـلُ
وما ضرنِي أن لم تلِدني يحابر ولم تشْتمِلْ جرم علي ولا عكْلُ
ودون الندى في كلِّ قلبٍ ثنِيةٌ لها مصعد حزن ومنْحدر سهلُ
وود الَفَتى في كل نيل ينيلُه إذا ما انقضى لو أن نائَله جزل
وأعلم علماً ليس بالظَّن أنه لكلِّ أُناسٍ من ضرائبهم شكْلُ[3]

ويشير عبد الستار الجواري إلى عامل آخر أسهم في انتشارها في قوله:"ولقد أدّى إلى اتساع الشعوبية وتقويتها وذيوعها وانتشار تأثيرها في الحياة الاجتماعية والأدبية ،تغلغل النفوذ الفارسي والأعجمي في الحياة العباسية ،يمثله أوضح تمثيل نفوذ الأسرة البرمكية التي بدأ شأنها في الارتفاع أيام الخليفة محمد المهدي ،وبلغ أمرها ذروته في زمن هارون الرشيد ،فجمعت حولها الشعراء وأغدقت عليهم الأموال ،فصار الشّعراء يمدحون رجالها مدحا مجيدا ويضعونهم في مصاف الخلفاء ."[4] ومن الأمثلة على ذلك قول نصيب الأصغر(ت:175) في إحدى قصائده :

عِنـــدَ المُلـــوكِ مَضَـــرَّةٌ وَمَنـــافِعُ وَأَرى البَرامِـــكَ لا تَضُـــرُّ وَتَنفَـــعُ
إِنَّ العُـروقَ إِذا اِستَسَـرَّ بهـا الثَـرى أَشـر النَبـاتُ بِهـا وَطـابَ المَـزرَعُ

[1]- ديوانه ،ج3 :43
[2]-ينظر:الشعر والشعراء في العصر العباسي،مصطفى الشكعةط6،دار العلم للملايين،بيروت،1986 :175،تاريخ الأدب العربي،العصر العباسي الأول،شوقي ضيف:78
[3]- زهر الآداب وثمر الألباب،الحصري تقديم:صلاح الدّين الهواري، ج4،ط1،المكتبة العصرية،بيروت،2001، :260
[4]-الشعر في بغداد:145.

فـإذا أنكـرت مِـن اِمـرِئٍ أَعراقَـهُ وَقَديمَـهُ فَـاِنظُر إِلـى مـا يَصـنَعُ[1]

ولقد قابل بعض الشعراء العرب تذمّرهم من العنصر الأجنبي مثلما يظهر ذلك جليا في قول المتنبي:

وإنّمـــا النّـــاس بـــالملوكِ ،ومـــا تُفلـــحُ عُـــرْبٌ ملوكُهـــا عجـــمُ
لا أدبٌ عنـــــدهم ولا حســـــبٌ ولا عهـــــودٌ لهـــــم ولا ذمـــــمُ
بكـــــل أرضٍ وَطِئتُهـــــا أمـــــمٌ تُرعـــــى بعبـــــدٍ كأنهـــــا غـــــنمُ
يستخشـــنُ الحـــزّ حـــين يلْمُسُـــه وكـــان يبـــرى بظفـــره القلـــم[2]

نستنتج مما سبق أنّ الشعوبية خلّفت أثرا واضحا على الشّعر العباسي ،وما ينبغي أن نلتفت إليه في هذا المقام هو دعوة بعض الشّعراء إلى التّجديد في المحتوى الشعري القديم مثلما فعل ذلك أبو نواس ،وهذا الانتقاد يبدو بنّاءً لأنّه يسعى للمواكبة بين الشّعر العربي والتطور الحضاري الذي أصاب البيئة العباسية ،أما الشعراء الذين حاولوا الحطّ من شأن العرب وكان نتيجة لاستشعارهم بالإهانة كونهم كانوا أصحاب حضارات عظيمة أصبحت تابعة للحضارة العربية التي لم تكن تعي من الحضارة شيئا،أو نتيجة لحقد قديم على المهانة والذّل اللذين لقوهما من قِبل العرب في العصر الأموي ،أما المبالغة في مدح أصحاب السلطة من الأعاجم ربما يعود سببه إلى إنفاقهم على الشّعراء الذين كانوا يُجِدُّون في مدحهم ،لأنّ هذه الظاهرة كانت منتشرة بكثرة في البيئة العباسية. ومهما اختلفت الأسباب في انتشار هذه النَّزعة في الشّعر العباسي ،إلّا أننا لا ننكر مشاركتها في تطوّر معاني الشّعر والإسهام في دفعه قدما نحو الواقع الحضاري الجديد.

أثر حركة الزهد على الشّعر العباسي:

[1]-الأغاني: الجزء 23 :31
[2]- ديوانه ،دط،دار بيروت،بيروت،دت:93

إذا كان شعراء المجون قد رفعوا راية اللّهو عاليا وتوسّعوا في النّظم فيها ،فإنّ شعراء الزّهد قد سعوا جاهدين إلى مقاومتها ودعوة الناس للعودة إلى الطّريق السّوي،وفي هذا الصدّد يذكر شوقي ضيف :"وقد انتشر في هذا العصر شِعر الزهد،وكان أكثر اتصالا بحياة الجماهير من شِعر الخمر والمجون ،فإنّها لم تكن تعرف ترفا ولا يشبه الترف ،وكانت تعيش حياة دينية مستقيمة يشيع في بعض جوانبها النّسك والعبادة ،وإذا كان كتاب الأغاني يفيض بالمجون فإنّ كتب الطبقات التي ترجمت للفقهاء والمُحَدِّثين تفيض بأخبار العبّاد والزهّاد الذين رفضوا الدّنيا وشهواتها وملاذها وآثروا ما يبقى على ما يفنى ممسكين أيديهم عن أخذ عطاء أو مال من خليفة أو وال."[1] ولقد اشتهر في هذا الفنّ ثلة من الشعراء على رأسهم أبو العتاهية الذي يقول في إحدى قصائده داعيا من خلالها إلى ترك الدنيا والابتعاد عن الشهوات:

تَصَـبَّرْ عـن الـدُّنيا،ودَعْ كـل تائـهٍ مطيـعِ هَوى يهـوي بـه فـي المَهَامِـه
دعِ النَّـــاسِ والـــدّنيا،فبينَ مُكالِـــبٍ عليهـــا بأنيـــابٍ،وبَينَ مُشَـــافِه
ومـن لـم يحاسـبْ نفسَـهُ فـي أمـورِه، يقـــع فـــي عظـــيمٍ مشكِلٍ،مُتشـــابِه
ومـا فـازَ أهـلُ الفضـلِ إلاَّ بصـبرِهم عـــن الشـــهواتِ،واحتمالِ المكـــارِه[2]

وأغلب الشعراء الزهّاد الذين اشتهروا في العصر العباسي كانوا قد أشبعوا أنفسهم من ملذات الدّنيا ،وأبو العتاهية واحد منهم ،ولقد رجّح بعض الدارسين أنّ تغيير نمط حياته يرجع إلى إخفاقه في الحب ،ومهما يكن من أمر فقد ترك هذا الشاعر الموهوب ديوانا عظيما في هذا المجال ،ويشير مصطفى الشكعة إلى مختلف الصوّر التي تناولها في قوله :"لأبي العتاهية وسائل مختلفة وأساليب شتى في طرق باب الزهد ،فهو يدعو إلى ترك الدنيا وتحقيرها حينا ،ويدعو إلى التّقى وصالح الأعمال حينا آخر ،وبذكر

[1]-تاريخ الأدب العربي،العصر العباسي الأول180.
[2]- ديوانه ،تقديم:كرم البستاني،دط،دار بيروت،بيروت،1986 :463

الموت وملاحقته للخلق ويلّح في ذلك إلى الحدّ الذي يصد الناس فيه عن ترك أية متعة حتّى لو كانت حلالا ،ويقف على القبور ويناجيها حينا ويسائل ساكنيها آونة أخرى،ويقرن الدنيا بالآخرة ،أو بالأحرى بين الحياة والموت ،ثم النشور والحساب والثواب والعقاب ،ويرجو الثواب ويخشى العقاب ،وفي مواقف أخرى يظهر الندم ويبدي الضراعة ،ويطمع في الغفران."[1]

كما ترك صالح بن عبد القدوس ديوانا عظيما في هذا المجال ،يقول فيه ابن المعتز:"أما الرجل فله في الزهد في الدنيا ،والترغيب في الجنة ،والحثّ على طاعة الله عز وجل والأمر بمحاسن الأخلاق ،وذكر الموت والقبر ما ليس لأحد ."[2]يقول في إحدى قصائده داعيا للإيمان:

فو حق من سمك السماء بقدرة والأرض صيّر للعباد مهادا
إنّ المصّر على الذنوب لهالك صدقت قولي أو أردت عنادا[3]

وفي قصيدة أخرى يقول :

تأوبني هم فبتُّ أخاطبه وبت أراعي النجم ثمّ أراقبه
لما رابني من ريب دهرٍ أضرني فأنيابه يبرينني ومخالبه
وأسهرني طول التفكير،إنني عجيب لدهر ما تقضي عجائبه
أرى عاجزاً يدعى جليداً لغشمه ولو كلف التقوى لفلت مضاربه
وعفّا يسمى عاجزاً لعفافه ولو لا التقى ما أعجزته مذاهبه[4]

[1]-الشعر والشعراء في العصر العباسي:216.
[2]-طبقات الشعراء:47
[3]-المصدر السابق:48
[4]-المصدر نفسه:47

يتحدث الشاعر في هذه الأبيات عن الليالي التي سهرها متأملا في عجائب الدنيا وغرائبها ،فيتعجب من الجّاهل الذي يرونه الناس ناجحا ،في حين يجدون في العفّ عجزا وخفوقا.

ولقد جاء شِعر محمود بن الحسين الوراق (ت:225هـ) كثورة على الفساد والانحراف اللذين انتشارا في البيئة العباسية ،يقول في إحدى قصائده:

أَرانـــي إِذا مـــا اِزدَدتُ مـــالاً وَثَـــروَةً ... وَخَيـراً إِلـى خَيـر تَزَيَّـدتُ فـي الشَـرّ
فَكَيـفَ بِشُـكرِ اللهِ إِن كُنـتُ إِنَّمـا ... أَقـــومُ مَقـــامَ الشُـــكرِ لِلهِ بِـــالكُفرِ
بِـــأَيّ اِعتِـــذارٍ أَو بِأَيَّـــةِ حُجَّـــةٍ ... يَقولُ الَّذي يَدري مِنَ الأَمرِ ما أَدري
إِذا كـانَ وَجـهُ العُـذرِ لَـيسَ بِبَـيِّنٍ ... فَإِنَّ اِطِّراحَ العُذرِ خَيرٌ مِنَ العُذرِ[1]

ونحن حينما نطالع قصائد أبا نواس تستوقفنا أكثر من محطة تبدو نزعة الزهد جلية فيها ،وعلى الأرجح أنه كان يقلع فترة عن مجونه ثمّ يعود إليه إلى أن أقعده المرض واقتصر نظمه على فنّ الزهد.[2]يقول في إحدى قصائده:

يـــا ســـائلَ اللهِ فُـــزتَ بـــالظَفَرِ ... وبـــالنوالِ الهَنـــيءِ لا الكَـــدِرِ
فارغـــبْ إلـــى الله لا إلـــى بشـــرٍ ... منتقِـــلٍ فـــي البِلَـــى وفـــي الغِيـــرِ
وارغَـــبْ إلـــى الله لا إلـــى جَســـدٍ ... منتقـــلٍ مـــنْ صِـــبَى إلـــى كِبَـــرِ
إن الـــــذي لا يخيـــــب ســـــائلُه ... جَـــوهرُه غيـــرُ جَـــوهَرِ البَشَـــرِ
مـــا لـــك بالتُرَّهَـــاتِ مشـــتغلاً ... أفـــي يـــديكَ الأمـــانُ مـــن سـقرِ؟[3]

يبدو أن أبا نواس يخاطب نفسه ويأمرها بالتّوبة والزّهد ،فيؤكد على ضرورة اللّجوء إلى الخالق الأزلي المجيب للدعاء بدلا من اللّجوء إلى المخلوق الفاني.

---

[1]-زهر الآداب وثمار الألباب،الحصري،ج1: 136.
[2]-ينظر:الشعر والشعراء في العصر العباسي،مصطفى الشكعة:210
[3]- ديوانه ،ج2 :167

عموما ،يعد الزهد من الأغراض الجديدة التي اقتضتها الحياة الحضارية ،وقد جاء لأسباب متعددة ،نجده عند بعض الشعراء تعبيرا غير مباشر عن حرمان الشاعر وبعده عن الترف والثراء ،وأحيانا أخرى ندما وتوبة عما اقترفه الشاعر من محرّمات ،وقد يكون عند البعض الآخر تحقيرا للحياة الماجنة دون الانغماس فيها ،وهو في النهاية غرض شعري شأنه شأن الأغراض الشعرية الأخرى التي تصب في الوعاء الذي شكلته الحياة الجديدة.

3- تمثل الأدب العباسي للحياة الفكرية

لقد شارك الكثير من الأدباء في النهضة الفكرية التي شهدتها الحضارة العباسية ومثّلوها أحسن تمثيل باعتبارهم الطّبقة المثقّفة في المجتمع ،ويظهر ذلك جليا في مؤلفاتهم الأدبية شعرا ونثرا ،بعدما ارتوت نفوسهم وتغذَّت عقولهم بالقوت الذي لا يفنى. ولقد أسهم كلّ عنصر من عناصر هذه النهضة في دفع الأدب للتعبير عمّا كان سائدا في هذه البيئة التي احتضنت الأجناس الأجنبية المختلفة التي كان لرصيدها الثقافي حضور ملحوظ في الأدب العباسي ،فضلا عن الثقافة الإسلامية التي كانت المنبع الذي تصب فيه مختلف المعارف لتنبثق منه مرة أخرى كما انعكس ذلك على علم الكلام والزّهد وغير ذلك من الفروع المعرفية.

1-أثر الثقافات الأجنبية على الأدب العباسي:

بلغ الامتزاج الجنسي والثقافي بين العرب وغيرهم من الشعوب الأجنبية مرحلة متقدّمة جدّا في العصر العباسي ،ولا يخفى أنّ هذه الثقافات الوافدة كانت مصدرا من أهم المصادر التي كان لها الدّور البارز في النهضة العلمية التي شهدتها الحضارة العباسية ،فكان من الطبيعي أن يكون للأدب النصيب الأوفر من كل هذا ،ولكن تجدر الإشارة إلى أنّ الأدب العباسي تأثّر بالثقافات الأجنبية ولم يتأثّر بآدابها إلاّ نادرا ،ويؤكد ذلك طه حسين في قوله :"إنّ الأمة العربية لم تعرف من آداب الأمم الأخرى شيئا يذكر،ولم تخالط هذه الأمم الأجنبية من الوجهة الأدبية والعقلية إلاّ مخالطة ضيّقة جدا،فلم تعرف من آثارها إلاّ شيئا من العلم والفلسفة ،ونتفا من الحكم والأمثال ،فجهلت الأمة العربية جهلا تاما ،أو جهلا يوشك أن يكون تاما ،آداب الأمم اليونانية مع أنّها قد أخذت من علم اليونان ،وفلسفتهم بالنصيب الموفور ،ولم تكن تأخذ عن الفرس إلاّ الحضارة المادية ،وروايات مشوهة في الحكم والأمثال ،وسياسة الملوك ،ولم تكن تعلم من أمر الهند إلاّ شيئا من النجوم ،وقليلا من المواعظ والوصايا."[1]

ولقد اهتم المسلمون بترجمة الكتب الأجنبية للاستفادة من علومها ومعارفها المتنوّعة ،ومن الكتب التي ذكرها ابن النديم :كتاب زاد الفروخ في تأديب ولده ،وكتاب الموبدان موبد في الحكم والجوامع والآداب ،وكتاب شاناق الهندي في الآداب والأمثال على مذاهب الفرس والروم والعرب.[2]ويرجَّح أنّ هذه الكتب ترجمت في أواخر القرن الأول الهجري حتّى اطلع عليها كثير من شعراء القرن الثاني الهجري حيث اقتبسوا منها الكثير من الحكم والآداب كما اقتبسوا من الكتب التي ترجمت فيما بعد ككليلة ودمنة والأدب الكبير والأدب الصغير...[3]

[1]-في تاريخ الأدب العربي:49.
[2]-ينظر:الفهرست،ابن النديم،تحقيق رضا تجدد،طهران،1971 :377.
[3]-ينظر:اتجاهات الشعر العربي في القرن الثالث هجري،مصطفى هدارة:447.

ويعدّ علم الكلام من أكثر العلوم التي نهلت من التّيارات الثّقافية الأجنبية ولاسيّما بيئة المعتزلة التي نوَّعت في رصيدها المعرفي بالأخذ من كلّ ثقافة بنصيب ،وخاصة الفلسفة اليونانية التي أخذت منها الكثير من المعارف والأفكار ،وليس هذا فحسب بل حتّى طرق الجدل والحوار والتّحليل والاستنباط حتّى تدعِّم فرقتها بالأدلّة والبراهين على أكمل وجه.[1]

ويظهر تأثير هذا الامتزاج جليّا في جوانب متعددة من الشّعر ،وخصوصا في معجمه الذي احتضن العديد من الألفاظ الجديدة التي جاءت بها الشعوب الأجنبية ،وقد أشار الجرجاني إلى ذلك في قوله :"إنّ المحدثين قد اتسعوا فيه حتّى جاوزوا الحدّ لمّا احتاجوا إلى الإفهام ،وكانت تلك الألفاظ أغلب على أهل زمانهم وأقرب من أفهام من يقصدون ،وقد أفرط أبو نواس حتّى استعمل زنمرده ،ويازبنده ،وباريكنده ألخ."[2] وسنتطرق إلى هذا الجانب بالتمثيل والتفصيل فيما سيأتي.

أما تأثير الثقافات الأجنبية فقد بدا تأثيرها جليّا في أسلوب الشّعر الذي مال إلى البساطة والسهولة حتّى يكون في متناول الأعاجم الذين لم يكونوا يفهمونه أو يتذوقونه.[3] ثمّ يضيف عبد الستار الجواري عما سلف فيقول :"ولقد كان من آثار الأعاجم في حياة الشّعر أنّ تغير معيار الشاعر واختلف تقويمه ،فأصبحت خفة الطّبع ،وقرب المأخذ،وسهولة الأسلوب ،هي الأمور التي بها يقاس تجويد الشاعر وتقدمه ،وبها يحظى عند الأمراء ورجال الدولة من الأعاجم خاصة."[4] ثمّ إنّ الكثير من الشعراء

---

[1]-ينظر:تاريخ الأدب العربي،العصر العباسي الأول،شوقي ضيف:151.

[2]-الوساطة بين المتنبي وخصومه،أبو الحسن الجرجاني،محمد أبو الفضل ابراهيم،علي محمد البجاوي،ط1،المكتبة العصرية،بيروت،2006 :383،382.

[3]-ينظر:الشعر في بغداد،أحمد عبد الستار الجواري:223

[4]-المرجع نفسه:ن ص

العباسيين قد اهتموا بالمعنى والخيال أكثر من اهتمامهم باللفظ بعدما اتسعت مداركهم وعمقت أفكارهم ،وكان أغلبهم من أصل فارسي كبشار وأبي العتاهية وأبي نواس.[1]

وتجدر الإشارة إلى أنّ آثار الثقافات الأجنبية على الأدب العباسي لم تكن إيجابية في معظمها ولاسيّما من الناحية اللغوية ،وهذا ما أكد عليه عبد المنعم خفاجي في قوله :"إنهم لم يسلموا من العيب ،فقد نعى عليهم العلماء أمورا ترجع إلى اللّحن في الإعراب والخروج على أوضاع اللّغة ،وأنهم يسهلون كلامهم حتّى يصيروا به إلى الساقط السوقي ،وأنّ لهم معاني غامضة متناقضة واستعارات بعيدة أو سخيفة...وإنّ فرط شغفهم بالبديع دعاهم إلى استهلاك المعنى وإلى أن يصير الكلام ضربا من الخداع والتزويق لا تأدية للمراد ،وأنّهم قد تدعوهم شهوة الإغراب إلى التشبيه بالأعراب،فيخلطون بكلامهم الرقيق العذب وأسلوبهم السّهل الممتنع الألفاظ الغريبة."[2]

أ-أثر الثقافة الفارسية على الأدب العباسي:

لقد انتشرت الثّقافة الفارسية في البيئة العباسية انتشارا واسعا ،ممّا جعلها محطّة اهتمام لكثير من الأدباء والشّعراء الذين تميّزت أعمالهم الأدبية بالكثير من الطّباع الأجنبية التي لم يكن للعرب عهد بها. وفي هذا الصدّد ذكر أحمد أمين :"هناك قوم أتقنوا اللّغة الفارسية والعربية معا ،فعكفوا على قراءة الكتب الفارسية يتثقفون بها،ويرقون أفكارهم وعقولهم ،ثم يخرجون باللّغة العربية أدبا وشعرا وعلما ،وليس ما يخرجونه نقلا تاما لكلام فارسي ،ولكنه منبعث عنه ومتولد منه."[3] ثمّ إنّ شغفهم انصب على المعاني

[1]-ينظر:صراع الحضارات وأثره: في الشعر العربي في العصر العباسي الأول(القرن الثاني الهجري)،أحمد عبد القادر محمود عقل،إشراف:محمد محمود قاسم نوفل،جامعة النجاح الوطنية في نابلس،فلسطين،2003 :122.

[2]-الآداب العربية في العصر العباسي الأول:73.

[3]-ضحى الإسلام:179/1.

والحكم ،ومن طريف ما يذكر في هذا المقام ردّ العتابي على أحدهم حينما سأله عن سبب نسخه كتب العجم فقال :اللّغة لنا والمعاني لهم.[1]

وكان من نتائج التّواصل الحضاري بين العرب والفرس التّبادل اللّغوي بين الأمتين ،ويؤكد الدارسون أنّ :"اللّغة العربية لم تتأثر بلغة أجنبية قدر تأثرها بالفارسية."[2] وفي الشّعر العباسي إشارة واضحة إلى ما سبق ،كما يتضح ذلك في شِعر أبي نواس:

حتى إذا اصطفق الأقداح وانتطحت بيض القواقيز من أعناق "كيزان"[3]

ويقول أبو تمام في مدح الخليفة المأمون:

في كلِّ جوهرة فرنْدٌ مُشرقٌ وهم "الفِرنْدُ" لهؤلاء النّاس[4]

وأبرز أحمد أمين اقتباس اللّغة العربية للعديد من الألفاظ الفارسية في قوله :"إنّ العرب كانوا أشدّ شعورا بأسباب الحضارة في العصر العباسي ،فكانوا أشدّ احتياجا للاقتباس من الفرس ،ولأنّ اللّغة العربية لم تعد ملكا للعرب وحدهم ،بل كانت ملكا للعالم الإسلامي جميعا."[5] فالعرب إثر اصطدامهم بالواقع الحضاري الجديد وجدوا أنفسهم بحاجة إلى ألفاظ ومصطلحات جديدة من شأنها أن تغني لغتهم حتّى تتمكن من مواكبة كل جديد طرأ على الحياة العربية فأخذوا العديد منها عن الفرس لأنّهم كانوا الأشد احتكاكا وقربا منهم.

---

[1]-ينظر:كتاب بغداد ،طيفور،تحقيق:عزت العطار الحسيني،ط3،مكتبة الخانجي،القاهرة،2002: 87

[2]-اللّغة الفارسية،محمد نور الدّين عبد المنعم،دط،دار المعارف،مصر،دت:44.

[3]- ديوانه ،ج3 :321. الكيزان كلمة فارسية وتعني قوارير نفيسة من بلاد العجم

[4]-شرح ديوان أبي تمام،الخطيب التبريزي،تقديم:راجي الأسمر،ج1،ط2،دار الكتاب العربي،1994 : 360 الفرند:كلمة فارسية وأصل معناها:جوهر السيف وطريقه وماؤه.

[5]-ضحى الإسلام:175/1

ولم تسلم حتّى الفنون العريقة في البداوة من هذا الأثر[1] ،فقد قال عماني الراجز يمدح الرشيد:

لمـــا الهَـوى بـــين غِيَـــاضِ الأُسْـــدِ وصـــار فـــي كـــفِّ الهِزَبْـــر الـــوَرْدِ

آلى يــذوق الدَّهــر "آبِ ســَـرْدِ"[2]

كما نجد الشعراء يهتمون بالحكم والأمثال الفارسية فيقتبسونها لينمّقوا بها أشعارهم ولتزيد من قوة المعنى المراد إليه ،ومن الأمثلة على ذلك اقتباس الشاعر مثلا من أمثال بزرجمهر :"إذا أقبلت عليك الدنيا فأنفق فإنها لا تفنى ،وإذا أدبرت عنك فأنفق فإنها لا تبقى" في قوله:

فانفق إذا أنفقت إن كنت موسراً وأنفق على ما خيّلت حين تعسر

فلا الجود يفني المال والجّد مقبلٌ ولا البخل يبقي المال والجّد مدبر[3]

ولقد تفطن الدارسون إلى ظاهرة جديدة تعود إلى أصل فارسي شاعت في الشّعر العباسي ؛ولاسيّما في شِعر المولّدين وهي المبالغة والتّهويل ومجاوزة القصد ،يقول بشار بن برد في إحدى قصائده:

إذا الملـــكُ الجبـــارُ صـــعَّرَ خـــدّه مشـــينَا إليـــه بالســـيوفِ نُعَاتبُـــه

وجيشٍ كجنحِ اللَّيلِ يزْجُفُ بالحَصى وبالشَّـــوْلِ والخَطِّـــيِّ حُمْـــر ثَعَالِبُـــه

غَدَوْنا لـه والشَّـمس فـي خـدرِ أمِّهَـا تطالعُنـــا والطَّـــلُ لـــم يجْـــرِ ذَائبُـــه

كـــأن مثـــار النقـــع فـــوق رؤســـنا وأســـيافنا ليـــل تهـــوى كواكبـــه[4]

[1]-ينظر الشعر في بغداد،محمد عبد الستار الجواري:149

[2]-البيان والتبيين142/1،تحقيق عبد السلام هارون آب سرد:الماء البارد:نفس المرجع،ن ص

[3]-عيون الأخبار،ابن قتيبة الدينوري،ج3،دط،دار الكتاب العربي،لبنان،دت: 180،179.

[4]- ديوانه ،ج1: 334

ويرجَّح أنّ الخمريات والمجون والغزل بالمذكر كلّها أغراض قديمة في الشّعر الفارسي ،تأثر بها الشّعر العربي ،ويبرّر مصطفى هدارة هذا التأثر فيقول :"ليس من المعقول أن يُقدِم هؤلاء الشعراء على التعبير عن هذه الموضوعات لمجرّد أنّها بدأت تشيع في عصرهم استجابة للتأثير الفارسي في المجتمع ،فإنّهم لو فعلوا ذلك لصادفوا نفورا من الذّوق العام والعرف السائد ،ولكن وجود التّعبير عن هذه الموضوعات في الشّعر الفارسي القديم وقراءة الناس وعرفانهم به ،سهّل على الشعراء العرب الخوض في هذه الموضوعات دون حرج ،وبلا خوف من استنكار مجتمع."[1] وقد يكون هذا الاحتمال واردا بالرغم من نفي العديد من الدارسين فكرة تأثر الأدب العربي بالأدب الفارسي ،ولاسيّما إذا أخذنا بعين الاعتبار أنّ معظم الشعراء الذين برزوا في هذا المجال كانوا ذوي أصول فارسية كأبي نواس وبشار بن برد وغيرهما...

وتركت الثقافة الفارسية آثارا واضحة في الطّرديات ،فبالرغم من قدم هذا الفنّ إلاّ أنّه أصبح يجمع بين التقاليد العربية القديمة والمراسيم الفارسية الجديدة ،وأصبح يختص بالصّيد دون غيره ،ومن أشهر الشعراء في هذا المجال :أبو نواس وابن المعتز وعلي بن الجهم وغيرهم...[2]

وطبيعيّ أن يكون للنّثر الفنّي نصيبه من الثقافة الفارسية ولاسيّما في تأليف القصص ؛بعدما نُقلت العديد من الكتب الأدبية إلى اللّغة العربية ككليلة ودمنة وألف ليلة وليلة وغيرهما ،ومن مظاهر هذا التأثير أنّ الجهشياري ألَّف كتابا فيه ألف سمر من أسمار العرب والعجم والروم وغيرهم.[3] واهتم الأدباء بنقل الحكم والأخلاق والسلوك من الفارسية إلى اللّغة العربية ،فترجم ابن المقفع كتاب الأدب الكبير وكتاب الأدب

[1]-اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني هجري:94،93.
[2]-ينظر:في تاريخ الأدب العربي،طه حسين:50
[3]-الفهرست،ابن النديم:363

الصغير وكتاب خداينامه في سير ملوك الفرس ،وترجم أبان اللاحقي الرقاشي سيرة أردشير وسيرة أنوشروان...[1] وبفضل هذه المادّة الغنية التي عني المسلمون بنقلها إلى اللّغة العربية ارتقت الكتابة الديوانية وتطوّرت ،ويرجِّح شوقي ضيف أنّ هذا "ما جعل الجهشياري يقدم لكتابه الوزراء والكتاب بتمهيد واسع عرض فيه لتدوين الفرس للدواوين ونظمها المختلفة ،متحدثا في ثنايا ذلك عن كتب الأكاسرة إلى عمالهم ومقتبسا فصولا عن سابور إلى ابنه ومن كلام أردشير لوزرائه واستشارة سابور لوزير بن نابهين. وعرض الجهشياري لبعض رسائل أرسطو لإسكندر ولبعض وصايا الهند وحكمهم.وفي ذلك كله الدّلالة الواضحة على مدى ما كان يأخذ به الكاتب العباسي نفسه من ثقافة سياسية. وخاصة ما كتبه الفرس في وصاياهم وعهودهم."[2]

ولقد اشتهر مجموعة من الكتّاب في القرنين الثالث والرابع بالتكلّف في كتاباتهم على مستوى الألفاظ والمعاني ،وكان زعيمهم ابن العميد ،وتبعه آخرون كالصاحب بن عباد ،وأبي بكر الخوارزمي ،وبديع الزمان الهمذاني وغيرهم ،ثم جاء الحريري فيما بعد وأمعن في الصناعة إمعانا ،ثم إذا عدنا إلى العهود والرسائل التي كتبت في هذا العصر سنجد أغلبها تتّسم بالإسهاب مع الإكثار من ألقاب التعظيم والتفخيم ،ولاسيّما الرسائل التي اعتنى الكتّاب بمقدماتها وخواتمها وتكلّفوا في ألفاظها ومعانيها إلى أبعد الحدود.[3]

ونضُج في هذا العصر فنّ التوقيعات الذي يعود إلى أصل فارسي ،ونبغ فيه كثير من أعلام الكتّاب وفحول البُلَغاء ،وقد تحدّث عنه عبد المنعم خفاجي في قوله: "وكان الكُتّاب يتنافسون في إجادته ،ويتبارون في بلوغ أقصى الغاية فيه حتّى غلبت

[1]-ينظر:-تيارات ثقافية بين العرب والفرس،أحمد محمد الحوافي،ط3،دار النهضة المصرية،القاهرة،1978 :192
[2]-تاريخ الأدب العربي،العصر العباسي الأول،شوقي ضيف:467.
[3]-ينظر:المرجع السابق،أحمد محمد الحوافي:199،تاريخ الأدب العربي،أحمد حسين الزيات:213.

توقيعاتهم روعة الإيجاز ،وقوة التعبير ،وجمال التصوير ،وشدة التأثير ،ولطف الإشارة،وكانت توقيعاتهم أحيانا مثلا لحكمة أو آية من القرآن أو حديثا مأثورا عن رسول الله ،أو بيتا من الشِّعر."[1]

يتضح مما سبق الأثر الكبير الذي خلّفته الثقافة الفارسية على الأدب العباسي شعرا ونثرا ،ولاسيّما من خلال اقتباس الشعراء العديد من الألفاظ والحكم الفارسية،بالإضافة إلى تطوّر بعض الأغراض الشعرية كالخمريات والغزل الماجن والطّرديات ،واستحداث أخرى كالغزل بالمذكّر ،كما مال الشعراء إلى المبالغة والتهويل في الشّعر ،ومن وجهة أخرى فقد حاكى العرب الفرس في تأليف القصص ،وبفضل الكتب المتنوعة التي نقلت إلى العربية تطوّرت الكتابة الديوانية كذلك.

أثر الثقافة اليونانية على الأدب العباسي:

تعدّ الثّقافة اليونانية ثاني الرّوافد الأجنبية التي كان لها الدَّور البارز في الأدب العباسي شعرا ونثرا ،ولعلّ ما يلفت الانتباه في هذا المقام هو ضعف تأثير الأدب اليوناني مقارنة بالفروع المعرفية الأخرى كالفلسفة والرياضيات والطّب وغيرها ،وذلك مردّه إلى خاصية الوثنية التي تميّز بها الأدب اليوناني والتي لم تكن تليق بالذّوق الإسلامي الذي ارتقى من المادّية الوثنية إلى الروحية السامية.[2] وتجدر الإشارة إلى أنّ العرب كانوا على دراية بطريقة النّظم اليونانية ،وهذا ما يتضح جليا من خلال مقارنة الجاحظ بين شِعر العرب وشعر الإفرنج :"والدليل على أنّ العرب أنطق ،وأنّ لغتها أوسع ،وأنّ لفظها أدلّ ،وأنّ أقسام تأليف كلامها أكثر ،والأمثال التي ضربت أجود وأيسر. والدليل على أنّ البديهة مقصورة عليها ،وأنّ الارتجال والاقتضاب خاص

[1]-الآداب العربية في العصر العباسي الأول:41

[2]-ينظر:ضحى الإسلام،أحمد أمين:281/1،280.

فيها،وما الفرق بين أشعارهم وبين الكلام الذي تسميه الروم والفرس شعرا ،وكيف صار النسيب في أشعارهم ،وفي كلامهم الذي أدخلوه في غنائمهم ،وفي ألحانهم إنّما يقال على ألسنة نسائهم ،وهذا لا يصاب في العرب إلاّ القليل اليسير. وكيف العرب تقطع الألحان الموزونة على الأشعار الموزونة ،فتضع موزونا على موزون ،والعجم تمطط الألفاظ ،فتقبض وتبسط حتّى تدخل في وزن اللّحن ،فتضع موزونا على غير موزون."[1] وبحكم نقلهم للفلسفة اليونانية فمن المؤكَّد أنهم اطلعوا على الفنون الكبرى في الأدب اليوناني التي تضمنَّها كتاب أرسطو ومع ذلك لم ينقلها العرب إلى أدبهم[2] ،وهذا ما يدلّ على أنّ العرب لم يتأثروا بالأدب اليوناني ليس لجهلهم به وإنّما وجدوه لا يتلاءم مع حياتهم الاجتماعية ومع الأسس الأصيلة للأدب العربي.

ويتجلّى الأثر اليوناني في اللّغة العربية من خلال تسرّب الكثير من الألفاظ ولاسيّما التي كانت تطلق على الأشياء التي لم يكن للعرب عهد بها كالبرجد[3] والزبرجد والزّمرّد والياقوت ،ومقاييس أو موازين رومانية ،أو أسماء طبية أو نباتية وغير ذلك...[4]وبحكم اهتمام العرب بنقل كتب الفلسفة إلى اللّغة العربية ،فإنّ تأثيرها بدى واضحا في الشّعر العباسي الذي تسربت إليه هذه الآثار الفلسفية ،ومن الأمثلة على ذلك قول أبو العتاهية في اعتبار الدنيا وعواقبها:

إذا المـــرءُ كانـــتْ لـــهُ فِـــكرَه، فـــفِي كـــلِّ شـــيءٍ لـــه عِبـــرَه
وكـلّ الأمـــورِ لـــها "جَـــوهرٌ"، تُكَشّـــفُ عـن مكْنُونـــها الخِبـــرَه[5]

[1]-البيان والتبيين1/385،384،تحقيق:عبد السلام هارون.
[2]-ينظر:تاريخ الشعر العربي حتّى نهاية القرن الثالث هجري،نجيب البهبيتي:246.
[3]-البرجد:كساء غليظ مخطط
[4]-ينظر:ضحى الإسلام،أحمد أمين:281/1.
[5]- ديوانه:204 ،جوهر:مصطلح فلسفي جاء من تقسيم فلاسفة الوجود إلى جوهر وعرض،فالجوهر هو الوجود الثابت الذي لا يقبل التغير.

ونجد أبا العتاهية يستخدم مصطلحي الشّك واليقين في قوله:

إيّـاك مـن كـذِبِ الكَـذوبِ وإفكِـه فلربمـــا مـــزجَ اليقـــينَ بِشَـــكِّه
ولربمـــا ضـــحِكَ الكـــذوبُ تكلفًـــا وبكـى مـن الشـيء الـذي لـم يُبْكِـه[1]

ولم يقتصر تأثير الثقافة اليونانية في الشّعر على استعمال المصطلحات الفلسفية فحسب ،وإنما توغل أثرها إلى معانيه وأصبح يصاغ صياغة فلسفية ،فنجده يستند إلى التدليل المنطقي تارة وإلى الحوار العقلي تارة أخرى[2] ،بالإضافة إلى اقتباسه العديد من الأفكار والنظريات الفلسفية كقول أبي نواس متغزلا بجنان:

وذات خـــــــدٍّ مـــــــــورد قوهـــــــــيةِ المُـــــــــتجرِدْ
تأمّـــــــل العـــــــينُ منهـــا محـــــــاسنًا لـــيس تَنْـــفَد
الحُسْـــــنُ فـــي كـــلِّ جـــــزءٍ منـــــــها مُعـــــــادٌ مُـــرَدَّدْ
فبعـــــــضُه فـــــي انـــتهاءٍ وبعـــــــضُه يتـــــــولّد[3]

نلاحظ أنّ الشاعر استند إلى فكرة التولّد الفلسفية في البيت الأخير والتي تثبت أنّ الفّعل يمكن أن ينشأ عن فعل آخر دون قصد.[4]

ولقد تميّز شِعر ابن الرومي بخاصية التناقض والتي يرجَّح أنّها ناتجة عن تأثره بالفلسفة اليونانية ،وفي هذا المقام يقول عثمان موافي :"لقد اشتهر السفسطائيون بالعناية في إقامة الدليل ،وبلغوا من العناية به أنّهم ربما أقاموا الدّليل على صحة الشيء وصحة نقيضه ،وقد انتقلت فلسفتهم إلى الفكر العربي من خلال المنطق

[1]- ديوانه:317
[2]-ينظر:التيارات الأجنبية في الشعر العربي منذ العصر العباسي حتّى نهاية القرن الثالث هجري،عثمان موافي:366 وما بعدها
[3]- ديوانه ،ج4: 41
[4]-ينظر:تاريخ الأدب العربي في العصر العباسي الأول،شوقي ضيف:155.

الأرسطي،وكان ابن الرومي على علم بهذا المنطق وبطرقه في الاستدلال ،كما كان شديد الولع به وبالفلسفة اليونانية ،وليس أدل على هذا من أنه كان يكتب بعض قصائده على هدى من هذه الفلسفة ومن هذا المنطق."[1]

وتأثّر مجموعة من الشعراء بمراثي فلاسفة اليونان التي ترجمها الإسكندر المقدوني وعلى رأسهم أبو العتاهية الذي نقل بعضها إلى مراثيه في صديقه علي بن ثابت ،من ذلك أنّ أحدهم وقف عند رأسه وقال :سكنت حركة الملك في لذاته ،وقد حركنا اليوم في سكونه جزعا لفقده ،فأخذ أبو العتاهية هذا المعنى وقال[2]:

يـــا علـــيّ بـــن ثابـــتٍ بـــانَ مِنّـــي صـــاحبٌ ،جـــلَّ فقْـــدُهُ يـــومَ بِنْتَـــا
قد لَعمري ،حكيتَ لي غُصَصَ المو تِ ،فحركَتنِـــي لهـــا ،وسَـــكنَتَا[3]

هذا وقد اهتم المسلمون بنقل العديد من القصص اليونانية إلى اللّغة العربية ،كما ترجموا مجموعة كبيرة من الحِكم التي نُسبت إلى الفلاسفة اليونانيين والتي مُلِئَت بها كتب الأدب في العصر العباسي كالبيان والتبيين ،وعيون الأخبار وغيرها...[4]ويرجِّح أحمد أمين سبب اهتمام العرب بالقصص والأمثال دون غيرهما من الأنواع الأدبية إلى أنّ :هذين النوعين "من النوع العالمي ،قد جُرِّدا مما يلابسهما من حياة اجتماعية خاصة،وليس فيهما أسماء يونانية ثقيلة على سمع العربي ولسانه ،وليس فيهما أوزان شعريّة لا تسيغها العربية ،ولا فيهما وصف لحياة اجتماعية عما يألفه العربي المسلم."[5]

[1]- التيارات الأجنبية في الشعر العربي منذ العصر العباسي حتّى نهاية القرن الثالث هجري:371،370.
[2]-ينظر:تاريخ الأدب العربي،العصر العباسي الأول،شوقي ضيف:150
[3]- ديوانه:105
[4]-ينظر:ضحى الإسلام،أحمد أمين:282/1.
[5]-المرجع نفسه:283/1.

ولقد جاءت الثّقافة اليونانية برصيد معرفي متنوّع خدم النّثر العربي ودفعه قدما نحو لغة علمية اعتمدت التَّحليل والتركيب ،وأصبح الكتَّاب يعرفون القياس المنطقي الصّحيح وطرق الاستدلال والتّعليل ،ودقائق المعاني ،وفرَّقوا بين السبب والمسبب وما بين الجنس والنّوع ،والفصل والخاصة وما بين الحُجّة والشُّبهة ،والممكن والمحال،والمعقول والموهوم ،والبرهان الجليّ والبرهان الخفي[1] ،وبذلك تنوّعت المصطلحات واتّسعت المعاني والمفاهيم ،وقد مسّ هذا التغيّر مختلف المؤلفات ولاسيّما علم الكلام الذي استقى من الفلسفة اليونانية طرق جدلها وبحثها وتعبيرها وتدليلها ،وفي هذا المقام يقول :"كانت أساليب المتكلمين متأثرة إلى حدّ بعيد بمنطق أرسطو ،بل تطرق التأثير إلى ميدان الفقه ذاته...فكتاب الهداية فيه التّدليل الفقهي وخاصة في مسائل الخلاف بين أبي حنيفة والشّافعي ،وترى فيه قواعد الجدل والبرهان المتأثّر بمنطق أرسطو ،وامتد أثر المنطق في النّحو ،فنجد في كتاب سيبويه التّرتيب والتّبويب،يقسّم الكلمة اسم وفعل وحرف ،ثم يعرّف بكل قسم ويأتي بالأمثلة ويذكر الأحكام. "[2]

يتأكد مما سبق أن الأدباء العباسيين قد تأثروا بالثقافة اليونانية ولم يتأثروا بأدبها إلاّ نادرا لعدم تلاؤمه مع طبيعة الأدب العربي وحياة المجتمع الإسلامي ،إلا الحكم والقصص فقد نُقلت إلى اللّغة العربية لاتسامها بالطَّابع العام ،والتي يبدو أثرها واضحا في المصادر الأدبية التي أُلِّفت آنذاك ،وفي المقابل انكب جلّ اهتمامهم على الفلسفة اليونانية والمنطق وغير ذلك من الفروع المعرفية ممّا جعل الأدب العربي يشتمل على الكثير من المصطلحات الفلسفية ،ولم يقتصر تأثيرها عند هذا الحدّ بل تجاوزه إلى

[1]-ينظر: تاريخ الأدب العربي،العصر العباسي الأول ،شوقي ضيف:443.
[2]-العالم الإسلامي في العصر العباسي،حسين أحمد محمود،أحمد ابراهيم الشريف:216،217.

اقتباس العديد من الأفكار والنظريات ،كما اكتسب الشّعر معاني جديدة ،وأصبح يصاغ صياغة فلسفية ،وأثر الثقافة اليونانية جليّ في معظم الفروع النثرية ،وبفضلها أصبحت الكتابة تتّسم بأسلوب علمي مما جعلها أكثر دقة ووضوحا.

ج- أثر الثقافة الهندية على الأدب العباسي:

لقد كان للّغة العربية بعامة والأدب العربي بخاصة نصيب من الثقافة الهندية،فوردت في اللّغة العربية الكثير من الألفاظ الهندية التي تم اقتباسها كالآبنوس والببغاء والخيزران والفلفل والأهليلج...،ثم إنّ العرب قد أولعوا بنقل القصص الهندية إلى العربية ،ومن أبرز هذه المؤلفات :كليلة ودمنة ،والسّندباد الكبير ،والسّندباد الصّغير،وكتاب هابل في الحكمة ،وكتاب الهند في قصة هبوط آدم ،وكتاب دبك الهند في الرجل والمرأة...[1] ،كما أعجبوا بالحكم وأخذوا منها ،ويرجِّح أحمد أمين إنّ السبب في ذلك يعود إلى إنّ هذا "النوع يتّفق والذّوق العربي ،فهو أشبه شيء بالأمثال العربية،والجمل القصيرة ذوات المعاني الغزيرة التي أولع بها العرب. وهي نتيجة تجارب كثيرة ،تُركَّز في جملة بليغة. والعقل يميل إليها قبل أن يميل إلى مثل الفلسفة اليونانية المنظّمة بأبواب وفصول وموضوعات."[2] وذكر ابن قتيبة بعض الأمثال الهندية في قوله: "قرأت في كتاب من كتب الهند :شرّ المال لا ينفق منه ،وشرّ الإخوان الخاذل،وشرّ السلطان من خافه البريء ،وشرّ البلاد ما ليس فيها خصب ولا أمن.

[1]-ضحى الإسلام،أحمد أمين:246/1 وما بعدها
[2]-ضحى الإسلام:249/1.

وقرأت فيه :خير السلطان من أشبه النّسر حول الجيف لا من أشبه الجيفة حولها النسور."[1]

ويظهر تأثر أبا نواس بالثقافة الهندية التي كان عمادها النجوم والرياضة جليّا في بيته هذا الذي يقول فيه:

تُخُيِّـــــرَتْ والنُجُـــــومُ وَقْـــــفٌ لـــــم يَـــتَمَكَّنْ بهـــا المـــدارُ[2]

ويشرح عبد المنعم خفاجي هذا البيت فيقول إنّ أبا نواس كان يقصد :"أنّ النجوم تخيرت حين خلق الله الفلك ،وأصحاب الحساب والنجوم يذكرون أنّ الله تعالى حين خلق النجوم جعلها مجتمعة واقعة في برج ،ثم سيّرها من هناك."[3] هذا ،وتفطن ابن قتيبة إلى تأثر أبي نواس بالثقافة الهندية في موضع آخر حينما يقول:

قُـــلْ لِزُهَيْـــرٍ إذا حَـــدَا وشَـــدَا أَقْلِـــلْ وأكثـــر فأنـــت مهـــذارُ
سخُنْـــتَ مـــنْ شـــدّةِ البـــرودةِ حتّـــى صـــرتَ عنـــدي كأنـــك النّـــارُ
لا تَعْجَـبُ السَّـامعونَ مـن صـفتِي كذلـــك الثلـــجُ بـــاردٌ حـــارُ[4]

ويُفسَّر أنّ هذا الشّعر يدل على نظرة في علم الطبائع ،لأنّ الهند تزعم أنّ الشيء إذا أفرط في البرد عاد حارا مؤذيا .[5]وبذلك فأبو نواس قد تأثّر بالثقافة الهندية حتّى راح يردّد ما زعموه.

---

[1]-عيون الأخبار:3/1
[2]-الشعر والشعراء،ابن قتيبة:545
[3]-الآداب العربية في العصر العباسي:89
[4]-المصدر نفسه،ابن قتيبة:547
[5]-ينظر عيون الأخبار،ابن قتيبة:7/2

وكان للهنود ولع بالشّعر وقد نبغ فيه الكثير منهم كأبي عطاء السّندي ،كما اهتموا بعلم اللّغة كابن الأعرابي الذي كان عالما من أعلام اللّغة والأدب والشعر[1]،ومن وجهة أخرى فقد اهتم العديد من المسلمين بدراسة أصول وقواعد الشّعر الهندي وعلى رأسهم البيروني الذي عكف على دراسة البحور والأوزان الشعرية ،والذي رجّح أنّ الخليل بن أحمد أنه قد وضع بحوره لما سمع أنّ للهنود موازين في الشعر.[2]

إنّ تأثير الثقافة الهندية كان طفيفا مقارنة بالثّقافتين الفارسية واليونانية ،وبالرغم من ذلك تركت بصمات واضحة في تاريخ الأدب العباسي من خلال نقل القصص والحكم المختلفة إلى اللّغة العربية والتي أعجب بها الشعراء العباسيون فراحوا يرصِّعون بها أبياتهم الشِّعرية ،وقد لا يتفانى الشعراء أحيانا من اقتباس بعض الآراء والمعتقدات الهندية ،كما فعل ذلك أبو نواس ،فضلا عن نبوغ الكثير من الهنود في نظم الشّعر ودراسة اللّغة العربية.

2-أثر الحياة الفكرية على الأدب العباسي:

لقد انعكس شعاع التطوّر الفكري الذي شهدته البيئة العباسية التي كانت مركزا للمجاري المعرفية المختلفة على معاني الأدباء والشعراء وأساليبهم ،ولاسيّما الذين كانوا بالقرب من التيارات الثقافية والفكرية التي سادت المجتمع آنذاك ،وأخذوا يقتبسون مفرداتها تارة ويطوِّعون معانيها تارة أخرى ،فعمّ التغيّر جوانب متعددة من الأدب شكلا ومضمونا. ومسّ الشّعر شيء غير قليل من هذا الجانب المعنوي للحضارة العباسية،والذي يمكننا أن نجمله فيما يأتي:

[1]- ينظر:ضحى الإسلام،أحمد أمين،ج1 :231،232

[2]-ينظر:المرجع نفسه:245،246

لقد تأثر الشُّعراء بالجدل والنِّقاش الذي شهدته المناظرات المختلفة ولاسيّما التي كانت تعنى بالشؤون الدينية وعلى رأسها الفلسفة الإسلامية ،فمال الشعراء إلى استخدام البراهين العقلية في شعرهم على اختلاف أغراضه ،ويعلّل محمد عبد المنعم خفاجي هذه الظاهرة في قوله :"كأنهم أحسوا هذه الغرابة غير المألوفة ،وهم في مجتمع يموج بالحوار والنِّقاش ،فاحتاجوا إلى البراهين العقلية ،والأقيِّسة المنطقية ،يدعِّمون بها المعنى الغريب العميق ويقرِّبونه إلى المألوف ."[1] ولقد انعكست هذه الظاهرة على معظم الشعراء العباسيين الذين كان على اتصال بما يجري في هذه البيئات ،كقول البحتري:

دَنَـــوْتَ تَوَاضُـــعًا ،بَعُـــدْتَ قَـــدْرَا فشَـــأْنَاكَ :انحـــدارٌ وارتفـــاعُ
كـذاك الشَّـمسُ تبعـدُ أن تُسَـامَى ويـدْنُو الضَّـوْء منهـا والشُّـعَاعُ[2]

وفي قصيدة أخرى يقول أبو تمام:

وطول مُقام المرء في الحيّ مُخْلِقٌ لدِيبَاجتَيْـــهِ ،فـــاغتَرِبْ تَتَجَـــدَدْ
فـإنّي رأيـتُ الشَّـمسَ زيـدتْ محبَّـةً إلى النَّاس أن ليستْ عليهم بسرمدِ[3]

ولم يكن الشعراء بمنأىً عمّا كان يدور في بيئات المتكلمين ،بل نجد أغلبهم ينحازون إلى فرقة دون الأخرى ،ويرجَّح أنّ أبا نواس كان معجبا بأفكار المرجئة[4] التي رأى فيها ما يتناسب مع تصرفاته ،وهذا ما تدل عليه الأبيات الآتية التي ردَّ من خلالها على النظَّام شيخ المعتزلة :

فقـلْ لِمـنْ يـدّعي فـي العلـم فلْسَـفةً حفظـتَ شـيئًا ،وغابـتْ عنْـك أشـياءُ
لا تحظُرِ العفوَ إنْ كنتَ امرأً حرجًا فـــإنّ حَظركَـــهُ بالـــدّين إزْراءُ[5]

[1]-الآداب العربية ف العصر العباسي:90.
[2]- ديوانه ،تحقيق:حسن كامل الصيرفي،ط3،دار المعارف،دت: 1247
[3]- ديوانه ،ج1: 246
[4]-ينظر:تاريخ الأدب العربي،العصر العباسي الأول،شوقي ضيف:156.
[5]- ديوانه ،ج3 :4

ويظهر تأثر أبي تمام بعلم الكلام جليّا في شعره ولاسيّما بمذهبي الاعتزال والجهمية ،بل نجده متأثرا بكل ما له علاقة بالفلسفة والمنطق[1] ،ومن ذلك قوله في وصف الخمرة :

جهميَّـــةُ الأوصـــــافِ إلاَّ أنّهـــم قـــد لقَّبُوهَـــا جـــوْهَرَ الأَشْـــيَاءِ[2]

وأصاب بشار بن برد ما أصاب بني عصره من تأثرهم بالفرق الكلامية ،وكان في أول الأمر معجبا بشيخ المعتزلة واصل بن عطاء ،ثم انقلب جبريا وهو يرى نفسه مسيّرا مما يقترف من ذنوب[3] ،وتظهر عقيدته الجبرية في قوله :

خلقـتُ علـى مـا فـيَّ غيـرَ مخيَّـرٍ هـوايَ ولـو خُيِّـرتُ كنـتُ المُهَـذَبَا
أريـدُ فـلا أعطَـى وأُعطَـى ولـمْ أُرِدْ وقصَّـــر علمِـــي أنْ أنـــالَ المُغَيَبَـــا
وأُصْرَفُ عنْ قَصْدِي وحلمِي مُبْلغِي وأُضْـحي ومـا أعقبـتُ إلاّ التعجُّبَـا[4]

وأبو العتاهية كان أشد قربا من الجدال الفلسفي والمنطق والمذاهب الكلامية،وهذا ما يؤكّده عبد الستار الجواري في قوله :"ولقد كان من بين الشعراء في هذه الحقبة من شارك في الحياة العقلية مشاركة فعلية :أبو العتاهية الذي تعلَّم الفلسفة وأخذ من معارف عصره بنصيب ،وكان له مذهب في العقيدة عرف به ،ومذهبه القول بالتّوحيد وأنّ الله خلق جوهرين متضادين لا من شيء ،ثم إنّ الله بنى العالم هذه البنية ،وهو يذهب كذلك إلى أنّ العالم حديث العين والصنعة ،لا محدث له إلاّ الله ،وأنّ الله سيرد كل

[1]-ينظر:المرجع نفسه ،شوقي ضيف:157.
[2]- ديوانه ،ج1: 28
[3]-ينظر:الشعر في بغداد،أحمد عبد الستار الجواري:196
[4]- ديوانه ،ج1: 269

شيء إلى الجوهرين المتضادين قبل أن تفنى الأعين جميعا. ومذهبه في المعرفة أنّ المعارف واقعة بقدر الفكر والاستدلال طباعا ."[1] وهذه بعض أبياته تعكس ما سبق:

لِكُـــلِّ شَـــيءٍ مَعـــدَنٌ وَجَـــوهَرُ وَأَوسَـــــطٌ وَأَصـــــغَرٌ وَأَكبَـــــرُ
مَن لَكَ بِالمَحضِ وَكُلٌّ مُمتَزِج وَساوِسٍ في الصَدرِ مِنكَ تَعتَلِج
وَكُـــلُّ شَـــيءٍ لاحِـــقٌ بِجَـــوهَرِه أَصـــــغَرُهُ مُتَّصِـــــلٌ بِـــــأَكبَرِه[2]

ونجد ظاهرة أخرى في الشّعر العباسي وهي تعبير الشعراء عن شغفهم بالمعرفة كقول بشار بن برد:

شـفاءُ العَمَـى طُـولُ السُّـؤَالِ وإنَّمـا تمَامُ العَمَى طولُ السُّكوتِ على الجَّهلِ
فكـن سـائلاً عمـا عنـاكَ فإنَّمـا دُعِيتَ أخَا عقلٍ لتَبْحَثَ بالعقلِ.[3]

ونجد أبا تمام في الكثير من قصائده يربط الشّعر بالفكر ،وهو ليس بالأمر الغريب كما أشار إلى ذلك مصطفى الشكعة باعتباره :"كان متسلّحا بالمعرفة الواسعة مزوَّدا بالثّقافة العميقة ،موهوبا ملَكة في الشّعر خصبة جيَّاشة مِعطاءة..."[4] وتسيل معظم قصائده من هذا المنبع ،يقول في إحداها :

خُذْهَا ابنةَ الفِكْرِ المُهَذَّبِ في الدُّجَى واللَّيْـلُ أَسْـوَدُ رُقْعَـةَ الجِلْبَـابِ
بِكْـراً تُـوَرِّثُ فـي الحيـاةِ وتَنْثَنِـي فـي السِّـلمِ وهـي كثيـرةُ الأَسْـلابِ
ويزيـــدُهَا مـــرُّ اللَّيـــالي جِـــدّةً وتقـــادمُ الأيَّـــامِ حســـنُ الشَّـــبَابِ[5]

[1]-الشعر في بغداد:205،204.
[2]-الأغاني،أبو فرج الأصفهاني:ج4 :31.
[3]- ديوانه ،ج4: 142
[4]-الشعر والشعراء:648.
[5]-ا ديوانه ،ج1: 58

وما نلاحظه في شِعر أبي تمام وغيره من الشّعراء العباسيين أنّ معانيهم أصبحت أكثر اتساقا وأفكارهم أكثر ترتيبا ،وأضحى بناء القصيدة سالما هيكلا وموضوعا.[1]

ولقد استعان العديد من الشعراء ببعض النظريات العلمية والإشارات الفلسفية التي كانت شائعة في العصر العباسي ،كقول أبي علي المهندس في إحدى قصائده:

تقسَّمَ قلبي في محبةِ معشرٍ بكلِّ فتى منهم هوايَ منوطُ
كأنَّ فؤادي مركزٌ وهمْ له مُحيطٌ وأهوائي لديهِ خطوطُ[2]

وهذا ابن الرومي يهجو أبا صقر مستندا في ذلك إلى نظرية تحوّل المعادن فيقول:

عجبَ النَّاسُ من أبي صقرٍ إذ وُلْ لِيَ بعد الإيجارة الديوانا
ولعمري ما ذاك أعجبُ منْ أنْ كان علجًا ،فصار من شَيبانَا
إنّ للجد كيمياءً إذا ما مسَّ كلباً أحالَهُ انسانَا
يفعلُ اللهُ ما يشاءُ ،كما شا ء ،متى كائنا ما كانَ[3]

وفضلا عما سبق نلاحظ استعمال الشعراء للكثير من المصطلحات العلمية التي كانت تتداول في مختلف المجالات الفكرية. وما يميّز شِعر هذا العصر هو كثرة الحكم والأمثال التي أخذت تنمو بشكل تدريجي حيث استمدت أصولها الأولى من القرآن والسنّة والنبوية إبّان العصور الماضية ،لنجدها في هذا العصر تنصهر مع الثّقافات

[1]-ينظر:الآداب العربية في العصر العباسي الأول،محمد خفاجي عبد المنعم:93
[2]-أخبار العلماء بأخبار الحكماء،يوسف القفطي،تحقيق:محمد أمين الخانجي،دط،مطبعة السعادة،مصر،دت:267
[3]- ديوانه ،شرح وتقديم:أحمد حسن بسج،ج3،ط3،دار الكتب العلمية،بيروت،2002: 463

الوافدة على الحضارة الإسلامية التي زادت معانيها قوة وعمقا[1] ،ولقد شَغُفَ الكثير من الشعراء بها ،نذكر منهم :صالحا بن عبد القدوس وأبا العتاهية وأبا تمام و ابن الرومي والمتنبي والمعري وغيرهم[2]...

يقول ابن عبد القدوس في إحدى قصائده المفعمة بالحكم الراقية:

لا يَبلـــغُ الأعـــداءُ مـــنْ جاهـــلٍ ... مـــا يبلـــغ الجاهـــلُ مـــن نفسِـــه
والشـــــيخُ لا يتـــــركُ أخلاقَـــــهُ ... حتـــى يُـــوارَى فـــي الثَـــرَى رمسِـــه
إذا ارْعـــوَى عـــاد إلـــى جهلِـــهِ ... كَـــذِي الضَّـــنَى عـــاد إلـــى نكسِـــه[3]

ويقول ابن الرومي راثيا ابنه الأوسط المحتضر في قصيدة يقول فيها :

وأولادُنـــا مثـــل الجـــوارِح أيُّـــها ... فقـدْناه كـان الفاجِـــع البـــيِّنِ الفقـــدِ
لكـــلِّ مكـــانٌ لا يســـدُّ اختـــــلالهُ ... مكـانُ أخيـهِ فـي جـزوع ولا جلـدِ
هل العينُ بعد السَّمْع تكفي مكانـهُ ... أم السَّمعُ بعدَ العينِ يهدي كما تهدي[4]

فالحكم والأمثال التي طُرّزَ بها الشّعر العباسي قد عكست المستوى الفكري الراقي الذي بلغته الحضارة العربية الإسلامية في هذا العصر ،لأنّ النظم في هذا المجال يستلزم سعة في التفكير وزادا معرفيا كاف حتّى تتبلور هذه المعاني الموحية في أذهان الشعراء التي تسيل من لسانهم على شكل عبارات تمتاز عموما بحسن السبك وجمال المعنى.

[1]-ينظر:تاريخ الأدب العربي في العصر العباسي الأول،حامد حفني داود:14
[2]-ينظر:تاريخ الآداب العربية في العصر العباسي الأول،محمد خفاجي عبد المنعم:94 وما بعدها
[3]- لباب الآداب،الثعالبي،تحقيق:أحمد حسن لبج،ط1،دار الكتب العلمية،لبنان،1997 :160
[4]- ديوانه ،ج1: 401

ومن الأغراض الشعرية الجديدة التي استلزمتها الحياة الفكرية في الشّعر العباسي والتي لم يكن للعرب عهد بها :الشّعر التعليمي الذي كان ينظم في بعض القصص أو بعض المعارف أو بعض السيّر والأخبار ،[1]ويرجَّح أنه كان ينظم بغرض تسهيل حفظ المعارف المختلفة التي كان يتناولها.[2]

ولقد اختلف الدّارسون حول نشأة هذا الفنّ ،فمنهم من يقول إنّه عربي أصيل،ومنهم من يرجِّح أنّ العرب قد تأثروا بالهنود بعد احتكاكهم بهم فنظموا فيه[3]. ومهما يكن من أمر ،فهو غرض جديد في الشّعر العربي يعكس ما آلت إليه البيئة العباسية من ازدهار معرفي وفكري. واشتهر في هذا الفنّ مجموعة من الشعراء أشهرهم: أبان بن أحمد اللاحقي الذي يقال إنه نظم كتاب السندباد وكتاب كليلة ودمنة وجعله في أربعة عشر ألف بيت.[4] وصفوان الأنصاري الذي تحدّث في أشعاره عن فضل الأرض وما تحمله من كنوز ومعادن ،وابن حمدان ،وأبي العتاهية ،ومحمد بن ابراهيم الفزاري والأصمعي وغيرهم...[5]

ومن بين القصائد التي نُظمت في هذا المجال :قصيدة أبان بن عبد الحميد اللاحقي الذي يستهلّها بشرح أحكام الصوم فيقول:

هـذا كتـابُ الصَّـوم وهـو جـامعُ لكـل مـا قامـت بـه الشـرائعُ
مـن ذلـك المنـزَلُ فـي القـرآنِ فضـلاً علـى مـن كـان ذا بيـانِ
ومنـه مـا جـاء عـن النبـيِّ مـن عهـده المتبـع المرضـيِّ

[1]-ينظر:تاريخ الأدب العربي،العصر العباسي الأول،شوقي ضيف:190
[2]-ينظر:اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري،مصطفى هدارة:354.
[3]-ينظر:المرجع نفسه:355 وما بعدها
[4]-ينظر:المرجع نفسه:362
[5]-ينظر:المرجع نفسه ،شوقي ضيف:190 وما بعدها

صـــلى الإلـــه وعليـــه ســـلّما كمـــا هـــدَى اللهُ بـــه وعلّمـــا
وبعضـــه علـــى اخـــتلاف النـــاس مـــن أثـــر مـــاضٍ ومـــن قيـــاسِ
والجـــامع الـــذي إليـــه صـــاروا رأي أبـــي يوســـف ممـــا اختـــاروا[1]

كما نظم محمد بن ابراهيم الفزاري قصيدة طويلة في علم النجوم يقول فيها:

الحمـــــد لله العلـــــيّ الأعظـــــم ذي الفضـل والمجـد الكبيـر الأكـرم
الواحـــد الفرد الجـــوّاد المـــنعم
الخـــالق الســـبع الأولـــى طباقـــا والشـمس يجلـو ضـوءها الإغسـاقا
والبـــدر يمـــلأ نوره الآفاقـــــا[2]

ويظهر تأثير الحياة الفكرية جليّا في أغلب الأغراض الشعرية على رأسها المدح الذي اختلفت معانيه باختلاف الأشخاص المراد مدحهم ،وأصبح مدح الوزير أو الكاتب يختلف عن مدح قائد أو قاض...فظهر نوع من التّخصص في هذا المجال ،وقد ازداد ميلا إلى النّواحي المعنوية كلما كان أشدّ احتكاكا بالواقع الفكري الذي ساد الحضارة العباسية.[3]

وصبغت الحياة الفكرية الهجاء بطابع خاص فيه إبداع وطرافة ،من ذلك هجاء حماد عجرد لصاحبيه في قوله:

لقد كان في عينيكَ يا حفصُ شاغل وأنـــت كثيـــرُ العـــودِ عمـــا تتبـــعُ

[1]-كتاب الأوراق،أخبار الشعراء،أبي بكر بن يحيى الصولي،ط1،مطبعة الصاوي،مصر،1934 :51.
[2]-معجم الأدباء،ياقوت الحموي،ج6،تحقيق:إحسان عباس،ط1،دار الغرب الإسلامي،لبنان،1993 :2295.
[3]-اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني هجري،مصطفى هدارة 371

تتبــعُ لحنًــا فــي كــلامِ مــرقشٍ ووجهـك مبنـيٌّ علـى اللَّحـن أجمـعُ
فأذنـــاكَ إقـــواء وأنفـــك مكفـــأ وعينـــاك إيطـــاء فأنـــت المرقّـــع[1]

ويعدّ أبو نواس في طليعة الشعراء الذين جدّدوا في الشّعر العباسي ،حيث استحدث معاني خمرية جديدة تمثلت في تلك الصورة الفلسفية التي حاول من خلالها أن يقدِّم الخمرة بأسلوب جديد بُغية الرَّفع من قدرها ودعما لمواقف شاربيها.[2] وهو واحد من الشّعراء الذين استغلّوا كل ما وصل إليه العلم والفلسفة في شعرهم ،وقد تميّز شعره بتجريد المادة وانتهائها إلى ما يشبه العدم.[3] يقول في إحداها:

تُخَيِّـــرَتْ، والنُّجـــوم وُقـــفٌ لـــم يـــتمكَّنْ بهـــا المـــدارُ
فلـــم تَـــزلْ تأكـــلُ اللَّيـــالِي جُثْمانَهَـــا مـــا بهـــا انتصَـــارُ
حتـــى إذا ذامُهَـــا تلاشَـــى وخُلِّـــصَ السِـــرُّ والنِجـــارُ
آلـــتْ إلـــى جـــوهرٍ لَطِيـــفٍ عِيَـــانُ مَوجـــودِهِ ضِـــمَارُ
كـــأنَّ فـــي كأسِـــهَا سَـــرابا يُحِيلُـــه المَهمَـــهُ القِفَـــارُ
لا ينـــزلُ اللَّيـــلُ حيـــثُ حَلّـــتْ فـــدهر شُـــرَّابِهَا نَهـــارُ[4]

نلاحظ أنّ استغلال الشّاعر لنظرية التحوّل في وصفه للخمرة قد أضفت على أسلوبه قوة وجمالا ،وخاصة عندما أخضع الفكرة الفلسفية بما يتناسب مع ليونة المضمون الشعري وقالبه. فنجده يتحدث ببراعة متناهية عن تحولها من جثمان إلى جوهر لطيف.

[1]-ينظر:الشعر في بغداد،أحمد عبد الستار الجواري:263
[2]-ينظر:الشعر والشعراء،مصطفى الشكعة:209
[3]-ينظر:تاريخ الشعر العربي حتّى آخر القرن الثالث هجري،نجيب البهبيتي:440
[4]- ديوانه ،ج3: 133

وعلى الرغم من إعجاب الكثير من الدارسين بالمستوى الذي بلغه الشّعر العباسي بسبب احتكاكه بالحياة الفكرية ،فإنّ هناك من ينتقد هذا الجانب كعبد الستار الجواري الذي يرى آثارا بعيدة المدى على هذا التغيّر الذي أثّر على الأسلوب الشعري بشكل سلبي وذلك جرّاء إصرار الشعراء الشّديد على المواكبة بينه وبين التطوّر الفكري والثقافي اللذين شهدتهما الحضارة العباسية[1]. وحتى من ناحية الموضوعات ولاسيّما الجديدة منها ،نجد الكثير من القصائد والمقطوعات تستقلّ بموضوع واحد خاص بها،كما يظهر ذلك جليّا في مقطوعات الهجاء ،وبعض قصائد الخمر ،وكذلك بعض القصائد التي عُنيت بالحكمة والزهد[2]،فنجده يقول :"ولم نعد نشهد في القصيدة الواحدة فنونا وموضوعات لا تجمع بينها إلاّ وحدة الوزن والقافية ،بل صار للوحدة مكانها في الفنّ الشعري. وذلك ،وإن يكن قد عُرف في الشّعر من قبل على مدى محدود ،وفي غزل الحجازيين ،إلّا أنّه اتّضح في هذا العصر وتأكد؛وهو بالطّبع متأتٍ من تأثّر الشّعر بالحياة العلمية التي عرفت التبويب والتصنيف في العلوم وجمع المتشابه منها بعضه إلى بعض."[3] ويرى أنّ أسلوب الشّعر قد مال إلى البساطة بابتعاده عن المألوف ولاهتمامه بالكثير من العناصر التي تناسب النثر دون سواه ،مما دفعه نحو التّحلّل والتّفكك.[4]

ولقد انتقد الشعراء المحافظون الأسلوب الشِّعري المفعم بمعاني الفّكر والفلسفة،كما فعل ذلك البحتري:

كلَّفتمُونـــــا حـــــدودَ مـــــنطِقِكُم فـي الشّعر يُلْغَى عن صِدقِهِ كَذِبُهْ

[1]-ينظر:الشعر في بغداد،أحمد عبد الستار الجواري:206
[2]-ينظر:المرجع نفسه:207 وما بعدها
[3]-المرجع نفسه:208
[4]-المرجع نفسه:229

ولــم يكــنْ ذو القــروحِ يلهــجُ بالــ منطقِ ،ما نوُعهُ ،وما سببُه؟
والشّـــعر لَمْـــحٌ تكْفِـــي إشـــارتُهُ ولــيس بالهَــذر طوِّلَــتْ خطبُــه[1]

يتضح مما سبق أنّ التطوّر الفكري الذي احتضنته الحضارة العربية الإسلامية في العصر العباسي قد مسّ جوانب متعددة من الشّعر ،ويتضح ذلك في استخدام الشعراء للبراهين العقلية والمصطلحات المعرفية المختلفة ،بالإضافة إلى استعانتهم بالحكم والأمثال والنظريات العلمية والإشارات الفلسفية التي كانت شائعة آنذاك ،وقد غلب الاتّساق والتّرتيب على معانيهم وأفكارهم ،كما استحدثوا الشّعر التعليمي باعتباره الغرض الأكثر قربا مما كان يدور في هذه البيئات الفكرية ،وبذلك فالشعراء قد شاركوا في الحياة العلمية مشاركة فعّالة ،بل كانوا الأشدّ قربا من المناظرات والتيّارات المختلفة،ونجدهم ينتمون إلى الفرق الكلامية ويؤيّدونها تأييدا. ويعبّرون في كثير من الأحيان عن حبِّهم للإطّلاع وشغفهم بالمعرفة. وبالرّغم من الانتقاد الذي تلقَّاه هذا الشّعر قديما وحديثا إلاّ أنه يظلّ يعكس المستوى الفكري لفترة من أهم فترات ازدهار الحضارة العربية الإسلامية بعامة والثقافة الشاملة للشعراء العباسيين التي انعكست على منظوماتهم بخاصة.

أما إذا أردنا الاطّلاع على النّثر العربي في العصر العباسي ،فإنه باختصار قد بلغ مرحلة متقدمة من التطوّر والازدهار لأسباب أهمها أنه أداة العقل والوسيلة الأكثر ملاءمة للتعبير عن التطوّر الفكري الذي بلغته الحياة العقلية إبّان العصر العباسي. ولقد مرّ بعدّة محطات وأطوار تمهيدية قبل وصوله إلى مرحلة التّكامل والنّضج في العصر العباسي ؛وبذلك فإنّ التطوّر الذي أصابه كان نتيجة حتمية وطور طبيعي في تاريخ نشأته. وهذا ما يشير إليه طه حسين في قوله :"النّثر العربي الفني نشأ في البيئة

[1]- ديوانه:209

العربية الخالصة ونشأ عربيا خالصا ،ثم تطوّر كما تطورت الفنون العربية المختلفة من نثر بسيط جدا يكثر فيه التّكرار ويقصر عن تأدية الأغراض بدقّة إلى نثر ينمو ويسهل ويمكن أن تؤدّي به الأغراض من غير مشقة ولا عنث ،إلى نثر يقصد به إقناع السّامعين والقارئين"[1]

وبما أنه سبقت الإشارة إلى جوانب التّجديد في النّثر العباسي من خلال تأثره بالحياة الحضارية من وجهة وبالثقافات الأجنبية المختلفة من وجهة أخرى ،وبما أنّ جل هذه العوامل ترجع إلى سبب رئيس واحد يتمثل في النهضة الفكرية التي شهدتها الحضارة العباسية فإننا تجنبا للتكرار سنحاول التطرق إلى الجوانب الأخرى التي لم نتطرق إليها من قبل ؛فنقول :لقد تعددت شعب النثر العربي وفروعه في العصر العباسي بغرض مواكبة الحياة الفكرية الجديدة ،وبغض النظر عن النثر الأدبي أصبحنا نجد النثر العلمي والنثر الفلسفي والنثر التاريخي ،كما ظهرت الرسائل الأدبية التي أصبحت تعنى بالكتابة في موضوع معيَّن وهي بمثابة المقالات التي تكتب في عصرنا.[2] وأصبحنا نجد في النّثر الفنّي ألوانا كثيرة تنوّعت بين أدب التهكّم والسّخرية،والرّسائل الإخوانية ،والرّسائل الأدبية ،والتّوقيع والمقامة والأدب الوصفي،وأدب الطبيعة ،وأدب القصّة وغير ذلك من الفنون النثرية...[3]

أما عن أسلوب الكتّاب في هذا العصر فقد ذكر الجاحظ أنّهم :"لا يقفون إلاّ على الألفاظ المتخيّرة ،والمعاني المنتخبة ،وعلى المخارج السّهلة ،والديباجة الكريمة،وعلى الطّبع المتمكّن ،وعلى السّبك الجيّد ،وعلى كل كلام له ماء ورونق،وعلى المعاني التي إذا صارت في الصّدور عمّرتها وأصلحتها من الفساد القديم ،وفتحت

[1]-في تاريخ الأدب العربي،طه حسين:40
[2]-ينظر:تاريخ الأدب العربي،العصر العباسي الأول،شوقي ضيف:442
[3]-ينظر:الآداب العربية في العصر العباسي الأول،محمد عبد المنعم خفاجي:26.

للسان باب البلاغة ،ودلّت الأقلام على مدافن الألفاظ ،وأشارت إلى حسان المعاني."[1] وهذا كله ناتج عن تأثرهم بالحياة الفكرية المتعددة الروافد والمناهل التي انصهرت في عقول الأدباء حتّى تميّزت مؤلفاتهم بالبراعة وحسن الصياغة.

ولعل اهتمام الأدباء العباسيين بالنثر يعود إلى بلوغ العقل العربي مرحلة متقدمة من النضج ،مما جعلهم يلجأون إليه كأداة أكثر استيعابا للتعبير والإبداع عمّا يجول في أذهانهم. ولاسيّما بعد تلك النهضة الفكرية التي أخذت الكثير عن الثقافات الأجنبية بترجمة تراثها إلى اللّغة العربية. وهذا شوقي ضيف يوضّح لنا مجالات التأليف في النثر العربي من خلال قوله:"ولم يقف النثر العربي عند حمل المضامين العلمية والفلسفية الجديدة ،التي جاءت من لدنِ الأجانب ،فقد انبرت العبقرية العربية في هذا العصر تضع العلوم اللغوية والشرعية ،وهو وضع كان واسع الأثر في تمهيد اللّغة وتيسيرها وجعلها لغة علمية محددة الألفاظ والاصطلاحات التي ترسم المعاني رسما دقيقا،وقد مضت هذه اللّغة تركض ركضا لا في مجال العلوم الإسلامية والعربية الخالصة فحسب ،بل كذلك في مجال العلوم الطبيعية والكونية ،فإذا لنا علماء كيماويون ورياضيون مختلفون ،لهم مصنّفاتهم ومباحثهم المبتكرة."[2] وهذا ما يدلّ على اتساع دائرة النّثر في العصر العباسي ومدى تأثّره بالمعطيات الحضارية على أشكالها ولاسيّما الفكري منها ،ولعلّ السبب في ذلك يعود إلى رغبة المسلمين في مواكبة التّطور الحضاري الذي جاءت به الأمم الأجنبية ،أو على الأرجح أرادوا أن يتركوا لمساتهم القيّمة في ذلك الرّصيد الثّقافي الذي توارثته الأجيال المختلفة ،فاستفادوا من الموروث الفكري حتّى يذهبوا برياتهم المعرفية إلى أبعد الحدود مستندين على المصادر التشريعية

[1]-البيان والتبيين،الجاحظ،تحقيق:عبد السلام هارون،ج4،ط7،مكتبة الخانجي،القاهرة،1998 :24
[2]-تاريخ الأدب العربي،العصر العباسي الأول،شوقي ضيف:442.

التي تعد الأساس الأول للحضارة العربية الإسلامية ،ثم إنّ العصر العباسي يمثِّل ميلاد الكثير من العلوم اللغوية والدينية ومرحلة جديدة للعلوم المترجمة على اختلافها ،وهذا ما يدلّ على رغبة المسلمين في التّحصيل والبحث والتّأليف في مختلف المجالات التي وجدوا من البحث فيها نفعا للدين والدنيا.

الفصل الرابع

المظاهر الحضارية في الشعر العباسي

-وصف القصور

-وصف الجسور والبرك

-وصف السفن

-وصف الرياض والورود

-وصف وسائل الثقافة وأدواتها

-وصف أساليب العيش والترفيه

-وصف المعارك والفتوح

لقد اهتم الكثير من الشعراء العباسيين بنعت المظاهر الحضارية المادية المختلفة التي احتضنتها البيئة العباسية ،فتعددت بذلك الموضوعات الوصفية بتعدد أسبابها،حيث وصفوا المدن وأجزاءها العمرانية المختلفة كالقصور والجسور والبرك والرياض كما اهتموا بوصف سفنهم ومعاركهم وفتوحهم ومختلف أساليبهم في العيش والترفيه،وحتى وسائل الثقافة وأدواتها...فعكست بذلك أشعارهم الحياة الحضارية المعيشة في العصر العباسي من كل جوانبها. وباعتبار أنّ مدينة بغداد كانت محطة وفود وإعجاب للكثير من الشعراء فمن الطبيعي أن نجدهم يتوقفون عند محاسنها للتغني بجمالها وعظمة قصورها ،كما يبدو ذلك جليا في قصيدة منصور النمري الذي قال:

سُقياً لتلكَ القصورِ الشاهقاتِ وما ... تخفي منَ البَقَرِ الإنسيّةِ العِينِ
مناظرٌ ذاتَ أبوابٍ مفَتَّحةٍ ... أنيقةٍ بزخارفٍ وتزيينِ
فيها القصورُ التي تهوي بأجنحةٍ ... بالزائرينَ إلى القومِ المزورينِ[1]

كما نجد قصيدة أخرى للخريمي يرثي من خلالها مدينة بغداد بعد الفتنة التي دارت بين الأمين والمأمون ،فيذكر مجموعة من المعالم الحضارية التي كانت تزخر بها حيث قال :[2]

يا هَل رأَيت الجِنانَ زاهِرَةً ... يَروقُ عَينَ البَصيرِ زاهرهَا
وَهَل رَأَيتَ القُصورَ شارِعَةً ... تُكِنُّ مثلَ الدُّمى مقاصرُها
وَهَل رأَيت القُرى الَّتي غرس الـ ... أَملاكُ مخضرّة دساكرُها
مَحفوفَةً بالكروم وَالنخل وَالرَّ ... يحان ما يَستَغِلُّ طائِرُها
بزندوَرْدٍ وَالياسِريَّةِ وَالشَّط ... طينِ حَيث اِنتهَت مَعابرها
وَيا ترلحى وَالخَيزُرانيَّة الـ ... عليا التي أَشرفت قَناطِرها

[1]-معجم البلدان،الحموي،دط،دار صادر،بيروت،1977 :1/ 462
[2]-ينظر:اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني هجري،مصطفى هدارة:458.

وَقَصـــرِ عَبدوَيـــه عِبـــرَةٌ وَهُـــدىً لِكُـــلِّ نفـــس زكـــت سَـــرائرُها [1]

نلاحظ أنّ الشاعر يبكي مدينة بغداد في هذا الجزء من قصيدته من خلال ملامحها الحضارية ،فيتوقف عند حسن الجنان الزاهرة وعند القصور العالية ،وحتى عند القرى التي عني بها الخلفاء فأصبحت محفوفة بالأشجار والأزهار ،ومهما يكن من أمر فإنّ الشاعر قد عدد المنجزات الحضارية في العصر العباسي ،وخص بالذكر مدينة بغداد باعتبارها كانت مركز الخلافة الإسلامية. ولكن يبدو أنّ بعض الشعراء قد فتنوا بجمال سامراء حتّى فضلوها على بغداد ،مثلما فعل ذلك حسين بن الضحاك في قصيدته التي قال فيها:

سُـــرَّ مـــن را أســـرُّ مـــن بغـــدادِ، فالـــهُ عـــن بعـــض ذكرهـــا المُعتـــادِ
حبَّـــذا مســـرحٌ لهـــا لـــيس يخلـــو أبـــــدا مـــــن طريـــــدةٍ وطـــــرادِ
وريـــــاضٌ كأنمـــــا نشـــــر الزهـــــ رُ عليهـــــا محبـــــرَ الأبـــــرادِ
واذكـــر المشـــرفَ المطـــلَّ مـــن الـــ تـــلِّ علـــى الصـــادرين والـــورادِ
واذا روّح الرّعـــــاءُ فـــــلا تنـــــ س رواعـــــي فراقـــــدِ الأولاد[2]

يبدو أنّ الشاعر قد فضل مدينة سامراء على بغداد لأنّه يراها أنسب للصيد وللرعي منها ،ويجد أنّ رياضها أكثر حفاوة بالأزهار ،ثم يلتفت إلى جبلها العالي ،فيجد فيها جوا ملائما يتناسب مع طبعه.

[1]-تاريخ الرسل والملوك،الطبري:449/8.
[2]-معجم البلدان،الحموي،ج3 :176

1-وصف القصور

اشتملت معظم دواوين الشعراء العباسيين ،ولاسيما شعراء البلاط والتكسب،قصائد في وصف بهجة قصور الممدوحين وعظمتها ،بغاية إرضائهم والنيل من عطاياهم،ولقد اشتهرت ثلة من الشعراء في هذا المجال ؛نذكر منهم :البحتري ،وعلي بن الجهم ،وابن المعتز ،وأشجع السلمي ،ومنصور النمري...ولقد استوقفتني العديد من المحطات الشعرية التي بذل أصحابها أقصى قواهم الإبداعية من أجل إعادة بناء تلك التحف الفنية بالكلمات المعبرة والعبارات الموحية. وقصيدة وصف علي بن الجهم للقصر الهاروني واحدة من تلك القصائد التي أبدع من خلالها في تصوير عظمة بناء القصر بعظمة الحضارة العربية الإسلامية ،حيث قال:

مـــا زِلـــتُ أَســـمَعُ أَنَّ المُلـــوكَ تَبنـــي عَلـــى قَـــدرِ أَخطارِهـــا
وَأَعلَـــمُ أَنَّ عُقـــولَ الرِجـــال يُقضـــى عَلَيهـــا بِآثارِهـــا
فَلِلـــرومِ مـــا شـــادَهُ الأَوَّلـــونَ وَلِلفُـــرسِ مَـــأثورُ أَحرارِهـــا
فَلَمّـــا رَأَينـــا بِنـــاءَ الإِمـــامِ رَأَينـــا الخِلافَـــةَ فـــي دارِهـــا
وَكُنّـــا نَعُـــدُّ لَهـــا نَخـــوَةً فَطَأَمَنـــتَ نَخـــوَةَ جَبّارِهـــا
وَأَنشَـــأَتَ تَحـــتَجُّ لِلمُســـلِمينَ عَلـــى مُلحِـــديها وَكُفّارِهـــا
بَـــدائِعَ لَـــم تَرَهـــا فـــارِسٌ وَلا الـــرّومُ فـــي طـــولِ أَعمارِهـــا[1]

ثم يتوقف الشاعر مليا ليترصد مظاهر الجمال والإبداع اللذين تميز بهما هذا القصر العظيم ،ليصف صحونه وقبته الشفافة في قوله:

صُـــحونٌ تُســـافِرُ فيهـــا العُيـــونُ وَتَحسِـــرُ عَـــن بُعـــدِ أَقطارِهـــا

[1]-ديوانه،تحقيق:خليل مروم بك،ط2،دار الآفاق الجديدة،بيروت،1980 :28

وَقُبَّـــةُ مُلـــكٍ كَـــأَنَّ النُجـــو مَ تُفضـــي إِلَيهـــا بِأَســـرارِها
تَخِـــرُّ الوُفـــودُ لَهـــا سُـــجَّداً إِذا مـــا تَجَلَّـــت لِأَبصـــارِها
إِذا لَمَعَـــت تَســـتَبينُ العُيـــو نُ فيهـــا مَنابِـــتَ أَشـــفارِها
وَإِن أوقِـــدَت نارُهـــا بِـــالعِرا قِ ضـــاءَ الحِجـــازَ سَـــنا نارِهـــا[1]

ثم يلتفت الشاعر إلى شرفات القصر المرصعة وإلى رواقه المنقوش وسطحه الشاهق وفوارته فيقول:

لَهـــا شُـــرُفاتٌ كَـــأَنَّ الرَبيـــعَ كَســـاها الرِيـــاضَ بِأَنوارِهـــا
نَظَمَـــنَ الفُسَـــيفُسَ نَظـــمَ الحُلِـــيّ لِعـــونِ النِســـاءِ وَأَبكارِهـــا
فَهُـــنَّ كَمُصـــطَبِحاتٍ بَـــرَزنَ بِفِصـــحِ النَصـــارى وَإِفطارِهـــا
فَمِـــنهُنَّ عاقِصَـــةٌ شَـــعرَها وَمُصـــلِحَةٌ عَقـــدُ زُنّارِهـــا
وَسَـــطحٍ عَلـــى شـــاهِقٍ مُشـــرِفٍ عَلَيـــهِ النَخيـــلُ بِأَثمارِهـــا
وَفَـــوّارَةٍ ثَأرُهـــا فـــي السَـــماءِ فَلَيسَـــت تُقَصِّـــرُ عَـــن ثارِهـــا
تَـــرُدُّ عَلـــى المُـــزنِ مـــا أَنزَلَـــت عَلـى الأَرضِ مِن صَوبِ مِدرارِها[2]

لقد وصف علي بن الجهم القصر الهاروني وصفا دقيقا وشاملا ،فتوقف عند كل جزء من أجزاء القصر وقفة تأمل وإعجاب ،فنجده يلتفت إلى صحون القصر الواسعة وإلى شموخ قبته التي يتخيلها تكاد تعانق النجوم من شدة ارتفاعها ،ثم يتوقف عند شرفاته المزخرفة بالفسيفساء وعند عمق نافورته وغزارة مياهها. فهو بذلك يرسم لنا فخامة هذا القصر بالكلمة المعبرة والعبارة المنتقاة ،وينفخ الروح والحركة في أجزائها،حتى تتبادر اللوحة الفنية كاملة في أذهاننا.

[1]- المرجع السابق:29
[2]-المرجع نفسه:29 وما بعدها

ولقد نبغ البحتري كذلك في هذا المجال ،وله قصيدة رائعة في وصف قصر الزّو المتحرك الذي بناه المتوكل والذي كان يستعمل في أيام الفراغ والمتعة والصيد[1] ،قال في إحدى مدائحه للخليفة المتوكل:

أبَـــى يَوْمُنَـــا بـــالزَّوّ إلاّ تَحَسّـــناً لَنَـــا بِسَـــمَاعٍ طَيّـــبٍ وَمُـــدامِ
غَنِينَـا عَلـى قَصْـرٍ يَسِـيرُ بِفِتْيَـةٍ قُعُـودٍ عَلَـى أرجَائِـهِ وَقِيَـامِ
تَظَـلُّ البُـزاةُ البِـيضُ تَخْطَـفُ حَوْلَنـا جَـآجِىءَ طَيْـرٍ فـي السّـمَاءِ سَـوَامِ
تَحَـدَّرُ بالـدُّراجِ مـن كُـلّ شَـاهِقٍ، مُخَضَّـــــبَةٌ أظْفَـــــارُهُنّ دَوَامِ
فَلَـمْ أرَ كالقَـاطُولِ يَحْمِـلُ مـاؤهُ تَـدَفُّقَ بَحْـرٍ بالسّـمَاحَةِ طَـامِ
وَلاَ جَـبَلاً كَـالزَّوّ يُوقَـفُ تَـارَةً وَيَنْقَـادُ إمّـا قُدْتَـهُ بِزِمَـامِ[2]

لقد وصف البحتري في قصيدته هذه ضخامة قصر الزو الذي كان ينساب على نهري دجلة والقاطول ،ويبدو أنّ الشاعر قد رافق الخليفة المتوكل في نزهته الممتعة على متن هذا القصر المتحرك الذي شبهه بالجبل نظرا لعظمته وشموخه. وذكر عظمة هذا القصر تارة أخرى في إحدى مدائحه للخليفة المعتز ،وهذا ما يؤكّد على أنّ هذا القصر كان "إرثا لملوك بني عباس ،ملكا بعد ملك يتوارثونه ."[3] قال في قصيدته:

تَعَجّبْـتُ مِـنْ فِرْعَـوْنَ إذْ ظَـنّ أنّـهُ إلَـهٌ لأنّ النِّيـلَ مِـنْ تَحْتِـهِ يَجْـرِي
وَلَـوْ شـاهَدَ الـدّنْيا وَجـامِعَ مُلْكِهَـا لَقَـلّ لَدَيْـهِ مـا يُكَثَّـرُ مِـنْ مِصْـرِ
وَلَـوْ بَصُـرَتْ عَيْنَـاهُ بـالزّوّ لازْدَرَى حَقِيـرَ الـذي نَالَـتْ يَـداهُ مِـنَ الأمْـرِ
إذاً لَـرَأى قَصْـراً علـى ظَهْـرِ لُجّـةٍ، يَـرُوحُ وَيَغـدُو فَـوْقَ أمواجِهـا يَجـرِي

[1]-ينظر:وصف القصور في الشعر العباسي،ثروت أحمد محمود وهدان،إشراف:ابراهيم الخواجة،جامعة النجاح الوطنية،فلسطين،2003 :62

[2]- ديوانه:2001،2002

[3]-الشعر والشعراء في العصر العباسي،مصطفى الشكعة:721.

تُصَادُ الوُحُوشُ في حِفَافِي طَرِيقِهِ، وَتُسْتَنزَلُ الطّيرُ العَوَالي عَلى قَسْرِ[1]

في هذه الأبيات دلالة واضحة على سخرية الشاعر من فرعون الذي على الرغم من كل ما عرف به من قوة ومجد إلاّ أنه لم يحظى برحلة ممتعة كالتي حظي بها المعتز على متن هذا القصر الضخم المتحرك.

وللبحتري قصائد كثيرة في وصف القصور الثابتة كالكامل والمعشوق والمشوق والساج والجوسق والبديع والصبيح وقصور الفتح ،كما له قصيدة في وصف قصر الجعفري في سامراء التي قال فيها:

قد تَمَّ حُسْنُ الجَعْفَرِيّ ،ولم يكن لِيَتِمَّ إلاّ بالخَلِيفَةِ جعْفَرِ
مَلِكٌ تَبَوَّأَ خَيْرَ دارِ إقامةٍ في خَيْر مبدى للأَنَامِ ومَحْضرِ
في رأْسِ مُشْرِفةٍ حَصَاهَا لُؤْلُؤٌ، وتُرابُهَا مِسْكٌ يُشَابُ بعَنْبرِ
مُخضَرّةٌ ،والغيْثُ ليس بسَاكبٍ، ومُضِيئَةٌ ،واللَّيلُ ليس بمُقْمِرِ[2]

ثم نجده يتغنى بشموخ القصر وعظمته فيقول:

فرفَعتَ بُنيَانا كأنَّ زُهاءهُ أعلامُ رضْوَى أو شواهقُ صَنْبرِ
أَزْرَى على هِمَمِ المُلُوكِ وغَضَّ من بُنْيانِ كِسْرَى في الزَّمَان وقَيْصرِ
عالٍ على لحْظِ العُيُونِ كأنَّما يَنظُرْنَ منه إلى بَيَاضِ المُشْتَرِى
مَلأَتْ جَوَانبُهُ الفَضَاءَ،وعَانقَتْ شُرُفاتُه قِطَعَ السَّحَابِ المُمْطِرِ
وتَسِيرُ دجْلَةُ تَحْتَه، ففِنَاؤُهُ من لُجّةٍ غَمْرٍ ورَوْضٍ أَخْضَرِ
شَجَرٌ تُلاعِبُهُ الرِّياحُ،فتَنثَنِى أعطافُه في سائحٍ متفَجِّرِ[3]

إنّ انبهار البحتري بعظمة القصر جلي في قصيدته ،حيث نجده يقارن شموخه بجبال رضوى وشواهق صبير ،ويبدو أنه استحضر قصور كسرى إلى حضرة

[1]-ديوانه:1053
[2]-المرجع نفسه:1040
[3]-المرجع نفسه:1041

مخيلته،فوجدها أصغر من أن تقارن بهذا القصر الذي يفوقها سموا وجمالا ،ثم يشير بعد ذلك إلى مياه دجلة التي تجري من تحته ،وإلى الجنائن والرياض التي زادت القصر جمالا وبهاءً.

وعرف ابن المعتز بقصائده المتنوعة في وصف قصور بني عباس ،والقصيدة التي بين أيدينا تعكس مدى إعجاب الشاعر بقصر الثريا حين تغنى به قائلا:

مـــــا لِلثُرَيّـــــا شَـــــبيهٌ فيمـــــا بَنـــــى قَـــــطُّ بـــــانِ
حيطانُـــــــهُ مِـــــن نـــــورٍ وَالسَـــــقفُ مِـــــن نيـــــرانِ
وَالصَـــــــحنُ يـــــــاقوتُ دُرٍّ لِلعَـــــينِ فـــــي جِنـــــانِ
وَالمـــــاءُ يَعـــــدو عَلَيهـــــا فـــــي جَـــــدوَلٍ رَيّـــــانِ[1]

لقد تغنى الشاعر بقصر الثريا الذي لم يجد له مثيلا ،فشبه حيطانه بالنور لنصاعة بياضها ،وسقفه بالنيران لشدة إضاءته ،ثم وصف ساحات القصر التي أضفت عليها البرك والأنهار أبهة وجمالا.

ولأشجع السلمي قصيدة مدح وصف من خلالها قصر الرشيد في الرقة ،حيث قال:

قَصـــرٌ عَلَيـــهِ تَحِيَّـــةٌ وَسَـــلامُ نَثَـــرَت عَلَيـــهِ جَمالَهـــا الأَيّـــامُ
قَصـرٌ سُـقوفُ المُـزنِ دونَ سُـقوفِهِ فيـــهِ لِأعـــلامِ الهُـــدى أَعـــلامُ
نَشَـرتَ عَلَيـهِ الأَرضُ كِسـوَتَها الَّتـي نَسَـــجَ الرَبيـــعُ وَزَخـــرَفَ الإِرهـــامُ[2]

يجد الشاعر أنّ مرور الأيام تزيد هذا القصر جمالا ،ثم يلتفت إلى علوه وشموخه ثمّ إلى كسوته التي نسجها الربيع بألوانه المتباينة. فهو بذلك يرسم لنا صورة حية ومنسجمة حول مظهر القصر الخارجي.

[1]-ديوانه ،تقديم:كرم البستاني،دط،دار صادر،بيروت،دت: 431
[2]-أشجع السلمي،حياته وشعره،الحسون خليل،ط1،دار المسيرة،بيروت،1981: 252.

يتضح مما سبق أنّ الشعراء العباسيين قد نجحوا في تجسيد مظاهر حضارتهم المادية بامتياز ،فنظروا إلى حسن القصور وعظمتها نظرة فنّية راقية عبرت عنها ألفاظهم المنتقاة وعباراتهم الموحية التي جعلت من القصيدة صورة حية لآثارهم المعمارية.

2- وصف الجسور والبرك

لقد اهتم الخلفاء العباسيون منذ تأسيس مدينة بغداد بإنشاء الجسور لعبور نهر دجلة وتأمين الاتصال بين الجانبين الشرقي والغربي للمدينة ،وذلك لأهداف إدارية واجتماعية واقتصادية[1]. ولقد أعجب الشعراء بهذه الجسور باعتبارها مظهرا حضاريا جديدا ،فأبدعوا في وصفها ،كما يظهر ذلك جليا في الأبيات التي قالها علي بن فرج الشافعي:

أيـا حبَّـذا جسـرٌ علـى مَـتنِ دجلـة بإتقــانِ تأســيسِ وحُســنِ رَوْنَــقِ
جمــالٌ وفخــرٌ للعــراق ونزهــة وسـلوةُ مَـن أضـنـاه فَـرطُ التشـوّقِ
تــراه إذا مــا جئتــه متــأملاً كشطر عَبير خُطَّ في وسط مَفْرَق[2]

يتأمل الشاعر هذا الجسر الذي أقيم على متن دجلة بإعجاب ،فهو يجد بناءه في غاية الإتقان ومظهره في غاية الروعة والجمال وكأنه جزء من أخلاط طيب خُطَّ في وسط مفرق ،فهو فعلا يستحق أن يكون مكانا للتنزه والسلوى ولاسيما لمن أراد أن يشفي شوقه بجمال هذه المناظر الخلابة.

وقال علي بن الحسين في وصفه كذلك:

يـومٌ سـرقنا العـيش فيـه خِلْسَـة فــي مجلــس بفنــاء دجلــة مفــرَدِ
رقَّ الهــــواء برَقَــــةٍ قدَّامــــهُ فغــدوت رقــاً للزمــان المُسْــعِدِ
فكــأنّ دِجلــةَ طيلســانٌ أبــيضٌ والجسـرُ فيهـا كـالطراز الأسـودِ[3]

يحس الشاعر بسعادة عارمة وهو جالس بفناء دجلة مستمتعا بهوائها العذب ومتأملا شكل الجسر وهيئته بالنسبة للنهر ،فيشبهه بالطراز الأسود الذي يزين الوشاح

[1]-جسور بغداد في العصر العباسي،خلود مصطفى خماس،مجلة الدراسات التاريخية والحضارية،المجلد5،العدد17،الرصافة،حزيران2013: 215.
[2]-تاريخ بغداد،الخطيب البغدادي:438/1
[3]-المصدر نفسه:ن ص

الأبيض ،وهذا ما يدل على إعجاب الشاعر بالتناسق والتناغم الموجود بين الجمال الطبيعي والتأنق الحضاري.

وهذا أبو فراس تتأمل روحه الإبداعية هيأة الجسر بالنسبة لنهر دجلة فيقول:

كَأَنَّمـــا المـــاءُ عَلَيـــهِ الجِســـرُ دَرجُ بَيـــاضٍ خُـــطَّ فيـــهِ سَـــطرُ
كَأَنَّنـــا لَمّـــا اِســـتَتَبَّ العَبـــرُ أُســرَةُ موســى يَـومَ شُـقَّ البَحـرُ [1]

كما شغُف الخلفاء العباسيون بإقامة البرك في قصورهم الفاخرة حتّى تزيدها فخامة وعظمة ،وأضفوا عليها من الزينة والمحاسن ما صنع منها تحفا فنّية تستحق الوقوف ،فلم يفوّت الشعراء فرصة التغني بها في أشعارهم ،كما فعل ذلك البحتري في هذه الأبيات التي وصف من خلالها بركة المتوكل ،فراح يصف اتساعها وجمالها وانسكاب الماء فيها فقال :

يـا مـن رأى البركـةَ الحسـناءَ رُؤيتَهُا والآنساتِ إذا لاحـــــتْ مَغانِيهـــا
بِحسْـبِهَا أنّهـا مِـن فَضْـلِ رُتْبَتِهـا تُعـدُّ واحـــدةً،والبَـــحرُ ثانيهـــا
مـا بـالُ دجلَـة كـالغَيْرَى تُنافسهـا في الحُسنِ طَـوْرَاً ،وأطـواراً تُباهيها
تَـنحطُ فيهـا وفـودُ المـاءِ مُعْجَلَـةً كالخيـلِ خارجـةً مـن حبـلِ مجُريهـا
كأَنَّمـا الفضـةُ البيضـــاءُ سائلـةً مـن السـبائكِ تجَـرْي فـي مجاريهـا
إذا عـلَتها الصّـبا أبـدتْ لهـا حُبُكـاً مثـلَ الـجواشِنِ، مصـقولاً حواشـيها[2]

ثم تفنن الشاعر في نعتها ،فتعرض لأثر الشمس والمطر عليها ،كما وصف أسماكها وأبهتها وسط البساتين والرياض فقال:

فـرونقُ الشـمسِ أحيانـاً يُضـاحكها ورِّيـــقُ الغيـــث أحيـــاناً يباكيهـــا

[1]-يتيمة الدهر،الثعالبي،تحقيق:مفيد محمد قميحة،ج1،،ط1،دار الكتب العلمية،لبنان،1983 :81 ،82
[2]-ديوانه:2416

إذا النـــجومُ تـــراءت فـــي جوانبهـــا ... ليـــلاً حسبـــتَ ســـماءً رُكّبـــتْ فيهـــا

لا يَـبلُغ السَّـمَكُ المحصـورُ غايتهـا ... لبُعـد مـــا بيـــن قاصـــيها ودانيهـــا

يَعُمْـــنَ فـــيها بأوســـاطٍ مجنَّحـــةٍ ... كالطيـــر تـنفضُّ فـي جـوٍّ خوافيهـا

صـورٌ إلـى صـورة الـدُّلفين يؤنسهـا ... منـــه انـــزواءٌ بـعـــينه يوازيـهـــا

مَحفـــوفةٌ بريـــاضٍ لا تـــزالُ تَـــرَى ... ريشَ الطّواويسِ تَحكيه ويحكـيها[1]

نلاحظ أنّ وصف الشاعر للبركة قد شمل جميع جوانبها وكل أحوالها ،فتجسدت لقارئها بصورة حية متكاملة ومنسجمة حركة وألوانا.

ولعلي بن الجهم كذلك قصيدة في وصف بركة الهاروني ،حيث قال فيها:

أَنشَـــــأتَها بِركَـــــةً مُبارَكَـــــةً ... فَبـــــارَكَ اللهُ فـــــي عَواقِبِهـــــا

حُفَّـت بِمـا تَشـتَهي النُفـوسُ لَهـا ... وَحـــارَتِ النـــاسُ فـــي عَجائِبِهـــا

لَـــم يَخلُـــقِ اللهُ مِثلَهـــا وَطَنـــاً ... فـــي مَشـــرِقِ الأَرضِ أَو مَغارِبِهـــا

كَأَنَّهـــا وَالرِيـــاضُ مُحدِقَـــةٌ ... بِهـــا عَـــروسٌ تُجلـــى لِخاطِبِهـــا

مِـــن أَيِّ أَقطارِهـــا أَتَيـــتَ رَأَيـــ ... تَ الحُســـنَ حَيـــرانَ فـــي جَوانِبِهـــا

لِلمَـــوجِ فيهـــا تَلاطُـــمٌ عَجَـــبٌ ... وَالجَـــزرُ وَالمَـــدُّ فـــي مَشـــارِبِها

قَـــــدَّرَها اللهُ لِلإِمـــــامِ وَمـــــا ... قَـــدَّرَ فيهـــا عَيبـــاً لِعائِبِهـــا[2]

تحدث الشاعر عن بهاء هذه البركة وتميزها التي اجتمعت فيها كل الصفات التي تشتهيها النفوس ،وكأنها عروس بين تلك الرياض المحاطة بها ،فالحسن قد شمل جميع جوانبها حتّى يعجز المتأمل في جمالها الإحاطة بكل مناظرها.

[1]-المرجع السابق:2418 وما بعدها

[2]-ديوانه:32

ولأشجع السُّلمي قصيدة في وصف النهر الصناعي التي أقامه الرشيد والتي قال فيها :

أَجـــرى الإمـــامُ الرَشـــيدُ نَهـــراً عـــــاشَ بِعمرانـــــه المَـــــواتُ

أَلقَمَـــــــــهُ دُرَّةً لَقوحـــــــــاً يُرضِـــــعُ أَخلافَهـــا النَبـــاتُ[1]

وهذا ما يدل على المستوى الحضاري المتقدم التي بلغته الدولة العباسية بفضل خلفائها العظام الذين جعلوا من بغداد مدينة في غاية الجمال والكمال ،ولعل إقامة الرشيد لهذا النهر الصناعي(بغض النظر عن الأهداف التنظيمية) يعود إلى نظرته الفنية الراقية التي تهوى المناظر الطبيعية الخلابة المفعمة بالحياة والاخضرار.

[1]-الأغاني :18/ 182

3-وصف السفن:

يعد بناء السفن والزوارق من المظاهر الحضارية التي عرفت بها الحضارة العباسية،ولقد استخدمت هذه المراكب لأغراض شتى ،فاتخذت كوسيلة عبور بين جانبي دجلة،كما اتخذت للسفر والتجارة والنزهة واللهو والقتال ،وصممت على أشكال حيوانات مختلفة :برية وبحرية.[1] ولقد اشتهرت مجموعة من الشعراء في وصف هذه السفن والتغني بأشكالها المتباينة :كأبي نواس ،وبشار بن برد ،ومسلم بن الوليد ،وحسين بن الضحاك وأبو الشيص وابن الرومي...

قال أبو نواس في إحدى مدائحه للخليفة الأمين واصفا زورقين ،أحدهما في صورة أسد والآخر في صورة عقاب:

سَـــخّرَ الله للأمِـــينِ مطايـــا ... لـــم تســـخَّرِ لصـــاحب المحـــرابِ
فـــإذا مـــا رِكابُـــهُ سِـــرْنَ بَـــرّاً ... ســار فــي المــاءِ راكبــاً ليــثَ غــابِ
أســـدا باســـطاً ذارعيْـــهِ يهـــوى ... أهْـــرتَ الشِّـــدقِ كـــالحَ الأنيـــابِ
عجِـبَ النّـاسُ إذا رأوك علـى صـو ... رةِ ليـــثٍ تمـــرُّ مـــرّ السّـــحابِ
ســـبّحوا إذا رأوكَ ســـرْتَ عليـــهِ، ... كيـفَ لـوْ أبصـرُوك فـوْق العُقـابِ
ذاتُ زَوْرٍ ومِنْسَـــــرٍ وجَناحيْـــــ ... ـن تشُـقّ العبـابَ بعـد العُبـابِ
تسبقُ الطّيرَ في السماءِ ، إذا ما است ... ـــتَعْجلوها بجِيئَـــةٍ وذهـــابِ[2]

امتدح الشاعر الخليفة الأمين بما سخر له من سفن على أشكال مختلفة ،ثم عظم ممدوحه حينما أشار إلى أنّها لم تسخر حتّى لسيدنا سليمان (عليه السلام) ؛وفي هذه القصيدة إشارة واضحة على تفنن العباسيين وتأنقهم في بناء السفن ،وحرصهم على

[1]-ينظر:مظاهر المجتمع وملامح التجديد من خلال الشعر في العصر العباسي الأول،مصطفى بيطام،دط،ديوان المطبوعات الجامعية،الجزائر،1994 :39.
[2]-تاريخ الرسل والملوك،الطبري،ج8 :509

مظهرها الخارجي ،فتغنى الشاعر بالسفينتين :الأولى التي اتخذت شكل الليث ،والثانية التي جاءت على شكل عقاب ،ثم أشار إلى سرعتهما بأبلغ العبارات وأحسن التشبيهات.

وفي قصيدة أخرى نجده يصف زورق الأمين الذي جاء في شكل دلفين فقال:

قَـد رَكِـبَ الـدُلفينَ بَـدرُ الـدُجى مُقتَحِمـاً لِلمـاءِ قَـد لَجَّجـا
فَأَشـرَقَت دِجلَـةُ مِـن نـورِهِ وَأَسـفَرَ الشَـطّانِ وَاسـتَبهَجا
لَـم تَـرَ عَينـي مِثلَـهُ مَركَبـاً أَحسَـنَ إِن سـارَ وَإِن عَرَّجـا
إِذا اسـتَحَثَّتهُ مَجاذيفُـهُ أَعنَـقَ فَـوقَ المـاءِ أَو هَملَجـا
خَـصَّ بِـهِ اللهُ الأَمـينَ الَّـذي أَضـحى بِتـاجِ المُلـكِ قَـد تُوِّجـا[1]

إنّ إعجاب الشاعر بزورق الأمين الذي جاء على شكل دلفين جلي في قصيدته،فهو لم يفوت فرصة وصفه والتغني بنوره الذي أضاء جانبي دجلة فأضفى عليهما فرحة وابتهاجا ،كما أشار إلى حسن سيره وإلى مدى سرعته وسط النهر ،فوصفه بالتاج الذي خص به الله الأمين دون غيره.

كما تغنى بشار بن برد بسفينة المهدي التي وصفها بالعذراء نظرا لقوّتها وعظمتها وسرعتها فقال فيها:

وعـذراءَ لا تجـري بلحـمٍ ولا دمٍ بعيدة شكوى الأيـنِ ملحمـةِ الـدَّبرِ
إذا طَعَنَـت فيهـا القُبـولُ تشمّـصَت بفرسانـهـا لا فـي سـهولٍ ولا وعـرِ
وإنْ قصـدتْ دلّـتْ علـى منتصـبٍ ذليلِ القرى لا شيءَ يفري كما تفري
تُلاعِـبُ نِبْنـانَ البحـورِ وربّـما رأيتَ نفوسَ القومِ من جريها تجري[2]

وللشّاعر قصيدة أخرى صور من خلالها رحلة الهادي من البصرة إلى بغداد بالسفن فقال:

[1]- ديوانه:301/1
[2]- ديوانه:281،280/3

وقُرِّبَــتْ لِمَسِــيرٍ مِنْــكَ يَوْمَئِــذٍ مَرَاكِــبٌ مِنْــكَ لَــمْ تُولَــدْ وَلاَ تَلِــدُ
تغلــي بهــن طريــقٌ مــا بــه أثــرٌ فــي مستوى مــا بــه حـزنٌ ولا جَـدَدُ
لا فــي السـماء ولا فــي الأرض مسـلكها ولا تقـــوم ولا تمشـــي ولا تخـــدُ
وَلا يَــذُقْنَ أكَــالاً مَــا بَقِــينَ وَلاَ يَشْــرَبْنَ مَــاءً وَهُــنَّ الشُّــرَّعُ الْــوُرُدُ[1]

لقد أجاد الشاعر في وصف هذه الرحلة البحرية بامتياز ،حيث اعتمد طريقة المحاجاة التي تعد ضربا من ضروب التشبيه البليغ ،[2]فيذكر ممدوحه بذلك اليوم الذي أتت فيه المراكب والسفن وحملته في رحلته إلى بغداد ،ثم يصف طريق البحر الذي لا أثر به ،ثم يلتفت إلى السفن تارة أخرى ويذكُر أنّها لا تطير في السماء ولا تمشي في الأرض ،ولا تقوم ولا تأكل ولا تشرب ،ليصرح في النهاية أنّ السفن هي المقصودة من هذه المحاجاة.

ولمسلم بن الوليد قصيدة رائعة في وصف سفينة:

كَشَـفتُ أَهاويـلَ الـدُجى عَـن مَهُولِـهِ بِجارِيَــةٍ مَحمولَــةٍ حامِــلٍ بِكــرِ
لَطَمَـتُ بِخَـدَّيها الحَبـابُ فَأَصـبَحَت مُوَقَّفَــةَ الــدایاتِ مَرتومَــةَ النَحــرِ
إِذا أَقبَلَــت راعَــت بِقُنَّــةِ قَرهَــبٍ وَإِن أَدبَـرَت راقَـت بِقـادِمَتَي نَسـرِ
تَجــافى بِهــا النــوتيُّ حتّــى كَأَنَّمــا يَسيرُ مِـنَ الإِشـفاقِ فـي جَبَلٍ وَعـرِ
تَجَلَّجُ عَن وَجهِ الحَبابِ كَما اِنثَنَت مُخَبَّأَةٌ مِـن كِسـرِ سِـترٍ إِلـى سِـترِ[3]

ثم يتفنن الشاعر في نعتها ،فيستمد تشبيهاته لعناصرها الحضارية من الطبيعة،فنجده يشبه مقاذف السفينة بجناحي النسر ،ورجلها بلجام الفرس ،وحبالها بزمام البعير تارة وبجرير الجمل تارة أخرى:

---

[1]- ديوانه: 2/197،198.
[2]-ينظر:المرجع نفسه:2/197.
[3]- شرح الديوان،تحقيق:سامي الدهان،ط3،دار المعارف،القاهرة،2009 :107

أَطَلَّـــت بِمِجـــذافينِ يَعتوِرانِهـــا وَقَوَّمَهـا كَـبحُ اللِجـامِ مِـنَ الـدُبرِ
فَحامَـت قَلـيلاً ثـمّ مَـرَّت كَأَنَّهـا عُقـابٌ تَـدَلَّت مِـن هَـواءٍ عَلـى وَكـرِ
أَنـــافَ بِهاديهـــا وَمَـــدَّ زِمامَهـــا شَـديدُ عِـلاجِ الكَـفِّ مُعتَمِـلُ الظَهـرِ
إِذا ما عَصَت أَرخى الجَريرُ لِرَأسِها فَمَلَّكَهـا عِصـيانَها وَهـيَ لا تَـدري
كَأَنَّ الصَبا تَحكي بِها حينَ واجَهَت نَسيمَ الصَبا مَشيَ العَروسِ إِلى الخِدرِ
فَمـا بَلَغَـت حتّـى اِطِّـلاحِ خَفيرِهـا وَحَتّـى أَتَـت لَـونَ اللِحـا مِـنَ القِشـرِ
وَحَتّـى عَلاهـا المَـوجُ فـي جَنَباتِهـا بِأَرِدِيَـةٍ مِـن نَسـجِ طُحلُبِـهِ خُضـرِ[1]

لقد أجاد الشاعر في وصف هذه السفينة بامتياز ،حيث إنه لم يفوت فرصة التغني بجميع عناصرها ،فما تكاد عينه تقع على جزء من أجزائها إلاّ نجده يتوقف عنده مليا ليترصده حتّى يصفه بدقة وتركيز بالغَيْن. فاكتملت بذلك صورة هذه السفينة العذراء بعبارات الشاعر الموحية وخياله الواسع.

كما وصف حسين بن الضحاك سفينة في نهر الدجلة فقال:

ســـكنا الـــى خيـــر مســـكونةٍ تيمّمهـــا راغـــبٌ مـــن أمـــم
مباركـــــةٌ شـــــاد بنيانهـــــا بخيـــر المـــواطن خيـــر الأمـــم
كـــأنّ بهـــا نشـــر كـــافورةٍ لبَـــرْد نـــداها وطيـــب النَّســـم
كظهـــر الأديـــم اذا مـــا الســـحا بُ صـــاب علـــى متنهـــا وانســـجمْ
مبـــرأة مـــن وحـــول الشـــتاء اذا مـــا طمـــى وحلُـــه وارتكـــم
فمـــا إن يـــزال بهـــا راجـــلٌ يمـــر الهـــوينى ولا يلـــتطم
ويمشـــي علـــى رســـله آمنـــا ســـليم الشـــراك نقـــى القـــدم[2]

[1]- المرجع السابق:109 وما بعدها
[2]-الأغاني:7/149،150

يبدو أنّ وصف حسين بن الضحاك لهذه السفينة يختلف عن باقي القصائد الأخرى ،إذ نجده في هذا المقطع من قصيدته مقتصرا في وصفه على سطح السفينة دون غيرها من العناصر الأخرى ،فنجده في مستهل قصيدته معجبا بعظمة السفينة وبالمشرف على بنائها ،ومفتخرا ببغداد وبالعباسيين على أنهم خير الأمم ،ثم يلتفت الشاعر إلى سطح السفينة الذي يبدو له وكأنه مفروش بالكافور المندى بالبرد والنسيم،أو مثل ظهور الدواب التي ينسجم عليها المطر إذا ما هطل ،فهي خالية من وحول الشتاء التي تتجمع على الأرض ،فتبقى بذلك النعال سليمة والأقدام نقية لكل من ركب على سطحها الآمن.

بعد استشهادنا بهذه المقطوعات الشعرية الحضارية ،يتجلى بيّنا أنّ الشعراء قد تفننوا في نعت السفن والزوارق كمظهر حضاري جديد يثير الفضول والدهشة ،فنجدهم يقفون متأملين قوتها وضخامتها وسرعتها تارة ،وأشكالها المتباينة وعناصرها المختلفة تارة أخرى.

4-وصف الرياض والورود

لقد تفنن الشعراء العباسيون في وصف الرياض والحدائق كغيرها من المظاهر الحضارية الأخرى ،لأنها تشكل عنصرا من عناصر الجمال وشرطا من شروط الكمال في جل قصور خلفاء دولة بني عباس وأثريائها ،ويبدو أنّ ابن الرومي قد نبغ في هذا المجال ،وله قصيدة مطولة في وصف روضة بكر العذراء حيث قال فيها:

لهوتُ عن وصف الطلول الدّارسَهْ بروضـــةٍ عــذراءَ غيــر عانسَـــهْ
جــادتْ لهــا كــلُّ ســماءٍ راجســه رائحـــــةٍ بالغيـــث أو مُغالســـه
فأصــبحتْ مــن كــل وشــيٍ لابســه خضــراءَ مــا فيهــا خَــلاة يابســه
كأنمـــا الألســـنُ عنهـــا لاحســـه ضـــاحكة النـــوار غيـــر عابســـه
كأنهـــا جَمـــاجم الشَّمامســـه ذوي القــدود مــن ذوي القَمامســه[1]

ثم يتفنن في وصف أبهتها ،فيتوقف عند مظاهر الجمال التي تميزها قائلا:

تروقــك النَّــورة منهــا الناكســه بعـــينِ يقظى،وبجيـــد ناعســـه
لؤلــؤةُ الطَّــل عليهــا قارســه وخُـــرَّمٌ فـــي صـــبغة الطيالســه
يحكــي الطَّــواويس غــدت مُطاوِســه كأنمـــا تلـــك الفـــروع المائســـه
تَغْمســها فــي الــلاَّزوَرْد غامســه وصـــفوة النعمـــان والقوابســـه
مــن ناصــع الحمــرة رَيّــا قالســه تكــاد تحــت الظلمــات الدامســه
تهــوي إليهــا كــل كــفٍّ قابســه لنعمـــــة الخُلـــــة والمجالســـــه
فــي نفــس مــن شــمْألٍ مُسالســه ليّنـــــة الهَزهـــــاز لا معافســـــه[2]

[1]- ديوانه:193/2
[2]المرجع نفسه:ن ص

يصف الشاعر الروضة بالعذراء لكثرة زهرها وخضرتها ،فهي مغطاة بثياب متنوعة بفضل ما جادت به السماء من رعود وأمطار ،ثم يشبه الزهور المبتهجة برؤوس رجال الدّين النصارى ،ثم يلتفت الشاعر إلى الزهور ذات الأعناق المائلة وإلى الخرّم ذي اللون الأسود ،وإلى مختلف الورود والأزهار المتباينة الألوان التي تجلب إليها الأنظار فتشتهي النفوس قطفها.

وفي قصيدة أخرى يقول:

وريـــاضٍ تخايـــلُ الأرض فيهـــا خُـــيلاء الفتـــاة فـــي الأبـــرادِ
ذات وشـــيٍ تناسَـــجَتْهُ ســـوارٍ لَبقـــــاتٌ بحوْكِـــــه وغـــــوادِ
شـكرتْ نعمـةَ الـوليّ علـى الـوسْ مِـــيّ ثـــمّ العِهـــاد بعـــد العِهـــادِ
فهـــي تُثنـــي علـــى الســـماء ثنـــاء طيّـب النشـر شـائعاً فـي الـبلادِ[1]

يشبّه الشاعر أبهة هذه الرياض بالفتاة التي تتباهى وتتكبر بلباسها الفاخر،فالرياض هي الأخرى مكسية بثياب ذات ألوان زاهية نسجتها قطرات الأمطار الصباحية والمسائية ،ثم يتخيلها تتشكر السماء التي جادت بمطر الربيع الخفيف الذي ينعش النباتات والورود ويزيد من جمالها.

كما وصف ابن المعتز رياض المعتضد متأملا كثرة أشجارها وأنهارها وأزهارها وثمارها في قوله:

جنانٌ،وأشـــجارٌ تلاقـــتْ غصـــونهَا فـأورقنَ بالأثمـارِ والـورقِ الخُضـرِ
تـرى الطيرَّ فـي أغصَـانهنَّ هواتفًا ، تَنَقَّـلُ مـن وَكْـرٍ لهـنَّ إلـى وكـرِ
وأنهـــارُ مـــاءٍ كالسلاســـلِ فُجِّـــرتْ لترضـــعَ أولادَ الريـــاحينِ والزهـــرِ

[1]- ديوانه:437/1

عطايـــا إلـــهٍ مـــنعمٍ كـــانَ عالمًـــا بأنـكَ أوفـى النَّـاس فـيهنَّ بالشـكرِ[1]

إنّ الشاعر يتأمل عظمة الخالق عز وجل من خلال هذه الرياض الزاهية بالأشجار والثمار والتي تبتهج لها الطيور فتغني متنقلة بين أوكارها،ثم يلتفت إلى غزارة أنهارها التي تسقى منها أشكال متباينة من الزهور والورود.

ولقد اهتم العباسيون بتزيين رياضهم وبساتينهم بمختلف أنواع الورود والأزهار المتباينة الألوان ،ولعل هذا هو السبب الذي جعل الشعراء يتأملون هذه المناظر الطبيعية الخلابة ويطلقون العنان لأقلامهم التي تكتب ما تمليه عليهم قرائحهم المتفتحة بالحضارة الجديدة. ولقد كثر الشّعر الذي قيل في هذا المجال ،ونبغ فيه العديد من الشعراء ،نذكر منهم :ابن المعتز ،وابن الرومي ،والحمداوي وغيرهم.

لقد نظم الحمدوي قصيدة رائعة في وصف رياض الربيع المحفوفة بأنواع الورود المختلفة واختلاف ألوانه فقال:

روض أفادتـــه الســـحاب صـــنائعا أضـــحى بهـــا كـــل الـــبلاد ســـعيدا
نشـــأت ســـحابته عليـــه فأنشـــأت نـــــوراً تـــــراه ناشـــــئا ووليـــــدا
فكأنهـــا عـــــدن لـــــدى أكنافـــــه قد نشرت فيه التجار برودا
عـــن أقحـــوان ضـــاحك متبســـم يفتـــر عـــن بـــرد يخـــال عقـــودا
فثغـــوره مـــن لؤلـــؤ ولثاتـــه ذهـــب بريـــق ســـحابة قـــد جيـــدا[2]

ثم تغنى الشاعر بأصناف أخرى من الورود التي تنمق الرياض والبساتين في فصل الربيع كالشقائق والبنفسج والبهار ،فقال:

ومعصـــفرات مـــن شـــقائق ألبســـت مقـــلا تـــرى فيهـــا محـــاجر ســـودا

[1]-شرح الديوان:215
[2]-سلوة الحريف بمناظرة الربيع والخريف،الجاحظ،ط1،مطبعة الجوائب،قسطنطينية،1320هـ:127.

فانهض بطرفك حيث شئت تجد له من عطفه وردا يخال خدودا
تحكي لك الوجنات قد أشعرتها خجـــلا فتشـــرب لونهـــا توريـــدا
قد وشحت أكنافه ببنفسج خنـــث يغـــازل غانيـــات غيـــدا
وتـرى العـذارى مـن بهـار بـاهر للشـــمس تحســـب نظمهـــن فريـــدا
زهـر يظـلّ الطـرف فـي أكنافـه حســـرا لرونقـــه النضـــير باليـــدا
فإذا الرياح مشين فيه ظللن من كســـل النعـــيم رواكعـــا وســـجودا[1]

يتحدث الشاعر في بداية قصيدته عن دور السحاب في جمال هذه الرياض وتنوع ورودها وأزهارها ،ثم يفصل الحديث عن كل نوع من أنواع الورود ،فيشبه زهر الأقحوان بالثغر في ضحكته وابتسامته ،والشقائق بالوجنتين اللتين احمرتا خجلا ،ثم يلتفت إلى البنفسج الذي يجده مدللا يتمايل ليغازل النساء الغنيات بجمالهن وحسنهن،ثم ينظر إلى زهر البهار فيشبهه بالعذارى ،ثم إنّ المتأمل في رونقه لا يستطيع غض النظر عنه ،حتى إنّ الرياح إذا ما هبت حوله خمدت تهاونا من شدة النعيم.

وهذا ديك الجن يتغنى بحسن الورد وإشراقه في قوله:

لـلـوَرْدِ حُسْـنٌ وإِشْـراقٌ إذا نَظَـرَتْ إليـهِ عَـيْنُ مُحِـبٍّ هاجَـهُ الطّـرَبُ
خـافَ المـلالَ إذا دامـتْ إقامَتُـهُ فصـارَ يَظْهـرُ حينـاً ثُـمَّ يَحْتَجِـبُ[2]

ولقد تفنن الشعراء في الشغف بكل نوع من أنواع الورود على حدى وأبدعوا في نعت أقربها إلى نفوسهم ،فنجدهم أميل إلى وصف النرجس والنيلوفر أكثر من أنواع الورود الأخرى ،قال ابن الرومي في إحدى قصائده:

وَ أحسنُ مـا فـي الوجـوهِ العيـونُ و أشـــبه شـــيءٍ بهـــا النـــرجسُ
يظـــلّ يلاحـــظ وجـــه النديـــ ـــم فـــرداً وحيـــداً فيَستأنـــسُ[3]

[1]-المصدر السابق:128
[2]- ديوانه ،تحقيق:مظهر الحجي،دط،إتحاد الكتاب العرب،دمشق،2004 :74
[3]- ديوانه:236/2

ويصف أبو نواس النرجس كذلك في قوله:

لـدى نـرجسٍ غـض القطـاف كأنـه إذا مـــا منحنـــاه العـــيونَ عـــيونُ
مخالفـــة فـــي شـــكلهن فصفـــرة مكـــان ســـوادٍ والبيـــاضُ جفـــون[1]

يبدو أنّ ابن الرومي وأبا نواس قد اتفقا في تشبيههم للنرجس بالعيون ،فابن الرومي يجد فيه أنسة للنديم حينما ينظر إليه ،وأبو نواس يلاحظ شبهه الكبير بالعيون،والفرق بينهما يكمن في حدقته الصفراء التي تكون سوداء في العيون ،أما الجفون فبيضاء في كليهما.

كما وصف ابن الرومي النيلوفر فقال:

يرتـــاح للنَّيْلـــوْفر القلـــب الـــذي لا يســـتفيق مـــن الغـــرام وَجَهْـــدِهِ
والـورد أصـبح فـي الـروائح عبـدَه والنـــرجس النِّيلـــيُّ خـــادمُ عبـــدِهِ
يـا حسـنه فـي بركـةٍ قـد أصـبحتْ محشـــوَّة مســـكاً يُشـــاب بنـــدِّهِ
وكأنـــه فيهـــا قـــد لحـــظ الصِّـــبا ورمـــى المنـــام بِبعْـــده وبصـــدِّهِ
مهجـورُ حـبٍّ ظـلّ يرفـع رأسـه كالمســـتجير بربّـــه مـــن صـــدِّهِ[2]

لقد أصاب الشاعر في تعظيم مكانة النّيلوفر على أنه سلطان الورود والزهور في تلك البركة التي تفوح منها رائحته الزكية ،ويرى فيه سر ارتياح القلوب الغارقة في الوجد والشوق. ووصفه ابن المعتز في قوله:

وبـــركةٍ تزهـــو بـــنيلوفرٍ، ألوانـــهُ بالـــحسنِ منـــعوتَه
نهـــارُهُ ينظـــرُ مـنْ مُقـــلةٍ شاخـــصةِ الأجـــفانِ مبـهوتَه
كأنّـــما كـــلُّ قـــضيبٍ لهُ يحمـــلُ فـي أعـــلاهُ ياقوتـــه[3]

[1]-حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة،السيوطي،تحقيق:محمد أبو الفضل ابراهيم،ج2،ط1،دار إحياء الكتب العربية،1967 :408،409.
[2]- ديوانه:523/1
[3]- ديوانه: 121

يبدو أنّ ابن المعتز كذلك قد استوقفه حسن النيلوفر في هذه البركة ،فتغنى بألوانه الزاهية وبأزهاره التي شبهها بالياقوت.

وما نؤكده أنّ الشعراء العباسيين اهتموا بوصف مظاهر الجمال والرقة في الحضارة العباسية ،والتي تجلت في تلك المناظر الجميلة المتباينة الألوان التي استلهمت عناصرها من الطبيعة الغنّاء ،فتوقفوا عند حسن الرياض تارة متأملين انسجامها ،فوصفوا خضرتها وأنهارها وأزهارها ،وعند بهاء الورود تارة أخرى ناعتين تباين أشكالها وألوانها بأسلوب مشرق وألفاظ عذبة تناسبت مع ليونة مضمونهم الشعري.

5- وصف وسائل الثقافة وأدواتها

لقد ظهر اهتمام خاص من قبل بعض الشعراء العباسيين في وصف وسائل الثقافة المختلفة وأدواتها على إثر بلوغ الحياة الفكرية مرحلة متقدمة من التطور والازدهار إبّان العصر العباسي ،فاهتم بعضهم بوصف القلم والخطوط ،واهتم آخرون بوصف الكتب ،وتجدر الإشارة إلى أنّ هذا النوع من الوصف جديد في الشّعر العربي وهو يمثل ظاهرة حضارية من أهم مظاهر الحضارة العباسية.

أ-وصف الكتب :لقد أسهمت النهضة العلمية التي شهدتها الحضارة العباسية في ظهور العديد من المؤلفات في جميع الفروع المعرفية ،وباعتبار أنّ الأدباء والشعراء كانوا يمثلون الطبقة المثقفة في المجتمع إلى جانب العلماء ،فكان من الطبيعي أن نجدهم يلجأون إليها حتّى يشفون غليلهم ،ولم يستطع بعضهم كتمان شغفهم بها فراحوا يصفونها ويعددون مناقبها ،كما فعل ذلك محمد بن يسير في قوله:

هـم مؤْنسـونَ وأُلاَّفٌ غَنِيـتُ بِهـم ... فلـيس لـي فـي أنـيسٍ غيـرهم أربُ

لله مـــن جلَسَـــاءٍ لا جَليســـهُم ... ولا عشـــيرهُمُ للسُّـــوءِ مرتَقِـــبُ

لا بـادراتِ الأذى يخشـى رفـيقُهُم ... ولا يلاقيـه مـنهم منطـقٌ ذَرِبُ[1]

ثم يشير إلى فضلها بالنظر لما تحمله في طياتها من حكم وآداب وآثار ،فيقول:

أبقَـوا لنـا حِكمًـا تبقـى منافعُهَـا ... أخرى الليالي على الأيامِ وانشعبوا

فـأيّما آدبٍ مـنهم مـددتُ يـدِي ... إليـه فهـو قريـبٌ مـن يـدي كثـبُ

إن شئتُ من محكمِ الآثارِ يرفعُهَا ... إلـى النبـيّ ثقـاتٌ خِيـرةٌ نُجـبُ

أو شـئتُ مـن عـربٍ علمًـا بـأوَّلهمْ ... فـي الجاهليـة أنبتْنـي بـه العـربُ

[1]- الحيوان،الجاحظ:95/1

أو شئتُ من سير الأملاكِ من عجمٍ تُنْبـي وتخبـرُ كيـف الـرأيُ والأدبُ
حتـى كـأني قـد شـاهدتُ عصـرَهُم وقد مَضَتْ دونهم من دَهْرِهُم حِقبُ[1]

إنّ شغف الشاعر بالكتب جلي في قصيدته ،فهو يرى فيهم أمثل الجلساء على الإطلاق ،ويجد نفسه غنيا بأنسهم وألفتهم لما تحمله هذه الكتب من فضائل فيذكر الحكم ومنافعها ثمّ الآداب المختلفة وكذلك ما تنطوي عليه من تاريخ الأمم ،سواء أكانوا عربا أو عجما ،فيبهت الشاعر بمدى تأثيرها عليه ويحس كأنه عاش في تلك الفترة التي مضت عليها عصور وحقب.

هذا ،ووصفها كذلك كلثوم بن عمر العتابي في قوله:

لنـــا نُـــدماءٌ مـــا يُمـــلُّ حـــديثُهُم آمنـــون مـــأمونُونَ غيبًـــا ومَشْـــهَدَا
يفيدوننَا من علمِهِمْ عِلم ما مضى ورأيًـــا وتأديبًـــا وأمـــرا مســـدَّدَا
بـلا علَّـةٍ نَخشـى ولا خـوفِ ريبَـةٍ ولا نَتَقـــى مـــنهم بنانًـــا ولا يـــدَا
فـإنْ قلـتُ هـم أحيـاءٌ لسـتُ بكـاذبٍ وإن قلـتُ هـم مـوتَى فلسـتُ مُفنـدَا[2]

يتحدث الشاعر عن الخير في مجالسة الكتب التي لا تضر بل تنفع وتفيد ، فنستقي منها رأيا وأدبا وعلما وحكمة ،لذا فهو لا يجدها ميتة كما يظنها ضعفاء الرأي وإنّما هي حية لما تنطوي عليه من فوائد.

ب–وصف القلم :لقد اهتم بعض الشعراء العباسيين بوصف القلم باعتباره الأداة الأكثر ملازمة لهم ولغيرهم من العلماء والأدباء ،ولدوره الجليل في حفظ أفكارهم وإبداعاتهم ،وهذا أبو تمام يتغنى بشكله ووظيفته من خلال القصيدة التي مدح فيها محمد بن عبد الملك فقال:

[1]-المصدر السابق:ن ص
[2]-الفهرست،ابن النديم:13

لــك القلــمُ الأعلــى الــذي بِشَــبَاته تصـاب من الأمر الكُلى والمفاصلُ
لــه الخلــواتُ الــلاءِ لــولا نجَيُّهــا لمــا احتفلــت للملــك تلــك المحافــلُ
لُعَــابُ الأفــاعي القــاتلاتِ لُعابُــه وأَرْيُ الجنــى اشــتارته أيــدٍ عواســلُ
لــه ريقَــةٌ طــلٌ ولكــنّ وَقْعَهــا بآثــاره فــي الشــرق والغــرب وابــلُ[1]

تناول الشاعر أهمية القلم في الحياة الانسانية ،وأشار إلى أنه بالرغم من صغر حجمه إلاّ أنه آثاره عمت مشارق الأرض ومغاربها ،باعتباره أساس الوصول إلى حقائق الأشياء ،وسر انتظام أمر الملك ،ثم يواصل في تعداد مناقبه ،وفي تعظيم فضله فيقول:

فصــيح إذا اســتنطقته وهــو راكــب وأعجــم إن خاطبتــه وهــو راجــل
إذا مـا امتطـى الخمس اللِّطـافَ وأفرغتْ عليــه شــعاب الفكــر وهــي حوافــل
أطاعتــه أطــراف القنــا وتقوّضــت لنجــواه تقــويض الخيــام الجحافــل
إذا اســتغزر الــذِّهْنَ الــذكيَّ وأقبلــت أعاليــه فــي القرطــاس وهــي أســافل
وقــد رفدتْــه الخنصــران وشــدّدت ثــلاث نواحيــه الــثَّلاث الأنامــل
رأيــت جلــيلاً شَــأْنهُ وهــو مرهــف ضــنىً وســميناً خطبــه وهــو ناحــل[2]

يؤكد الشاعر على أنّ فائدة القلم تكمن في استعماله لأنّه يغدو دون ذلك مجرد أداة خرساء لا نفع لها ،ثم يوازن بين القلم كسلاح للفكر وبين الرماح في ساحة المعركة فيجده أخطر منها حتّى أنّها تتكسر أمام قوّته وعظمة شأنه ،ولاسيما إذا أمسكه أهل العلم ،فيصبح مصدر أعمال عظيمة بالرغم من صغر حجمه ونحافته.

هذا ،وقد مدحه ابن الرومي فقال:

لعمــرُك مــا الســيفُ ســيف الكمــيّ بـــأخوفَ مـــن قلـــم الكاتِـــبِ

[1]- شرح الديوان،راجي الأسمر:57/2
[2]-المرجع نفسه: 58

لـــــــهُ شـــــــاهدٌ إنْ تأمّلتَـــــــهُ ظهـــرتَ علـــى ســـرّهِ الغائـــبِ

أداةُ المنيـــــةِ فـــــي جانبَيْـــــه فَمِـــنْ مثلِـــهِ رهبـــةُ الراهـــبِ

ســـنانُ المنيّـــةِ فـــي جانـــبٍ وســـيفُ المَنِيَّـــةِ فـــي جانـــبِ

ألـــم تـــر فـــي صـــدره كالســـنان وفـــي الـــرِّدفِ كـــالمُرْهَفِ القاضـــبِ[1]

يؤكد الشاعر أنّ السيف ليس أشد خطرا من القلم ،فالمتأمل في شكله يلاحظ أنه يحمل الرمح في جانب والسيف في الجانب الآخر ،ويبدو أنّ الشاعر أراد بذلك إبراز أهمية القلم على أنه سلاح ضروري في ميدان الفكر مثلما السيف والرمح ضروريان للقتال في ساحة المعركة.

ج-وصف الخط:

اهتم بعض الشعراء بوصف الخطوط ،ولأبي الهلال العسكري بعض المحطات الشعرية في هذا الغرض ،نذكر منها قوله:

الكتـــب عقـــلُ شـــواردِ الكلـــم والخـــطُّ خـــيطُ فرائـــدِ الحكـــم

بـــالخطِّ نظِّـــم كـــلُّ منتثـــر منهـــا وفُصـــلَ كـــل منـــتظمِ[2]

فالكتب تحتوي على نوادر الكلام والحكم التي تنسج بالخط الذي من شأنه أن يجمع ويركب كل متفرق ،ويفصّل ما شاء من الكلام المنتظم. وقال محمد بن اسماعيل في حسن الخط والشكل:

مســـتودع قِرطاســـه حكمـــا كـــالروضِ ميّـــز بينـــه زهـــره

وكـــأنّ أحـــرُف خطـــهِ شـــجر والشـــكلُ فـــي أضـــعافهِ ثمـــره[3]

نستخلص مما سبق أنّ الوصف الحضاري في الشّعر العباسي قد شمل العديد من الموضوعات ،إذ إنه لم يقتصر على وصف مظاهر الثراء والعمران فحسب ،بل

---

[1]-ديوانه:105/1

[2]-ديوان المعاني،أبو هلال العسكري،تحقيق:أحمد حسن بسج،ج2،ط1،دار الكتب العلمية،بيروت،1994 :423

[3]-المصدر نفسه:ن ص

تعدى ذلك إلى وصف مختلف وسائل الثقافة المتاحة إبّان العصر العباسي ،وهذا ما يدل على عظمة الحضارة العربية الإسلامية التي ارتقت بأمتها إلى آفاق الفكر والمعرفة.

6-وصف أساليب العيش والترفيه:

أ-وصف الطعام والشراب:

لقد شغف الشعراء العباسيون بوصف المأكولات والمشروبات المتنوعة التي جاءت مع الحضارات الأجنبية كالقطائف ،واللوزنج ،وسنبوسج ،والهليون ،وأرزية ، والهريسة ،والمضيرة وغيرها... ولقد نبغ ابن الرومي في هذا المجال وله العديد من القصائد في وصف أشهى المأكولات وأطيب المشروبات ،كقوله في اللوزينج:

لا يخطئنـــي منـــك لـــوزينج إذا بـــدا أعجـــب أو عجَّبـــا
يـــدور بالنفخـــة فـــي جامـــه دوراً تـــرى الـــدهن لـــه لولبـــا
مستكشـــف الحشْـــو ،ولكنـــه أرَق جلـــداً مـــن نســـيم الصـــبا
ذِيـــق لـــه اللـــوز فمـــا مـــرةٌ مـــرتْ علـــى الـــذائق إلاّ أبـــى
وانتقـــد الســـكر نقـــاده وشـــارفوا فـــي نقـــده المـــذهبا
فـــلا إذا العـــين رأتهـــا نبـــتْ ولا إذا الضـــرس علاهـــا نبـــا[1]

أنّ الشاعر مغرم بهذا النوع من الحلوى المسمى باللوزينج ،حيث يجده مغرورا في إنائه الذي يدور وهو يتباهى بذهنه المتلولب عليه وبحشوه وبنكهة اللوز وحلاوة ذوقه ؛فالشاعر بذلك قد أجاد في وصف صورة هذه الحلوى بامتياز ،بل جسدها بجميع مكونتها في ذهن القارئ ،مما يجعل النفوس تتوق للاستمتاع بذوقها.

وفي قصيدة أخرى يصف طعاما أكله عند أبي بكر الباقطني فقال:

وســـميطةٍ صـــفراءَ دينارِيـــةٍ ثمنـــاً ولونـــاً زفهـــا لـــك حَـــزْوَرُ
عظمـــتْ فكـــادت أن تكـــون إوزةً ونَـــوتْ فكـــاد إهابهـــا يتفطـــرُ

[1]-مروج الذهب،المسعودي:229/4

ظلْنـــا نقشِّـــر جلـــدها عـــن لحمهـــا وكـــأنّ تبـــراً عـــن لُجـــيْن يُقشَـــر

وتقـــــدّمَتْها قبـــــل ذاك ثَرائـــــد مثـــل الريـــاض بمـــثلهن يُصَـــدَّر

ومـــــدقَّقات كلُّهـــــن مزخـــــرفٌ بـــالبيض منهـــا مُلَسِّـــنٌ ومُـــدَثَّر

وأتـــتْ قطـــائف بعـــد ذاك لطـــائفَ تَرْضـى اللهـاةُ بهـا ويرضـى الحنجـر

ضُـحُكُ الوجـوه مـن الطبـرزَد فوقهـا دمـع العيـون مـن الـدِّهان تُعصّـر [1]

يعبر الشاعر عن إعجابه بالمأكولات المتنوعة التي قدمت له في إحدى الولائم،فيتوقف عند الدجاجة التي قدمها أحد الغلمان فيتغنى بضخامتها وحسن لونها وذوقها ،ثم يذكر أنّ الثرائد والمدققات قدمت قبلها ،ثم أتت القطائف بعد هذه المجموعة المتنوعة من المأكولات ،مما يدل على تأنق العباسيين في ولائمهم والاهتمام بترتيب أطباقهم بالمقبلات أولا ،ثم طبق رئيس ثمّ تحلية.

وفي وصف القطائف يقول أحمد بن يحيى:

قطـــائف قـــد حشـــيت بـــاللّوز والســـكر المـــاذي حشـــو المـــوز

تســـبح فـــي آذي دهـــن الجـــوز ســـررت لمـــا وقعـــت فـــي حـــوزي

سرور عباس بقرب فوز [2]

أما في وصف شراب الدوشاب فيقول ابن الرومي:

إذا أجـــــدْتَ حبَّـــــه وَدِبْسَـــــهُ ثـــم أجـــدتَ ضـــربَه ومَرسَـــهُ

ثـــم أطلـــتَ فـــي الإنـــاءِ حبْسَـــه شـــرب منـــه البـــابلي نفسَـــه [3]

فالشاعر يلمح في هذين البيتين إلى الطريقة الصحيحة لتحضير نبيذ الدوشاب التي تكمن في اتباع الخطوات بإتقان ؛ففي البداية يضاف إليه السكر ويعقد في النار ثمّ يحرك ويدلك في الماء حتّى تنحل أجزاءه ،ثم يوضع في الإناء لمدة طويلة. ويبدو

[1]-ديوانه:41/2.

[2]-مروج الذهب،المسعودي:228/4

[3]-المصدر نفسه:230.

أنّ العباسيين كانوا يهتمون بالنقش والزخرفة على أواني الشراب ،وهذا ما يبدو جليا من خلال قول أبي نواس:

تَـدورُ عَلَينـا الـراحُ فـي عَسـجَدِيَّةٍ حَبَتْهـا بِـأَلوانِ التَصـاويرِ فـارِسُ[1]

ب- وصف اللباس وأدوات الزينة:

إنّ تأنق العباسيين في اللباس أمر طبيعي بالنظر إلى عظمة حضارتهم ،ولعل التفات الشعراء إلى هذه الظاهرة الحضارية قد يعود إلى استغرابهم لها لجدتها أو إعجابا بها ،ولكن ما يهمنا نحن من هذا الموضوع هو ما نقله لنا الشعراء العباسيون (بقصد أو بغير قصد) حول المستوى المعيشي الذي بلغته حضارتهم. قال أبو دلامة:

وكُنَّـا نُرَجِّـي مِـن إمـامٍ زيـادَةً فجـاد بطـول زاده فـي القلانِـسِ
تَرَاهـا عَلَـى هَـامِ الرِّجـالِ كأنَّهـا دِنَـانُ يَهُـودٍ جُلِّلـت بـالبَرانِسِ[2]

إنّ التأنق في اللباس جلي في هذه المقطوعة الشعرية ،فبالرغم من استهتار الشاعر (أبو دلامة) بالخليفة إلاّ أنه يقر بمظهر حضاري جديد يتمثل في اهتمام الخلفاء بالشكل الخارجي ،ويبدو أنّ الشاعر مستغرب من هذه الظاهرة التي سنها الخليفة والتي تتمثل في زيادته لطول القلانس فيشبهها فوق رؤوس الرجال ببراميل اليهود.

وهذا ابن الرومي يصف ثيابا مطرزة فيقول:

وقـد نشـرتْ أيـدي الجنـوبِ مطارفـاً على الجو دُكناً وهي خضر على الأرضِ
يطرّزهـا قـوسُ السـماءِ بحمـرةٍ على أخضرٍ في أصفرٍ وسط مُبيضّ

[1]- ديوانه:184/3
[2]-الأغاني:189/10

كأذيـــالِ خَـــودٍ أقبلـــتْ فـــي غلائـــلٍ مُصبَّغةٍ والبعضُ أقصرُ من بعضِ[1]

هذا ،وقد استقطبت أدوات الزينة التي كانت ترتديها النساء نظر الشعراء الذين راحوا يتغنون بأصنافها كما فعل ذلك أحمد بن صدقة الذي قال في إحدى قصائده:

ظبـــــــــاءٌ كالـــــــــدَّنانير مِـــــــلاحٌ فـــي المـــقاصـــيرِ
جلاهُـــــــــنَّ السَّعـــانيـــــنُ علينـــــا فـــي الزَّنـــانيـــر
وقـــــد زرَّفـــــنَ أصـــداغـــاً كأذنـــــــابِ الـــزَّرازيـــــرِ
وأقبَـــلـــــنَ بـــأوســـــــاطٍ كأوســـــــاطِ الزَّنـــابيـــــرِ[2]

لقد عبر الشاعر في أبياته هذه عن إعجابه بالوصيفات اللائي دخلن على المأمون مزينات بالدّيباج الرومي ،وفي أعناقهن صلبان الذهب ،وفي أيديهن الخوص والزيتون.

ج-وصف وسائل الترويح والتسلية:

لقد وجد العباسيون في خضم حياتهم الحضارية مجالا واسعا للترويح عن أنفسهم ولاسيما بعدما تعددت وسائل التسلية بتعدد الروافد الأجنبية التي كان لها أكبر الأثر على الحضارة العباسية ،ولقد عكس الشّعر العباسي العديد من المحطات التي توقف الشعراء فيها على الأساليب المختلفة في مجال التسلية وما صاحبها من وسائل.

*الشطرنج:

حظيت لعبة الشطرنج باهتمام بارز في العصر العباسي ،ولاسيما من قبل الخلفاء الذين شجعوا لاعبيه ،وتفضلوا عليهم بالعطاء الواسع ،ويذكر المسعودي أنواع

[1]- ديوانه:297/2
[2]-الأغاني:22/ 150

آلات الشطرنج على أنّها ست صور :الآلة المربعة بثمانية أبيات ،والآلة المستطيلة ،والآلة المربعة بعشر أبيات ،والآلة المدورة المنسوبة إلى الروم ،والآلة النجومية التي تسمى الفلكية والجوارحية.[1] ولقد صور الشّعر العباسي هذه الظاهرة الحضارية أحسن تصوير ،ولعل من أبدع ما يذكر في هذا المقام ،الأبيات التي قالها الخليفة المأمون:

أَرضٌ مُرَبَّعَـــةٌ حَمـــراءُ مِـــن أَدَمِ ... مـــا بَـــينَ إِلفَـــينِ مَعـــروفَينِ بِـــالكَرَمِ
تَـــذاكَرا الحَـــربَ فَاِحتـــالا لَهـــا حِـــيَلاً ... مِـــن غَيـــرِ أَن يَأثَمـــا فيهـــا بِسَـــفكِ دَمِ
هـــذا يُغيـــرُ عَلـــى هـــذا،وَذاكَ عَلـــى ... هـــذا يغيـــرُ ،وَعَينُ الحَـــزمِ لَـــم تَـــنَمِ
فَـــاِنظُر إِلـــى فِطَـــنٍ جالَـــت بِمَعرفَـــةٍ ... فـــي عَســـكَرَينِ بِـــلا طَبـــلٍ وَلا عَلَـــمُ[2]

لقد وصف الشاعر أرض الشطرنج على أنّها مربعة الشكل وحمراء اللون ،يتقابل فيها صديقين معروفين بالكرم ليخوضا حربا عمادها الفطنة والحيلة من دون أن تسفك الدماء ،فكليهما يحرك القطع التابعة له بتركيز ونباهة ،ثم يتعجب من هذه الحرب التي تعتمد على الذكاء والمعرفة وتخلو من الطبول والأعلام.

وقال أسامة بن منقذ:

انظـر إلـى لاعـب الشـطرنج يجمعهـا ... مغالبـــا ثـــمّ بعـــد الجمـــع يرميهـــا
كـــالمرء يكـــدح للـــدنيا ويجمعهـــا ... حتـــى إذا مـــات خلاهـــا ومـــا فيهـــا[3]

لقد شبه الشاعر لعبة الشطرنج بالدنيا ،فلاعبها الذي يثابر على جمع القطع ثمّ يتخلى عنها لا يختلف عن الذي يسعى جاهدا لجمع المال في حياته ،حتى إذا مات ترك وراءه كل شيء.

ولأبي نواس قصائد عديدة في الشطرنج ،قال في إحداها:

---

[1]-ينظر:مروج الذهب،المسعودي:260/4
[2]-تاريخ الخلفاء،السيوطي،ط1،دار بن حزم،بيروت،2003 :260،261
[3]-معجم الأدباء،الحموي:577/2

لعِبْــتُ الشـــطرنج مَـــعْ أهيـــفٍ رشـــاقة الأغصـــان مِـــنْ قـــدِّه
أحـــلّ عقـــد البنـــد مـــن خسْـــرِهِ وألـــثمَ الشـــاماتِ فـــي خـــدِّه[1]

النرد:

شاع اللعب بالنرد في العصر العباسي ،ولقد أشار آدم متز أنه كان "يلعب على رقعة بها اثنا عشر أو أربعة عشرون منزلا بثلاثين حجرا وفصّين ،فكان لعبة تدور على الصدفة والإتفاق."[2]

لقد ذكر الشاعر السري الرفاء (ت:366هـ) أحجار النرد فقال:

ومحكمـــان علـــى النفـــوسِ وربمـــا لـــم يحكمـــا فـــيهنّ حكمـــاً عـــادلا
يلقاهمـــا المـــرزوقُ ســـعداً طالعـــاً ويراهمـــا المحـــروم ســـعداً آفـــلاً
فإذا هما اصطحبا على كفِّ الفتى ضـــرّاه أو نفعـــاه نفعـــاً عـــاجلا[3]

وصف الشاعر فعل أحجار النرد في نفوس اللاعبين بدقة ،فالرابح يرى فيها مصدر سعادة ورزق ،ويراها الخاسر مصدر تعاسة وشؤم.

ويروى أنّ كشاجم كتب إلى صديق له يذم النرد فقال:

أيهـــا المعجـــب المفـــاخر بـــالنَّر د ليزهـــى بهـــا علـــى الإخـــوان
قد لعمري حرصت جهداً على قمْـ ـــرك لـــو لـــم تواتـــك الفصـــان
غيـــر أنّ الأريـــب يكذبـــه الـــظ ـــن ويبكِـــي لشـــدة الحرمـــان
وإذا مـــا القضـــاء جـــاءت بحكـــم لـــم يَجِـــدْ عـــن قضـــائها الخصـــمان
ولعمـــري مـــا كنـــت أول إنســـا نٍ تمنـــى فأخلفتـــه الأمـــاني[1]

[1]-المستطرف في كل فنّ مستظرف،شهاب الدّين محمد الأبشيهي المحلي،دط،مكتبة الجمهورية العربية،مصر،دت:202/2
[2]-الحضارة الإسلامية،آدم متز:258/2.
[3]-ديوان المعاني،أبو هلال العسكري،تحقيق:أحمد حسن بسج،ط1،دار الكتب العلمية،بيروت،1994 ج2،585.

يتعجب الشاعر في هذه الأبيات من مفاخرة صديقه ببراعته في لعب النرد،ويذكره أنّها لا تخلصه من قضاء الله وقدره. ويبدو أنّ ذم الشاعر لهذه اللعبة يعود إلى أنه رأى فيها هدرا للوقت والمال.

***الصولجان:**

يذكر الطبري أنه "لما أفضت الخلافة إلى محمد ،وهدأ الناس ببغداد ،أصبح صبيحة السبت بعد بيعته بيوم ؛فأمر ببناء ميدان حول قصر أبي جعفر في المدينة للصوالجة واللعب ،فقال فيها شاعر من أهل بغداد:

بنـــــى أمـــــينُ اللهِ ميـــــدانًا وصـــــيَّرَ الســـــاحةَ بســـــتانًا
وكانـــــت الغـــــزلانُ فيـــــه بانَـــــا يهـــــدى إليـــــهِ فيـــــه غزلانَـــــا"[2]

وقال أبو نواس:

لا الصَـولَجانُ وَلا المَيـدانُ يُعجِبُنـي وَلا أَحِـنُّ إِلـى صَـوتِ البَواشـيقِ
لَكِنَّمـا العَـيشُ فـي اللَـذّاتِ مُتَّكِئـاً وَفـي السَـماعِ وَفـي مَـجِّ الأَبـاريقِ[3]

إنّ هذين المقطوعتين الشعريتين تدلاّن على انتشار اللعب بالصولجان في البيئة العباسية،ولعل هذا ما دفع بأبي نواس للموازنة بين حياته الماجنة التي كانت بين الخمر والأباريق وبين ما كان يتلهى به العباسيون من اللعب بالصولجان في الميدان.

***الصيد:**

يعد الصيد ضربا من ضروب التسلية التي فتن بها العباسيون بعامة والخلفاء بخاصة ولاسيما المهدي الذي ذكره أبو دلامة في إحدى مقطوعاته فقال:

---

[1]-مروج الذهب،المسعودي:262/4
[2]-تاريخ الرسل والملوك،الطبري،ج8 :373
[3]-ديوانه:223/3

قَـــد رَمَـــى المَهـــديُّ ظَبيـــاً شَـــــكَّ بالسَّـــــهم فـــــؤادَه
وَعَلِـــــيٌّ بـــــنُ سُـــــلَيمَا نَ رَمَـــــى كَلبـــــاً فَصَـــــادَه
فَهَنِيئـــــاً لَهُمَـــــا كُـــــ ـــــلُّ امـــــرِئٍ يأكُـــــلُ زادَه[1]

وهذا أبو نواس يصف رحلة صيد:

لَمّـا تَبَـدّى الصُـبحُ مِـن حِجابِـهِ كَطَلعَـةِ الأَشـمَطِ مِـن جِلبابِـهِ
كَالحَبَشِـيِّ اِفتَـرَّ عَـن أَنيابِـهِ هِجنـا بِكَلـبٍ طالَمـا هِجنـا بِـهِ
يَنتَسِـفُ المِقـوَدَ مِـن كَلّابِـهِ مِـن مـرحَ يَغلـو إِذا اِغلَـولى بِـهِ
تَـراهُ فـي الحُضـرِ إِذا هاهـا بِـهِ يَكـادُ أَن يَخـرُجَ مِـن إِهابِـهِ[2]

يتضح مما سبق أنّ الشّعر العباسي قد عكس العديد من المظاهر الحضارية التي تعلقت بحياة العباسيين العامة ،حيث نجد أنّ الشعراء قد وصفوا أصناف المأكولات والمشروبات التي كانت تنمق موائدهم وولائمهم ،كما تغنوا بالملابس المطرزة وبأدوات الزينة المختلفة التي كانت ترتديها النساء ،وبوسائلهم المختلفة للتسلية والترويح كالشطرنج والنرد والصولجان والصيد وغيرها.

[1]-الأغاني: 169/6
[2]- ديوانه:187/2

7-وصف المعارك والفتوح:

لقد فاخر الشعراء العباسيون دولتهم بما أحرزته من انتصارات وفتوح ،فوصفوا عظمة جيوشها ،وكثرة سلاحها وخيلها وقوة أسطولها ،ولقد نبغ العديد من الشعراء في هذا الغرض نذكر منهم المتنبي الذي قال في إحدى قصائده:

يُكَلّفُ سيفُ الدّوْلَةِ الجيشَ هَمّهُ ... وَقد عَجِزَتْ عنهُ الجيوشُ الخضارمُ

يُفَدّي أتَمُّ الطّيرِ عُمْراً سِلاحَهُ ... نُسُورُ الفَلا أحداثُها وَالقَشاعِمُ

وَما ضَرّها خَلْقٌ بغَيرِ مَخالِبٍ ... وَقَدْ خُلِقَتْ أسيافُهُ وَالقَوائِمُ

هَلِ الحَدَثُ الحَمراءُ تَعرِفُ لوْنَها ... وَتَعْلَمُ أيُّ السّاقِيَيْنِ الغَمَائِمُ

سَقَتْها الغَمَامُ الغُرُّ قَبْلَ نُزُولِهِ ... فَلَمّا دَنَا مِنها سَقَتها الجَماجِمُ

بَنَاهَا فأعْلى وَالقَنَا يَقْرَعُ القَنَا ... وَمَوْجُ المَنَايَا حَوْلَها مُتَلاطِمُ

طَرِيدَةُ دَهْرٍ ساقَها فَرَدَدْتَهَا ... على الدّينِ بالخَطّيّ وَالدّهْرُ رَاغِمُ[1]

لقد تحدث الشاعر في قصيدته هذه عن المعركة الدامية التي دارت بين العرب والروم بسبب سيطرتهم على القلعة التي بناها سيف الدولة في بلادهم ،وتحصنهم بها،فأتاهم وقتلهم فيها ،فتلطخت بدمائهم ،لذلك وصفها الشاعر بالحمراء.[2] وفي بقية القصيدة إشارة إلى بعض الملامح الحضارية في مجال الحياة الحربية ،حيث قال:

أتَوْكَ يَجُرّونَ الحَديدَ كَأنّمَا ... سَرَوْا إليك بِجِيَادٍ ما لَهُنّ قَوَائِمُ

إذا بَرَقُوا لم تُعْرَفِ البِيضُ منهُمُ ... ثِيابُهُمُ من مِثْلِها وَالعَمَائِمُ

خميسٌ بشرْقِ الأرْضِ وَالغرْبِ زَحْفُهُ ... وَفي أُذُنِ الجَوْزَاءِ منهُ زَمَازِمُ

فَلِلّهِ وَقْتٌ ذَوّبَ الغِشَّ نَارُهُ ... فَلَمْ يَبْقَ إلاّ صَارِمٌ أوْ ضُبارِمُ

---

[1]- ديوانه :385

[2]-ينظر:المرجع نفسه:ن ص

تَقَطّــعَ مــا لا يَقْطَــعُ الــدّرْعَ وَالقَنَــا وَفَـرّ مـنَ الفُرْسـانِ مَـنْ لا يُصـادِمُ[1]

لقد تغنى الشاعر بحصانة ثياب الجند التي كانت من حديد ،إذ كانت أبدانهم مغطاة بالدروع ورؤوسهم بالخوذ ،كما تغنى بحدة السيوف وكثرة الأسلحة التي فاقت حاجة الجند بالرغم من عظمته.

وفي قصيدة أخرى يهنئ ابن دهان الموصلي وزير مصر ابن رزيك فيقول:

لَنــا التَهنِئــاتُ وَفَــرطُ الجَــذَل وَأَنــتَ أَجَــلُّ وَأَعلــى مَحــل
وإن كــانَ فَتحــاً أَجَــلَّ الفَتــوح وَلَكِــنَّ قَــدرك فَــوقَ الأَجَــل
سَــحابُ عِقابِــكَ غَشّــاهُمُ فَــأَودى بِهِــم وَقعُــهُ وَهــوَ طَــل
وَأَهلَــكَ أَرضَــهُمُ بــالرَذاذِ فَكَيــفَ يَكــونُ إِذا مــا هَطــل
وَكَــم قَــد هَرَقــتَ دِمــاءَ العِــدى تَصُــحُّ عَلــيلاً وَتشــفي غُلَــل
كَــم لَــكَ مِــن غَــزوَة قَبلهــا وَمــا لِسـواكَ سِـوى مُرتَحـل[2]

ثمّ يصور سفن الأسطول الإسلامي العظيم العائد من المعركة والمحمل بالسبايا فيقول:

شَــحنتَ الشَــوانيَ بالــدارِعينَ فَجاءَتــكَ مُــوقِرةً بالنَفَــل
جَــوارِ تَطيــرُ بأُســدِ الشَــرى وَتــزأَرُ مــا غــابَ الأَسَــل
حَملــنَ اليــكَ سَــبايا الَّــذي طَغــى فَحمَّلــنَ اليــهِ الأَجَــل
وَلَــو لَــم تَصِــل ســابِقاتُ الرِمــاح إِلــيهم كَفَــت ســابِقاتُ الوَهَــل
وَلَــو لَــم يَمــتهم قِــراعُ السُــيوفِ أَمــاتَهُمُ خَوفُهــا وَالوَجَــل[3]

[1]- المرجع السابق:386
[2]- ديوانه،تحقيق:عبد الله جبوري،دط،مطبعة المعارف،بغداد،1968 :135 وما بعدها
[3]- المرجع نفسه:387

لقد عبر الشاعر عن ابتهاجه بالانتصارات التي حققها ابن رزيك ،وصور عظمة الجيش الإسلامي المجهز بالعدة الحربية الذي جاهد بحرا بواسطة السفن المعدة خصيصا لهذا الغرض ،فجاء محملا بالغنائم والسبايا ،ثم صور الهول الذي تركه هؤلاء الجنود الأشداء والشجعان في قلوب الأعداء ،وأكد أنه حتّى ولم تصلهم سابقات الرماح وقراع السيوف لاستبقهم الموت من شدة الخوف والفزع.

وقال أبو تمام في قصيدته التي مدح فيها المعتصم والتي تغنى من خلالها بالنصر العظيم الذي حققه المسلمون في فتح عمورية التي تعد من أعظم الفتوح التي حفظتها كتب التاريخ والأدب ،فقال :

فَـتْحُ الفُتـوحِ تَعَـالَى أَنْ يُحـيطَ بِـهِ نَظْمٌ مِن الشّعر أَوْ نَثْرٌ مِنَ الخُطَبِ
فــتحٌ تفــتَّحُ أبــوابُ السَّــماءِ لــهُ وتبـرزُ الأرضُ فـي أثوابهـا القُشُـبِ
يَـا يَـوْمَ وَقْعَـةِ عَمُّوريَّـةَ انْصَـرَفَتْ منـكَ المُنـى حُفَّـلاً معسـولة الحلـبِ
أبقيْـتَ جـدَّ بنـي الإسـلامِ فـي صـعدٍ والمُشْـرِكينَ ودَارَ الشـرْكِ فـي صَـبَبِ
لقــد تركــتَ أميــرَ المــؤمنينَ بهــا للنَّـارِ يومـاً ذليـلَ الصَّـخرِ والخشـبِ
غادرتَ فيها بهيمَ اللَّيلِ وهوَ ضُحىً يَشُـلُّهُ وَسْـطَهَا صُـبْحٌ مِـنَ اللَّهَـبِ[1]

ويواصل الشاعر في تصوير الأهوال التي حلت بالمدينة بأسلوب رائع ،كله فخر واعتزاز بالجيش الإسلامي فيقول:

حتَّـى كـأنَّ جلابيـبَ الـدُّجى رغبـتْ عَـنْ لَوْنِهَـا وكَـأَنَّ الشَّـمْسَ لَـم تَغِـبِ
ضـوءٌ مـنَ النَّـارِ والظَّلمـاءُ عاكفـةٌ وظُلمـةٌ منَ دخـان فـي ضُـحىً شـحبِ
فالشَّـمْسُ طَالِعَـةٌ مِـنْ ذَا وقـدْ أَفَلَـتْ والشَّـمسُ واجبـةٌ مـنْ ذا ولـمْ تجـبِ
تصـرَّحَ الـدَّهرُ تصـريحَ الغمـامِ لهـا عـنْ يـومِ هيجـاءَ منهـا طـاهرٍ جُنُـبِ

[1]- ديوانه،ج1 :35 وما بعدها

لـم تَطْلُـعِ الشَّمْسُ فيـهِ يَومَ ذَاكَ علـى بـانٍ بأهـلٍ وَلَـم تَغْـرُبْ علـى عَـزَبِ
تَـــذْبيرُ مُعْتَصِـــمٍ بِـــاللَّهِ مُنْـــتَقِمِ للهِ مرتقـــبٍ فـــي الله مُرتغـــبِ[1]

أجل،اشتهر العصر العباسي بكثرة الفتوح والمعارك على بلاد العجم ،ولعل خوضهم في هذا المجال وإحرازهم للكثير من الانتصارات لدليل على عظمة حضارتهم التي تجلت في متانة عدتهم الحربية ونباهتهم في تنظيم الجيش.

يتضح مما سبق أنّ الشعراء العباسيين قد خلدوا معالم حضارتهم العظيمة بين سطور إبداعاتهم ،فكانت هذه الدواوين الشعرية خير شاهد على المستوى الحضاري الذي بلغته الدولة العباسية ،وهذا ما يدل على مدى تأثير الحضارة العربية الإسلامية في الشّعر العباسي الذي نطق بلغتها وتغنى بمعالمها الثقافية والمادية.

[1]-المرجع السابق:39 وما بعدها

خـــاتمـــة

لقد توصلت من خلال بحثي هذا إلى مجموعة من النتائج والتي يمكن تلخيصها في:

1-إنّ طبيعة العلاقة التي تجمع الأدب بالحضارة هي علاقة حميمية ؛فالأدب ركن من أركان الحضارة ومظهر ثقافي لها باعتباره يمثل الجانب المعنوي الذي يشتمل على نواحي الحياة الروحية ،وله دور بارز في بناء الحضارات ،والحضارة بدورها تعمل على تغذية الأدب ودفعه قدما نحو التطور والرقي.

2- تأثر أدب صدر الإسلام بالانقلاب الديني والسياسي الذي طرأ على حياة العرب بظهور الإسلام ،وهذا ما أدى إلى تعدد الأغراض الشعرية ،كما ازدهرت فنّ الخطابة وتنوعت موضوعاتها.

3- اعتنى الخلفاء الأمويون بالأدب عناية خاصة كما شجعوا الشعراء على النظم ولاسيما في الأغراض التي تخدم مصالحهم ،ولقد بدأ يتأثر بالبيئة الحضارية الجديدة مما جعله يتميز بالعمق والترتيب والدقة ،فجاءت معانيه واضحة وخالية من التعقيد ،ولقد ازدهرت عدة أغراض ولاسيما الغزل والشّعر السياسي والهجاء. ولقد جاء النثر بأساليب مختلفة وموضوعات متنوعة وأغراض جديدة ،كما ازدهرت الخطابة وبلغت ذروتها وسط تلك الظروف السياسية والاجتماعية والأدبية.

4- أثّر الإسلام في معظم الأدباء والشعراء الإسلاميون الذين استمدوا أفكارهم ومعانيهم وبلاغتهم من القرآن الكريم والسنة النبوية ،فتأثروا بمبادئه تارة ،وبأسلوبه الجديد تارة أخرى ،كما مال الكثير منهم إلى اقتباس الآيات القرآنية والأحاديث النبوية حتّى تزيد إبداعاتهم الشعرية والنثرية قوة في المعنى وجمالا في المبنى.

5- أثرت الحياة الاجتماعية التي اقتضتها الحضارة العباسية على العديد من جوانب الشّعر العربي في ذلك العصر ،وهذا ما يبدو جليا من خلال إسهام مجالس الشرب والغناء وانتشار الجواري والقيان في تطور مادة الوصف وموضوعه ،أما نزعة المجون فقد فتحت الباب على مصرعيه من أجل ظهور أغراض شعرية جديدة لم يكن للعرب عهد بها ،كما أنّها لم تمرّ قبل أن تترك بصماتها في الكثير من الأغراض الشعرية الأخرى ،وفي مقابل هذه

الحياة الصاخبة التي دفعت الكثير للركود وراء الرفاهية والملذات ،نجد نزعة الزهد تضفي بريقها على الكثير من القصائد العربية التي نظمت إبّان العصر العباسي.

6- إنّ ظاهرة الشعوبية من المظاهر الاجتماعية التي جاءت على عدة أشكال في الشّعر العباسي :نجدها تدعو إلى التجديد على المستوى الأدبي تارة ،أو تحقيرا لجنس من الأجناس تارة أخرى ،ويكمن أثرها في تطوير مادة الشّعر ودفعه قدما نحو الواقع الحضاري الجديد.

7- ترعرع الأدب العباسي بين أحضان الحضارة العباسية التي شهدت تلك النهضة الفكرية العظيمة في التاريخ الإسلامي ،والتي نهلت من الثقافات الأجنبية حتّى ارتقت بحضارتها ولاسيما الثقافة الفارسية ،والثقافة اليونانية ،والثقافة الهندية ،وهذا ما أدى إلى تطور بعض الأغراض الشعرية واستحداث أغراض أخرى ،ولم يقتصر الشعراء على اقتباس ألفاظها ومصطلحاتها وحكمها ،وإنما نجدهم في كثير من الأحيان يقتبسون أفكارها ونظرياتها،ولعل هذا ما جعل الشّعر يكتسب معان جديدة.

8- تأثر النثر بالثقافات الأجنبية وتطورت الكتابة الديوانية ونضجت التوقيعات ،كما اتسمت الكتابة بالتكلف على مستوى الألفاظ والمعاني تارة ونجدها تتميز بالدقة والوضوح لاعتمادها على الأسلوب العلمي تارة أخرى. وزاد الاهتمام بتأليف القصص على منوال الأجانب.

9- تأثر الشّعر العباسي بالتطور الفكري الذي احتضنته الحضارة العباسية حيث استخدم الشعراء البراهين العقلية والمصطلحات المعرفية المختلفة ،كما استعانوا بالحكم والأمثال والنظريات العلمية والإشارات الفلسفية التي كانت شائعة آنذاك ،وهذا ما جعل أفكارهم ومعانيهم تتسم بالاتساق والترتيب. فمشاركة الشعراء في الحياة العلمية جلية لا غبار عليها حيث نجدهم أشد قربا من المناظرات والتيارات المختلفة التي شهدها العصر العباسي.

10- بلغ النثر مرحلة متقدمة من التطور والازدهار ،فتعددت شعبه وفروعه بغرض مواكبة الحياة الفكرية الجديدة ،وأصبحنا نجد النثر العلمي والنثر الفلسفي والنثر التاريخي ،كما تأنق الكتاب في الألفاظ والمعاني التي أصبحت أكثر قوة وعمقا.

11- نطق الشعراء العباسيون بلغة الحضارة الجديدة فتغنوا بمعالمها الحضارية المختلفة من قصور وبرك وجسور ورياض وسفن ،كما تغنوا بوسائل الثقافة وأدواتها وبمختلف أساليبهم في العيش والترفيه ،ووصفوا عظمة جيوشهم في المعارك والفتوح ،وهم على اختلاف هذه الموضوعات نجدهم يتخيرون أحسن الألفاظ وينتقون أفضل العبارات حتّى يتناسب أسلوبهم مع مضمونهم الشعري.

قائمة المصادر والمراجع

-القرآن الكريم
1-اتجاهات الشّعر العربي في القرن الثاني هجري ،محمد مصطفى هدارة ،دط ،دار المعارف ،القاهرة ،دت
2-أخبار أبي نواس ،أبي هفان عبد الله المهزمي ،تحقيق:عبد الستار أحمد فراج ،دط،دار مصر ،دت
3-أخبار العلماء بأخبار الحكماء ،يوسف القفطي ،تحقيق:محمد أمين الخانجي ،دط ،مطبعة السعادة ،مصر ،دت
4-الآداب العربية في العصر العباسي الأول ،محمد عبد المنعم خفاجي ،ط 1،دار الجيل ،بيروت ،1992
5-الأدب الإسلامي ومواكب النور ،عبد العزيز شرف ،ط1 ،دار الجيل ،بيروت،1993
6-الأدب والمجتمع-دراسة في علم اجتماع الأدب ،حسن عبد الحميد رشون ،ط1،المكتب الجامعي الحديث ،إسكندرية ،2005
7-الأدب:تعريفه ،أنواعه ،مذاهبه ،أنطونيوس بطرس ،دط ،المؤسسة الحديثة للكتاب،لبنان ، 2005
8-الاستيعاب ،عمرو بن عبد البر ،دط ،دار الفكر ،لبنان ،2006
9-الإسلام في حضارته ونظمه ،أنور الرفاعي ،ط3 ،دار الفكر،سوريا ،1997
10-الإسلام والحضارة الإنسانية ،محمد عبد المنعم خفاجي ،دط ،دار الكتاب اللبناني،بيروت1982
11-الإسلام والشّعر ،سامي مكي ،دط ،المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب،الكويت ،1996
12-أضواء على تاريخ العلوم عند المسلمين،محمد حسين محاسنة،ط1،دار الكتاب الجامعي،الإمارات العربية،2001
13-أطلس الأديان،سامي بن عبد الله بن أحمد المغلوث،ط1،مكتبة العبيكان،الرياض،2007

14-إعجاز القرآن والبلاغة النبوية،مصطفى صادق الرافعي،تقديم:نجوى عباس،ط1،مؤسسة المختار،القاهرة،2004
15-إعجاز القرآن،الباقلاني،دط،دار المعارف،مصر،دت
16-الأغاني،الأصفهاني،تحقيق،إحسان عباس وآخرون،ط3،دار صادر،بيروت،2008
17-أمراء الشّعر العربي في العصر العباسي،أنيس المقديسي،ط17،دار العلم للملايين،بيروت،1989
18-البلدان،اليعقوبي،تقديم:محمد أمين الضناوي،دط،دار الكتب العلمية،بيروت،،دت
19-البيان والتبيين،الجاحظ،،تحقيق:عبد السلام هارون،ج2،ط1،مكتبة الخانجي،مصر،دت
20-البيان والتبيين،الجاحظ،تحقيق عبد السلام هارون،ج3،ط7،مكتبة الخانجي،القاهرة،1998.
21-البيان والتبيين،الجاحظ،تحقيق:عبد السلام هارون،ج1،ط7،مكتبة الخانجي،1998
22-تاريخ الآداب العربية من الجاهلية حتّى عصر بني أمية ،كارلونالينو،تقديم:طه حسين،ط2،دار المعارف،مصر،1979
23-تاريخ الأدب العربي ،أحمد حسين الزيات،دط،دار نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة،دت
24-تاريخ الأدب العربي في العصر العباسي الأول،حامد حفني داود،ط2،ديوان المطبوعات الجامعية،الجزائر
25-تاريخ الأدب العربي:العصر الإسلامي،شوقي ضيف، ط20، دار المعارف، القاهرة 2002،
26-تاريخ الأدب العربي،الأعصر العباسية،عمر فروخ،ط4،دار العلم للملايين،1981
27-تاريخ الأدب العربي،العصر العباسي الأول،شوقي ضيف،ط6،دار المعارف،مصر،دت
28-تاريخ الأدب العربي،كارل بروكلمان،ترجمة:عبد الحليم النجار،ط4، دار

المعارف،القاهرة،دت
29-تاريخ الإسلام،حسن ابراهيم حسن،ج2،ط14،دار الجيل،بيروت،1996
30-التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية،أحمد شلبي،ط8،مكتبة النهضة المصرية،القاهرة،1985
31-تاريخ الخلفاء،السيوطي،ط1،دار ابن حزم،بيروت،2003
32-تاريخ الدولة العباسية،محمد سهيل طقوش،ط2،دار النفائس،بيروت،1998
33-تاريخ الشّعر العربي حتّى آخر القرن الثالث هجري،نجيب محمد البهبتي،دط،دار الكتب المصرية،القاهرة،1950
34-تاريخ الطبري،تحقيق:محمد الفضل أبو ابراهيم،ط2،دار المعارف،مصر،دت
35-تاريخ العصر العباسي،أمينة بيطار،دط،مطبعة جامعة دمشق،دت
36-تاريخ الفكر العربي حتّى أيام بن خلدون،عمر فروخ،ط4،،دار العلم للملايين،بيروت1983
37-تاريخ بغداد،الخطيب البغدادي،تحقيق:بشار عواد معروف،ط1،دار الغرب الإسلامي،لبنان،2001
38-التصوير الفني في القرآن الكريم،سيد قطب،ط16،دار الشروق،القاهرة،2002
39-تطور الأساليب النثرية،أنيس المقديسي،ط6،دار العلم للملايين،بيروت،1979
40-التطور والتجديد في الشّعر الأموي،شوقي ضيف،ط6،دار المعارف،القاهرة،1977
41-تفسير الكشاف،الزمخشري،تقديم:خليل مأمون شيحا،ط3،دار المعرفة،بيروت،2009
42-التيارات الأجنبية في الشّعر العربي منذ العصر العباسي حتّى نهاية القرن الثالث الهجري،عثمان موافي،دط،مؤسسة الثقافة الجامعية،دت
43-تيارات ثقافية بين العرب والفرس،أحمد محمد الحوافي،ط3،دار النهضة المصرية،القاهرة،1978
44-الجامع الصحيح سنن الترمذي،الترمذي،تحقيق:أحمد محمد شاكر،ط2،مطبعة مصطفى البابي الحلبي،1978

45-جمع الجواهر في الملح والنوادر،الحصري ،www.mustapha.com
46-حسان بن ثابت،محمد ابراهيم جمعة،دار المعارف،مصر
47-حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة،السيوطي،تحقيق:محمد أبو الفضل ابراهيم،ج2،ط1،دار إحياء الكتب العربية،1967
48-الحضارة الإسلامية،عبد المقصود عبد الحميد أبو عبية،المجلد1،ط1،دار الكتب العلمية،لبنان،2004
49-حضارة العرب في العصر الأموي،حسين حاج حسن،ط1،المؤسسة الجامعية،بيروت،1994
50-حضارة العرب في العصر العباسي،حسين حاج حسن،ط1،المؤسسة الجامعية،بيروت،1994
51-حضارة العرب في صدر الإسلام،حسين حاج حسن،ط1 ،المؤسسة الجامعية،لبنان،1992
52-حضارة العرب،أسعد داغر،دط،مطبعة المقتطف،مصر،1919
53-الحضارة،دراسة في أصول وعوامل قيامها وتطورها،حسين مؤنس،ط1،المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب،الكويت،1990
54-الحياة الأدبية بعد ظهور الإسلام،محمد عبد المنعم خفاجي،دط،دار الجيل،بيروت
55-الحيوان،الجاحظ،تحقيق:عبد السلام هارون،ج1،ط2،القاهرة،1965
56-دراسات في الأدب العربي،سعد الدين محمد الجيزاوي،دط،دار نهضة مصر،القاهرة،دت
57-دراسات في تاريخ الدولة العباسية،عصام الدّين عبد الرؤوف الفقي،دط،دار الفكر العربي،القاهرة،1999
58-دراسات في تاريخ العرب،العصر العباسي الأول،السيد عبد العزيز سالم،ج3،دط،مؤسسة شباب الجامعة،اسكندرية،1993
59-دراسات في علم اجتماع الأدب،أمل حركة،دط،دار المعرفة الجامعية،مصر،دت
60-دلائل الإعجاز،عبد القاهر الجرجاني،ط3،مطبة المدني،مصر،1992

61-الديارات،الشابشتي،www.mostapha.com
62-ديوان ابن الرومي،شرح وتقديم:أحمد حسن بسج،ج3،ط3،دار الكتب العلمية،بيروت،2002
63-ديوان ابن دهان، تحقيق:عبد الله جبوري،دط،مطبعة المعارف،بغداد،1968
64-ديوان ابن المعتز، تقديم:كرم البستاني،دط،دار صادر،بيروت،دت
65-ديوان أبو العتاهية، تقديم:كرم البستاني،دط،دار بيروت،بيروت،1986
66-ديوان أبو نواس، تحقيق:إيقالد قاقنر وغريغور شولر، ط2،مؤسسة البيان،بيروت،2001
67-ديوان البحتري، تحقيق:حسن كامل الصيرفي،ط3،دار المعارف،دت
68-ديوان المتنبي،،دط،دار بيروت،بيروت،دت
69-ديوان المعاني،أبو هلال العسكري،تحقيق:أحمد حسن بسج،ط1،دار الكتب العلمية،بيروت،1994
70-ديوان بشار بن برد، تحقيق محمد الطاهر بن عاشور،دط،وزارة الثقافة،الجزائر،2007
71-ديوان جميل بثينة،ط2،دار صادر،بيروت
72-ديوان حسان بن تابت،تحقيق:مجيد مهنا،ط2،دار الكتب العلمية،لبنان،1994
73-ديوان ديك الجن، تحقيق:مظهر الحجي،دط،إتحاد الكتاب العرب،دمشق،2004
74-ديوان علي بن الجهم، تحقيق:خليل مروم بك،ط2،دار الآفاق الجديدة،بيروت،1980
75-ديوان مسلم بن الوليد، تحقيق:سامي الدهان،ط3،دار المعارف،القاهرة،2009
76-زهر الآداب وثمر الألباب،الحصري تقديم:صلاح الدّين الهواري،ط1،المكتبة العصرية،بيروت،2001
77-سلوة الحريف بمناظرة الربيع والخريف،الجاحظ،ط1،مطبعة الجوائب،قسطنطينية،1320هـ
78-السيرة النبوية،ابن هشام،تحقيق:ابراهيم الأبياري وآخرون،دط،دار إحياء التراث العربي،بيروت،دت

79-سيرة عمر بن عبد العزيز،بن الجوزي،تصحيح:محب الدّين الخطيب،دط،مطبعة المؤيد،مصر،1913
80-شرح ديوان أبي تمام،الخطيب التبريزي،تقديم:راجي الأسمر،ط2،دار الكتاب العربي،1994
81-شرح ديوان جرير،محمد اسماعيل عبد الله الصاوي،ط1،مطبعة الصاوي،مصر،دت
82-الشّعر في بغداد حتّى نهاية القرن الثالث هجري،أحمد عبد الستار الجواري،ط2، مطبعة المجمع العلمي العراقي،1991
83-الشّعر والشعراء في العصر العباسي،مصطفى الشكعةط6،دار العلم للملايين،بيروت،1986
84-الشّعر والشعراء،أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة،تقديم:الشيخ حسن تميم،ط3،دار إحياء العلوم،بيروت،1987
85-الشعرية العربية،أدونيس،ط2،دار الآداب،بيروت،1989
86-شمس العرب تسطع على الغرب،زيغريد هونكه،ترجمة:فاروق بيضون وكمال دسوقي،مراجعة:مارون عيسى خوري،ط8،دار الجيل،بيروت،1993
87-صحيح مسلم،ط1،دار طيبة،الرياض،2006
88-ضحى الإسلام،أحمد أمين،ط7،مكتبة النهضة المصرية،القاهرة،دت
89-طبقات الشعراء،ابن المعتز،تحقيق:عبد الستار أحمد فراج،ط3،دار المعارف،مصر،دت
90-طبقات الشعراء،محمد بن سلام الجمحي،تقديم:طه أحمد ابراهيم،دط،دار الكتب العلمية،لبنان،2001
91-العالم الإسلامي في العصر العباسي،حسن أحمد محمود وأحمد ابراهيم الشريف،دط،دار الفكر العربي،القاهرة،1995
92-عالمية الإسلام،أنور الجندي : ،دط،دار المعارف،القاهرة،دت
93-العقد الفريد،ابن عبد ربه الأندلسي،تحقيق: مفيد محمد قميحة،ط1،دار الكتب

العلمية،بيروت،1983
94-العلم العربي وتطوره في العصر العباسي الأول،عبده النصوح القادري ،إشراف:صلاح رسلان ويمنى طريف الخولي،جامعة القاهرة،2000 ،2001
95-العلم ومناهج البحث في الحضارة الإسلامية،نادية حسنى صقر،دط،مكتبة النهضة المصرية،القاهرة،1991
96-العمارة الإسلامية في العصرين العباسي والفاطمي،أحمد عبد الرزاق،ط1،دار القاهرة،القاهرة2002
97-العمدة في محاسن الشّعر وآدابه ونقده،ابن الرشيق القيرواني،تحقيق:محمد محي الدّين عبد الحميد، ط2 ،القاهرة،1955
98-عيون الأخبار،ابن قتيبة الدينوري،ج3،دط،دار الكتاب العربي،لبنان،دت
99-الغربال،مخائيل نعيمة،ط15 ،نوفل،بيروت،1991
100-الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية،محمد بن علي بن طباطبا،دط،دار صادر،بيروت،دت
101-الفنّ والأدب،ميشال عاصي،دط،المكتب التجاري للطباعة والنشر،بيروت،دت.
102-الفنّ ومذاهبه في الشّعر العربي،ط11،دار المعارف،القاهرة،1960
103-الفهرست،النديم،تحقيق رضا تجدد،طهران،1971.
104-في أدب صدر الإسلام والأدب الأموي،زين كامل الخويسكي ومحمد مصطفى أبو شوارب،دط،دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر،الإسكندرية،دت
105-في الأدب العباسي:الرؤية والفن،عز الدّين اسماعيل،دط،دار النهضة العربية،بيروت،1975
106-في الشّعر الإسلامي والأموي،عبد القادر قط،دط،دار النهضة العربية،بيروت،دت
107-في تاريخ الأدب العربي،طه حسين،ج ،ط5 دار العلم للملايين لبنان،1991
108-في نظرية الأدب،من قضايا الشّعر والنثر في النقد العربي القديم،عثمان موافي،الجزء1،دط، دار المعرفة الجامعية،الإسكندرية،2000

109-كتاب الأوراق،أخبار الشعراء،أبي بكر بن يحيى الصولي،ط1،مطبعة الصاوي،مصر ،1934
110-كتاب الوزراء والكتاب،الجهشياري،تقديم:حسن الزين،دط،دار الفكر الحديث،لبنان،1988
111-كتاب بغداد ،طيفور،تحقيق:عزت العطار الحسيني،ط3،مكتبة الخانجي،القاهرة،2002
112-لباب الآداب،الثعالبي،تحقيق:أحمد حسن لبج،ط1،دار الكتب العلمية،لبنان،1997
113-اللّغة الفارسية،محمد نور الدّين عبد المنعم،دط،دار المعارف،مصر ،دت
114-اللؤلؤ والمرجان،محمد فؤاد عبد الباقي،ج3،دط،دار إحياء الكتب العربية،دت
115-مدخل إلى سوسيولوجيا الأدب العربي،محي الدّين أبو شقرا،ط1،المركز الثقافي العربي،المغرب،2005
116-مدخل إلى علم اجتماع الأدب،سعدي الضاوي،ط1،دار الفكر العربي،بيروت،1994
117-مروج الذهب،المسعودي،مراجعة:كمال حسن مرعي،ط1،المكتبة العصرية،بيروت،2005
118-المستطرف في كل فنّ مستظرف،شهاب الدّين محمد الأبشيهي المحلي،دط،مكتبة الجمهورية العربية،مصر ،دت
119-المستقصي في أمثال العرب،الزمخشري،ط1،مطبوعات دائرة المعارف العثمانية،1962
120-مظاهر المجتمع وملامح التجديد من خلال الشّعر في العصر العباسي الأول،مصطفى بيطام،دط،ديوان المطبوعات الجامعية،الجزائر ،1994
121-معجم الأدباء ،ياقوت الحموي،ج6،تحقيق:إحسان عباس،ط1،دار الغرب الإسلامي،لبنان،1993
122-معجم البلدان،الحموي،دط،دار صادر ،بيروت،1977

123-المعجم الفلسفي،جميل صليبا،ج2،دط،دار الكتاب اللبناني،لبنان،1982
124-المفضليات،تحقيق:أحمد محمد شاكر،عبد السلام هارون،ط6،دار المعارف،مصر،دت
125-المقدمة،عبد الرحمان بن خلدون،تحقيق:خليل شحادة،سهيل زكار،دط،دار الفكر،لبنان، 2001
126-من معالم الحضارة العربية الإسلامية،قصي حسين،ط1،المؤسسة الجامعية،بيروت،1993
127-منهج القرآن في تطوير المجتمع،محمد البهتي،دط،مكتبة وهيبة،القاهرة،2002
128-النبأ العظيم،محمد عبد الله دراز،مطبعة السعادة،1960
129-نظرية الأدب،رنيه وليك،ترجمة عادل سلامة،دط،دار المريخ،الرياض،1992
130-نظرية الثقافة،مجوعة من الكتاب،ترجمة:علي سيد الضاوي،دط،المجلس الوطني للثقافة والفنون،الكويت،1997
131-نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب،المقري، تحقيق:إحسان عباس،المجلد1،،دط،دار صادر،بيروت،1968
132ع-الورقة،أبو عبد الله محمد بن داود بن الجراح،تحقيق:عبد الوهاب غرام وعبد الستار أحمد فراج،ط3،دار المعارف،القاهرة،2009
133-الوساطة بين المتنبي وخصومه،أبو الحسن الجرجاني،محمد أبو الفضل ابراهيم،علي محمد البجاوي،ط1،المكتبة العصرية،بيروت،2006
134-يتيمة الدهر،الثعالبي،تحقيق:مفيد محمد قميحة،ج1،،ط1،دار الكتب العلمية،لبنان،1983

-الرسائل الجامعية:

-الرسائل النبوية وقيمتها الفنية(رسالة لنيل دبلوم الدراسات المعمقة)،محمد مرتاض،إشراف:محمد عبد الغاني الشيخ،معهد اللّغة والأدب العربي،جامعة وهران،1978.
-وصف القصور في الشّعر العباسي،ثروت أحمد محمود وهدان،إشراف:ابراهيم

الخواجة،جامعة النجاح الوطنية،فلسطين،2003.
-صراع الحضارات وأثره: في الشّعر العربي في العصر العباسي الأول(القرن الثاني الهجري)،أحمد عبد القادر محمود عقل،إشراف:محمد محمود قاسم نوفل،جامعة النجاح الوطنية في نابلس،فلسطين،2003.

-المجلات

-جسور بغداد في العصر العباسي،خلود مصطفى خماس،مجلة الدراسات التاريخية والحضارية،المجلد5،العدد17،الرصافة،حزيران2013.

فـــهرس المـــواد

-مقدمة..... أ،ب،ت،ث

-المدخل:علاقة الأدب بالحضارة.....

1-ضبط المفاهيم:..... 1

-مفهوم الأدب..... **1**

-مفهوم الحضارة..... **3**

-مفهوم الثقافة..... **3**

2-أثر الأدب على المتلقي..... 4

3-دور الأدب ومكانته في الحضارة العربية الإسلامية..... 7

4-الأدب ينطق بلغة هذه الحضارة..... 11

-الفصل الأول:أثر الإسلام على الأدب والحضارة إبّان صدر الإسلام والعصر الأموي.....

1-واقع الحياة الأدبية في صدر الإسلام والعصر الأموي..... 14

-الحياة الأدبية في صدر الإسلام..... **14**

*الشعر..... **15**

*النثر..... **23**

-الحياة الأدبية في العصر الأموي..... **27**

*الشعر..... **28**

*النثر..... **33**

2-أثر الإسلام على الحضارة والأدب..... 36

-أثر الإسلام على حياة العرب..... **37**

-أثر قيم الإسلام على الشّعر العربي..... **40**

-أثر قيم الإسلام على النثر العربي..... **46**

-أثر الأسلوب القرآني على الأدب العربي..... **50**

-أثر الحديث النبوي على الأدب العربي..... **57**

الفصل الثاني:واقع الحضارة العربية الإسلامية في العصر العباسي 61
1-نبذة عن قيام الخلافة العباسية..... 61
2-الحياة الاجتماعية في العصر العباسي..... 65
-كثرة الجواري والغلمان..... 65
-مجالس الشرب والغناء..... 66
-الشعوبية..... 67
-المجون والزندقة..... 68
-حركة الزهد..... 69
3-الحياة الفكرية في العصر العباسي..... 71
-عوامل النهضة العلمية..... 72
-حركة الترجمة وأثرها على الحياة الفكرية..... 74
-الامتزاج الثقافي..... 76
*الثقافة الفارسية..... 76
*الثقافة اليونانية..... 77
*الثقافة الهندية..... 78
-العلوم الدينية في العصر العباسي..... 79
-اهتمام العلماء العباسيين بالعلوم اللغوية..... 83
-المراكز والمعاهد العلمية في العصر العباسي..... 84
-المنهج العلمي عند العلماء المسلمين..... 85
4-مظاهر الثراء والترف في الحضارة العباسية..... 87
-التأنق في المطعم والمشرب..... 89
-التأنق في اللباس وأدوات الزينة..... 91
-أدوات الترويح والتسلية..... 92

-الحركة العمرانية..... 93
*عمارة المدن..... 94
*عمارة القصور..... 97
الفصل الثالث:مواطن التأثير الحضاري في الأدب العباسي..... 99
1-ملامح الأدب العباسي من خلال الحياة الحضارية..... 99
2-التجليات الاجتماعية في الشّعر العباسي..... 109
-مجالس الشرب والغناء في الشّعر العباسي..... 109
-الجواري والقيان في الشّعر العباسي..... 113
-أثر المجون والزندقة على الشّعر العباسي..... 114
-أثر الشعوبية على الشّعر العباسي..... 118
-أثر حركة الزهد على الشّعر العباسي..... 122
3-تمثل الأدب العباسي للحياة الفكرية..... 126
-أثر الثقافات الأجنبية على الأدب العباسي..... 126
*الثقافة الفارسية..... 129
*الثقافة اليونانية..... 134
*الثقافة الهندية..... 139
-أثر الحياة الفكرية على الأدب العباسي..... 141
الفصل الرابع:المظاهر الحضارية في الشّعر العباسي..... 154
1-وصف القصور..... 156
2-وصف الجسور والبرك..... 162
3-وصف السفن..... 166
4-وصف الرياض والورود..... 171
5-وصف وسائل الثقافة وأدواتها..... 177
6-وصف أساليب العيش والترفيه..... 182

7-وصف المعارك والفتوح..... 190
-خاتمة..... 194
-فهرس المواد..... 197
-قائمة المصادر والمراجع..... 201

ملخص الرسالة:

لقد توفرت البيئة العباسية على الأسباب الحضارية اللازمة من أجل التطور والازدهار على الصعيدين الثقافي والمدني ،كما وجد الأدباء غايتهم المنشودة للتجديد والإبداع ،فنطقوا بلغتها الحضارية التي تسربت إلى مختلف مجالات الحياة ،فعكس بذلك الأدب العباسي الواقع الحضاري الجديد الذي آلت إليه البيئة الإسلامية بكل مظاهرها سواء كانت اجتماعية أو ثقافية أو عمرانية.

الكلمات المفتاحية: الحضارة الإسلامية ،الأدب العباسي ،أثر ،تجديد ،المظاهر الحضارية.

Résumé de la thèse:

La civilisation des abbassides lui a permis d'être une communauté développée dans le secteur culturel et urbain,et également les écrivains ont trouvé leurs destinations souhaitées dans leur renouvèlement et créativité, ils ont écris par le langage de la civilisation, donc la littérature abbaside reflété la nouvelle civilisation qui a contribué a l'environnement islamique dans toute ses manifestations, que ce soit ce fut social, culturelle ou urbaine.

Mots clés: la civilisation islamique, la littérature Abbasi, effet, la rénovation, les manifestations de la civilisation

Summarization Thesis :

Environment Abassid are available on the reasons Civilization Necessary In order to progress and prosperity On the levels Cultural and civil also writers found Their destination for renewal and creativity ;they spoked civilization language ; it was Leaked in Different areas of life Reflects the literature Abbasi The new reality of civilization that Switched into Islamic environment In all its manifestations Social, cultural or architectural.

Key words: Islamic civilization, literature Abbasi, effect, renovation, manifestations of civilization.

الطالبة:شرقي وسيلة

عنوان الرسالة:أثر الحضارة العربية الإسلامية على الأدب العباسي

ملخص الرسالة

إن الإنتاجَ الأدبيَ في أي عصر من العصور؛ ما هو إلا مرآةٌ عاكسةٌ لمجتمع ما في زمنٍ معين ،وما التغيراتُ التي تطرأ عليه إلا استجابةٌ لتطوراتٍ جديدةٍ تتدرج في مسار ذلك الواقعِ الذي يزود الأديبَ بمختلفِ العناصرِ الإبداعية .ولقد ساير الأدبُ العباسيُ الواقعَ الحضاريَ الجديدَ الذي آلت إليه البيئةُ الإسلامية ،فنطق بلغتها الحضارية التي تسربت إلى مختلف مجالاتِ الحياة ،فانعكست مميزات العصرِ العباسيِ على أدبِه شعرا ونثرا .وما نكاد نمعن النظرَ في جديدٍ طرأ عليه حتى نجدَ الشواهدَ الأدبيةَ الغزيرةَ تؤكد ما سبق ،بل نجدها أبلغَ وأصدقَ من كل حديث .ومنه جاء موضوع بحثي : (**أثر** الحضارة العربية الاسلامية على الأدب العباسي) ،والذي حاولت من خلاله التعرضَ للعلاقةِ الحميميةِ القائمةِ بين الحضارةِ العربيةِ الإسلامية والأدبِ العربيِ القديم ،وركزت على مدى تأثيرِ هذه الحضارة في الأدبِ العربيِ بعامة ،والأدب العباسيِ بخاصة.

لابد من الإشارة أولا وقبل كل شيء أن الأدب دوما ينطق بلغة الحضارة التي ترعرع فيها ،فيتأثر بها شكلا ومضمونا ويعكس كل مظاهرها سواء كانت اجتماعية أو ثقافية أو عمرانية ويعبر عنها بلغة تناسب البيئة الحضارية التي تلهمه بألفاظ ومفردات وأغراض تلائم طبيعتها وبمواضيع نابعة من الوسط الذي نشأت بين أحضانه. فطبيعة العلاقة التي تجمع الأدب بالحضارة هي علاقة حميمية ؛حيث إن الأدب ركن من أركان الحضارة ومظهر ثقافي لها باعتباره يمثل الجانب المعنوي الذي يشتمل على نواحي الحياة الروحية ،وله دور بارز في بناء الحضارات ،والحضارة بدورها تعمل على تغذية الأدب ودفعه قدما نحو التطور والرقي.

لقد تأثر أدب صدر الإسلام بالانقلاب الديني والسياسي الذي طرأ على حياة العرب بظهور الإسلام ،وهذا ما أدى إلى تعدد الأغراض الشعرية ،كما ازدهرت فن الخطابة وتنوعت موضوعاتها.

ولقد اختلفت آراء الدارسين حول واقع أدب صدر الإسلام ،فمنهم من يؤكد ضعفه بحجة أن المسلمين ابتعدوا عن قوله لانشغالهم بنشر الدين الإسلامي ،ولكن الحقيقة تقول غير ذلك ،إذ إن المسلمين كافحوا بالسيوف كما كافحوا بالأقلام ،بل إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يدفعهم إلى قول الشعر للرد على المشركين ،ثم إن الكفاح أذكى جذوة الشعر الإسلامي فظهرت مجموعة من الأشعار تعنى خصيصا بالفتوح والانتصارات الإسلامية.

وهناك دراسات أخرى تقول بأن الشعر ضعف بعد أن وضع الإسلام حدا للموضوعات الجاهلية التي قيلت فيها أجود الأشعار فيها الكثير من المبالغة ،إذ إن الإسلام هذب الألفاظ الحوشية وألان الشعر الجاهلي ،فارتقى بذلك من المادية الجاهلية إلى مستوى الحياة الروحية السامية .أما الأقدمون فيشتركون جميعهم في أن هذا الضعف يعود إلى أن الشعراء سكتوا عن قول الشعر بعدما انبهروا ببلاغة القرآن الكريم وروعة أسلوبه ،لكن يبدو أن الشعراء لم يخرسوا عن قوله وإنما تأثروا بالقرآن ويظهر ذلك جليا في الشعراء الذين اتصلوا اتصالا مباشرا برسول الله صلى الله عليه وسلم .

نستنتج مما سبق أن الضعف الذي مس الشعر الإسلامي لم يكن في تضاؤل عدد الشعراء أو التراجع في كمية الإنتاج الأدبي ،وإنما كان في تراجع المستوى الفني لهذا الشعر ،وذلك لاصطدام الشعراء بواقع جديد وبحياة تختلف اختلافا كليا عن الحياة الجاهلية

لقد ازدهر الشعر الأموي باختلاف أنواعه ،ولقي إقبالا كبيرا من مختلف طبقات المجتمع ،ولاسيما الخلفاء وأصحاب السلطة الذين شجعوا الشعراء بالهدايا والأعطيات تارة ،وبتنظيم المجالس الأدبية تارة أخرى ،كما أقبل المترفون على مجالس الغناء للّهو

،وأقبل أهل البدو على شعر الهجاء والنقائض بكل ما تحمله قلوبهم من عصبية ،ورحبت البيئة السياسية بشعراء الأحزاب الذين اعتمدوا على الجدل والمناظرات،ولقد كان للفتوح نصيب من هذا الشعر ؛حيث قام الشعراء بتحميس الجند قبل الحرب ،ثم وصفوا المدن بعد فتحها ،فتنوعت بذلك هذه الأغراض بتنوع الأوساط المعيشة في الدولة الأموية .

هذا ،وقد اعتنى الخلفاء الأمويون بالأدب عناية خاصة كما شجعوا الشعراء على النظم ولاسيما في الأغراض التي تخدم مصالحهم ،ولقد بدأ يتأثر بالبيئة الحضارية الجديدة مما جعله يتميز بالعمق والترتيب والدقة ،فجاءت معانيه واضحة وخالية من التعقيد ،ولقد ازدهرت عدة أغراض ولاسيما الغزل والشعر السياسي والهجاء. ولقد جاء النثر بأساليب مختلفة وموضوعات متنوعة وأغراض جديدة ،كما ازدهرت الخطابة وبلغت ذروتها وسط تلك الظروف السياسية والاجتماعية والأدبية.

أثّر الإسلام على معظم الأدباء والشعراء الإسلاميون الذين استمدوا أفكارهم ومعانيهم وبلاغتهم من القرآن الكريم والسنة النبوية ،فتأثروا بمبادئه تارة ،وبأسلوبه الجديد تارة أخرى ،كما مال الكثير منهم إلى اقتباس الآيات القرآنية والأحاديث النبوية حتى تزيد إبداعاتهم الشعرية والنثرية قوة في المعنى وجمالا في المبنى.

لقد أثرت الأحداث السياسية والتغيرات التي طرأت على الدولة الإسلامية في الحياة الاجتماعية التي تحكما عبر مسارها عاملين أساسين وهما:

-الفتوح الإسلامية وما نتج عنها من تنوع في التركيبة الاجتماعية التي أصبحت تضم أجناسا مختلفة حدث بينها امتزاج جنسي وثقافي وانعكست آثارها على الحياة العباسية.

-انتشار موجة الثراء والترف عند طبقة دون أخرى ولّد نزعتين مختلفتين:الفئة المترفة مالت إلى اللهو والخلاعة والمجون متأثرة في ذلك بالعادات والتقاليد الأجنبية ،أما الفئة المحرومة فمالت إلى الزهد ونبذت ما آلت إليه الفئة الأولى من التحلل الأخلاقي ،والتزمت بتعاليم الدين

الإسلامي ومبادئه ،ولقد نتج عن هذين العاملين مجموعة من المظاهر الاجتماعية تمثلت في: كثرة الجواري والغلمان ،مجالس الشرب والغناء ،الشعوبية ،الزندقة ،الزهد.

لقد توفرت البيئة العباسية على الأسباب الحضارية اللازمة من أجل التقدم والازدهار على الصعيدين الثقافي والمدني ،كما وجد الأدباء في ظل هذه الحياة الجديدة غايتهم المنشودة للتجديد والإبداع. وكان من الطبيعي أن يتأثر الأدب العباسي بملامح المجتمع العباسي في ظل الحياة الحضارية ،فالتغير الذي أصاب التركيبة الاجتماعية التي أصبحت تضم شعوبا مختلفة ،وتطور الحياة الحضارية بشقيها المادي والمعنوي تعد أسبابا رئيسة تلاحمت من أجل ابتكار عناصر إبداعية جديدة أسهمت في تميز الأدب العباسي.

كان لمجالس الشرب والغناء اللذين عرفتهما البيئة العباسية الأثر الواضح في الشعر العربي خلال هذا العصر ،وأول ما نلاحظه تطور مادة الوصف وموضوعه ،فنجد الشعراء يتأنقون في وصف كل ما يدور حول تلك المجالس من خمرة وسقاة ويكثر وصفهم للأماكن المختلفة التي كانوا يرتادونها من أديرة وحانات وبيوت قيان ،ثم حاولوا أن يلائموا بين هذه المجالس التي كانت تحضر الغناء على الأغلب ،وبين شكل وألفاظ هذا الشعر ،فظهر بشكل جديد حتى يتناسب مع متطلبات البيئة الحضرية ونوازعها المختلفة.

لقد خلفت الحياة الماجنة أثرا واضحا على الشعر العباسي ،حيث لم يكتف الشعراء بالتحدث عن المحرمات كشرب الخمر والغزل الماجن والغزل بالمذكر وإنما نجدهم يدعون إليها ويشجعون على الانغماس فيها،ولم تسلم الأغراض الشعرية الأخرى من التأثر بما أصاب المجتمع العباسي من مجون،فلو اطلعنا على فن الهجاء لوجدناه ينظم بأقذع الألفاظ وأفحش العبارات،ثم لم يلبث الشعراء أن يجددوا في قصائد

المدح،وهم لا يجدون مانعا من افتتاحها بمقدمة خمرية وأحيانا تغزلا بالمذكر،وفي كل الأحوال كانوا يرتكبون كبائر المعاصي ولا يستحون للنظم فيها،حتى إن بعضهم لم يتردد في الجهر بزندقته كما جهر بمجونه.ولقد ترك هذا الجانب انطباعا سيئا في الشعر العباسي الذي امتلأت صفحاته بهذه المظاهر التي نشأت في ظل الحياة الجديدة.

لقد خلفت الشعوبية أثرا واضحا على الشعر العباسي ،وما ينبغي أن نلتفت إليه في هذا المقام هو دعوة بعض الشعراء إلى التجديد في المحتوى الشعري القديم مثلما فعل ذلك أبو نواس ،وهذا الانتقاد يبدو بنّاءً لأنه يسعى للمواكبة بين الشعر العربي والتطور الحضاري الذي أصاب البيئة العباسية ،أما الشعراء الذين حاولوا الحط من شأن العرب وكان نتيجة لاستشعارهم بالإهانة كونهم كانوا أصحاب حضارات عظيمة أصبحت تابعة للحضارة العربية التي لم تكن تعي من الحضارة شيئا،أو نتيجة لحقد قديم على المهانة والذل اللذين لقوهما من قِبل العرب في العصر الأموي ،أما المبالغة في مدح أصحاب السلطة من الأعاجم ربما يعود سببه إلى انفاقهم على الشعراء الذين كانوا يجدّون في مدحهم ،لأن هذه الظاهرة كانت منتشرة بكثرة في البيئة العباسية. ومهما اختلفت الأسباب في انتشار هذه النزعة في الشعر العباسي ،إلا أننا لا ننكر مشاركتها في تطور معاني الشعر والإسهام في دفعه قدما نحو الواقع الحضاري الجديد.

يعد الزهد من الأغراض الجديدة التي اقتضتها الحياة الحضارية ،وقد جاء لأسباب متعددة ،نجده عند بعض الشعراء تعبير غير مباشر عن حرمان الشاعر وبعده عن الترف والثراء ،وأحيانا أخرى ندم وتوبة عما اقترفه الشاعر من محرمات ،وقد يكون عند البعض الآخر تحقيرا للحياة الماجنة دون الانغماس فيها ،وهو في النهاية غرض

شعري شأنه شأن الأغراض الشعرية الأخرى التي تصب في الوعاء الذي شكلته الحياة الجديدة.

تجلى التأثير الحضاري بشقيه المادي والمعنوي في الأدب العباسي شعرا ونثرا ،وهذا ما اتضح لنا من خلال هجر معظم الشعراء العباسيين بعض الأغراض الشعرية التي أصبحت لا تتلاءم مع حياتهم الجديدة ،بالإضافة إلى التجديد في بعضها الآخر كالوصف والهجاء وشعر الحكمة والرثاء والمدح...وكان من الطبيعي جدا أن تثمر الحياة الحضارية أغراضا جديدة كالمبالغة في وصف الخمر والمجون والغزل بالمذكر والاهتمام بوصف المظاهر الحضارية المختلفة من قصور ورياض وورود وسفن وغيرها. هذا بالإضافة إلى تجديد الشعراء في المعاني والأسلوب.وفي خضم كل ما عرفته البيئة العباسية من تقدم وازدهار على المستوى الفكري قفز النثر العربي قفزة نوعية باعتباره اللغة الناطقة بالحضارة الجديدة والأداة المساهمة في النهضة العلمية ،فنشطت الكتابة في هذا العصر وارتقت مكانتها ،كما شهد النثر تجديدا في موضوعاته وتأنق الكتاب في الألفاظ والمعاني التي أصبحت أكثر قوة وعمقا.

خلّفت الثقافة الفارسية أثرا على الأدب العباسي شعرا ونثرا ،ولاسيما من خلال اقتباس الشعراء العديد من الألفاظ والحكم الفارسية ،بالإضافة إلى تطور بعض الأغراض الشعرية كالخمريات والغزل الماجن والطرديات ،واستحداث أخرى كالغزل بالمذكر ،كما مال الشعراء إلى المبالغة والتهويل في الشعر ،ومن وجهة أخرى فقد حاكى العرب الفرس في تأليف القصص ،وبفضل الكتب المتنوعة التي نقلت إلى العربية تطورت الكتابة الديوانية كذلك.

كما تأثر الأدباء العباسيون بالثقافة اليونانية ولم يتأثروا بأدبها إلا نادرا لعدم تلاؤمه مع طبيعة الأدب العربي وحياة المجتمع الإسلامي ،إلا الحكم والقصص فقد نقلت إلى اللغة العربية لاتسامها بالطابع العام،والتي يبدو أثرها واضحا في المصادر الأدبية التي ألفت آنذاك ،وفي المقابل انكب جل اهتمامهم على الفلسفة اليونانية والمنطق وغير ذلك من الفروع المعرفية مما جعل الأدب العربي يشتمل على الكثير من المصطلحات الفلسفية ،ولم يقتصر تأثيرها عند هذا الحد بل تجاوزه إلى اقتباس العديد من الأفكار والنظريات ،كما اكتسب الشعر معاني جديدة،وأصبح يصاغ صياغة فلسفية،وأثر الثقافة اليونانية جلي في معظم الفروع النثرية ،وبفضلها أصبحت الكتابة تتسم بأسلوب علمي مما جعلها أكثر دقة ووضوحا.

أما أثر الثقافة الهندية على الأدب العباسي فقد كان طفيفا مقارنة بالثقافتين الفارسية واليونانية ،وبالرغم من ذلك تركت بصمات واضحة في تاريخ الأدب العباسي من خلال نقل القصص والحكم المختلفة إلى اللغة العربية والتي أعجب بها الشعراء العباسيون فراحوا يرصعون بها أبياتهم الشعرية ،وقد لا يتفانى الشعراء أحيانا من اقتباس بعض الآراء والمعتقدات الهندية ،كما فعل ذلك أبو نواس ،فضلا عن نبوغ الكثير من الهنود في نظم الشعر ودراسة اللغة العربية

لقد مسّ التطور الفكري الذي احتضنته الحضارة العربية الإسلامية في العصر العباسي جوانب متعددة من الشعر ،ويتضح ذلك في استخدام الشعراء للبراهين العقلية والمصطلحات المعرفية المختلفة ،بالإضافة إلى استعانتهم بالحكم والأمثال والنظريات العلمية والإشارات الفلسفية التي كانت شائعة آنذاك ،وقد غلب الاتساق والترتيب على معانيهم وأفكارهم ،كما استحدثوا الشعر التعليمي باعتباره الغرض الأكثر قربا مما كان يدور في هذه البيئات الفكرية ،وبذلك فالشعراء قد شاركوا في الحياة العلمية مشاركة

فعالة ،بل كانوا الأشد قربا من المناظرات والتيارات المختلفة ،ونجدهم ينتمون إلى الفرق الكلامية ويؤيدونها تأييدا. ويعبرون في كثير من الأحيان عن حبهم للإطلاع وشغفهم بالمعرفة. وبالرغم من الانتقاد الذي تلقاه هذا الشعر قديما وحديثا إلا أنه يظل يعكس المستوى الفكري لفترة من أهم فترات ازدهار الحضارة العربية الإسلامية بعامة والثقافة الشاملة للشعراء العباسيين التي انعكست على منظوماتهم بخاصة.

ولعل اهتمام الأدباء العباسيين بالنثر يعود إلى بلوغ العقل العربي مرحلة متقدمة من النضج ،مما جعلهم يلجأون إليه كأداة أكثر استيعابا للتعبير والإبداع عما يجول في أذهانهم. ولاسيما بعد تلك النهضة الفكرية التي أخذت الكثير عن الثقافات الأجنبية بترجمة تراثها إلى اللغة العربية.فاتسعت بذلك دائرة النثر في العصر العباسي وتأثرت بالمعطيات الحضارية على أشكالها ولاسيما الفكري منها ،ولعل السبب في ذلك يعود إلى رغبة المسلمين في مواكبة التطور الحضاري الذي جاءت به الأمم الأجنبية ،أو على الأرجح أرادوا أن يتركوا لمساتهم القيمة في ذلك الرصيد الثقافي الذي توارثته الأجيال المختلفة ،فاستفادوا من الموروث الفكري حتى يذهبوا برياتهم المعرفية إلى أبعد الحدود مستندين على المصادر التشريعية التي تعد الأساس الأول للحضارة العربية الإسلامية ،ثم إن العصر العباسي يمثل ميلاد الكثير من العلوم اللغوية والدينية ومرحلة جديدة للعلوم المترجمة على اختلافها ،وهذا ما يدل على رغبة المسلمين في التحصيل والبحث والتأليف في مختلف المجالات التي وجدوا من البحث فيها نفعا للدين والدنيا.

لقد نطق الشعراء العباسيون بلغة الحضارة الجديدة فتغنوا بمعالمها الحضارية المختلفة من قصور وبرك وجسور ورياض وسفن ،كما تغنوا بوسائل الثقافة وأدواتها وبمختلف أساليبهم في العيش والترفيه ،ووصفوا عظمة جيوشهم في المعارك والفتوح

،وهم على اختلاف هذه الموضوعات نجدهم يتخيرون أحسن الألفاظ وينتقون أفضل العبارات حتى يتناسب أسلوبهم مع مضمونهم الشعري.

هذا ،ولقد نجح الشعراء العباسيون في تجسيد مظاهر حضارتهم المادية بامتياز ،فنظروا إلى حسن القصور وعظمتها نظرة فنية راقية عبرت عنها ألفاظهم المنتقاة وعباراتهم الموحية التي جعلت من القصيدة صورة حية لآثارهم المعمارية.

إن المستوى الحضاري المتقدم الذي بلغته الدولة العباسية كان بفضل خلفائها العظام الذين جعلوا من بغداد مدينة في غاية الجمال والكمال ،ولعل إقامة الرشيد لهذا النهر الصناعي(بغض النظر عن الأهداف التنظيمية) يعود إلى نظرته الفنية الراقية التي تهوى المناظر الطبيعية الخلابة المفعمة بالحياة والاخضرار.

كما تفنن الشعراء في نعت السفن والزوارق كمظهر حضاري جديد يثير الفضول والدهشة ،فنجدهم يقفون متأملين قوتها وضخامتها وسرعتها تارة ،وأشكالها المتباينة وعناصرها المختلفة تارة أخرى.

هذا ،وقد اهتم العباسيون بتزيين رياضهم وبساتينهم بمختلف أنواع الورود والأزهار المتباينة الألوان ،ولعل هذا هو السبب الذي جعل الشعراء يتأملون هذه المناظر الطبيعية الخلابة ويطلقون العنان لأقلامهم التي تكتب ما تمليه عليهم قرائحهم المتفتحة بالحضارة الجديدة. ولقد كثر الشعر الذي قيل في هذا المجال ،ونبغ فيه العديد من الشعراء ،نذكر منهم:ابن المعتز،وابن الرومي،والحمداوي وغيرهم ،كما اهتموا بوصف مظاهر الجمال والرقة في الحضارة العباسية ،والتي تجلت في تلك المناظر الجميلة المتباينة الألوان التي استلهمت عناصرها من الطبيعة الغنّاء ،فتوقفوا عند حسن الرياض تارة متأملين انسجامها ،فوصفوا خضرتها وأنهارها وأزهارها ،وعند بهاء الورود

تارة أخرى ناعتين تباين أشكالها وألوانها بأسلوب مشرق وألفاظ عذبة تناسبت مع ليونة مضمونهم الشعري

إن الوصف الحضاري في الشعر العباسي قد شمل العديد من الموضوعات ،إذ إنه لم يقتصر على وصف مظاهر الثراء والعمران فحسب ،بل تعدى ذلك إلى وصف مختلف وسائل الثقافة المتاحة إبان العصر العباسي ،وهذا ما يدل على عظمة الحضارة العربية الإسلامية التي ارتقت بأمتها إلى آفاق الفكر والمعرفة.

كما عكس الشعر العباسي العديد من المظاهر الحضارية التي تعلقت بحياة العباسيين العامة ،حيث نجد أن الشعراء قد وصفوا أصناف المأكولات والمشروبات التي كانت تنمق موائدهم وولائمهم ،كما تغنوا بالملابس المطرزة وبأدوات الزينة المختلفة التي كانت ترتديها النساء ،وبوسائلهم المختلفة للتسلية والترويح كالشطرنج والنرد والصولجان والصيد وغيرها.

اشتهر العصر العباسي بكثرة الفتوح والمعارك على بلاد العجم ،ولعل خوضهم في هذا المجال وإحرازهم للكثير من الانتصارات لدليل على عظمة حضارتهم التي تجلت في متانة عدتهم الحربية ونباهتهم في تنظيم الجيش. ولقد فاخر الشعراء العباسيون دولتهم بما أحرزته من انتصارات وفتوح ،فوصفوا عظمة جيوشها ،وكثرة سلاحها وخيلها وقوة أسطولها.

يتضح مما سبق أن الشعراء العباسيين قد خلدوا معالم حضارتهم العظيمة بين سطور إبداعاتهم ،فكانت هذه الدواوين الشعرية خير شاهد على المستوى الحضاري الذي بلغته الدولة العباسية،وهذا ما يدل على مدى تأثير الحضارة العربية الإسلامية في الشعر العباسي الذي نطق بلغتها وتغنى بمعالمها الثقافية والمادية.

introduction

The literary production through out centuries; is only reflective mirror of a society at a particular time, and what changes it only in response to new developments fall into the path of that reality, which provides the writer of various creative elements .thus abbassi literature had addapted new reality of civilization that has contributed the Islamic environment, it took up its cultural language, which was leaked to the different areas of life, it turned up on abbassi poetry and pose field .as soon as we started believed at thz new thereto until we find evidence of literary that confirms the above, but we find informed and believe all the talk .through out came my research topic: ((the impact of the Arab-Islamic civilization Abbasid Literature)), which tried through exposure to a relationship of intimacy between the Arab Islamic civilization and ancient Arabic literature, and focused on the impact of this civilization in general and Arabic literature, literature Abbasi in particular.

It should be noted that Abbasi literature has received considerable attention by researchers, but the relationship of this literature, and Islamic civilization has not received great attention –according to me - it was, this research has tried to address this dilemma that has eluded much first. But it, however many insist and research, are coming to me to reach a combination of both sides of the literature and civilization, and I am not revealing a secret if I mentioned in this regard that the ad hoc studies of this kind of almost non-existent studies, and did not affect some aspects only through brief articles in journals or websites, so the studies that preceded the objective of this touching little topic that I am about to be treated; including: the history of Arabic literature of Shawqi Daif, and (sacrificed Islam) Ahmed Amin, poetry and poets in the Abbasid period of Mustafa Shaka, and the history of Arabic literature (Abbasid eras) to Omar Farukh and literature Arab in the Abbasid period of Mohammed Abdul Moneim Khafaji, and poesy in Baghdad until the end of the

third century, Ahmed Abdel Sattar slaves, and the contract to the son of Alfred Abed Rabbo, poetry and poets Ibn Qutaiba, songs of Abu Faraj al-Isfahani, and promoter of the gold Masoudi.

As for why I chose this subject goes back to the lack of care aspect referred to above from the point, and the desire of me in the search for fields which remained lit from another point, add to that another reason and self-represented in the curiosity that I became after I prepared a Master project, which I exposed where the extent of the impact of the Arab Islamic civilization in ancient Arabic literature in general, I wanted to look again at this field, but I got focused this time on the period of the Abbasid rule that writers cultural environment, gave the best representation, and about their surrounding to reflect the different cultural elements and manifestations of civilization that was common at that time.

My plan is based on this set of objectives, throughout, trying to detect the most prominent aspects of the transformation that has defined the social, intellectual and cultural life, and the impact of the Abbasid literature these manifestations .had been it is possible to summarize the objectives of the research in the following points:

A study of the influence of Islam in literature and civilization.

A study of the reality of Arab-Islamic civilization in the Abbasid period.

A study of the literary situation resulting from the impact of civilization.

-practise Some poetic pieces that represent this effect.

The curriculum employee in this research, it is the descriptive approach with the use of historical and artistic approach sometimes when it comes to analyzing pieces of poetry.

To answer the questions given in the folds of research or at least some of my research is divided into four chapters and reboot.

In the boot came relationship literature civilization which she dealt with the impact of literature on the receiver and then the role of literature and its position in the Arab-Islamic civilization and the vulnerability of literature civilization.

And came in the first chapter lesson and analysis to the reality of the literary life in early Islam and the amaoui period as affected by the religion of Islam. I tried at first to stand on its impact in the lives of religious, social, mental and cultural Arabs, then classify Islamist influence on the basis of poetry and prose evidence that I've found influenced by the principles of topics Islam and Quranic style and the Hadith, and on this basis I did a survey and analysis of the axes of the mentioned. before

Then i dealt with in the second chapter About the Abbasid Caliphate, then touched on the social aspects prevailing in the Abbasid environment such as the spread of maids and servants, and populism and heresy and others, and then I stopped at the most important intellectual manifestations, particularly the translation movement and its the impact of foreign cultures in the intellectual life, and then dealt with the manifestations of wealth and luxury in the Abbasid environment and the progress in the restauration and drink, clothing and toiletries, also I talked about instruments entertainment and recreation and some architectural features that characterized the Abbasid civilization.

Turning in the third quarter was about the fields citizen cultural influence in Abbasi literature influenced by providing a summary about the features of the Abbasid literature as we tried to stand at the manifestations of social impact in the poesy and then represented by the Abbasid intellectual life.

The final chapter has been allocated for the manifestations of cultural material in the the Abbasid on its poesy palaces, bridges and kindergartens, ships and others.

It concluded with a summary general search included the most important findings in this research, and then a catalog of materials and a list of sources and references.

The difficulties encountered during the preparation in the research were: the complex nature of the Abbasid period at various levels and various fields, in addition to the long duration of familiarity that made all of its manifestations very difficult . confine my studies in a specific field of this vast age although it is characterized peek the large number of tributaries and complexity Droppe.

At last I hope that I have managed some success in my work to accomplish this, and who did not complete without the will of God Almighty virtuous and my teacher, Dr. (Mohamed Mrtad), who overwhelmed his sympathy and guidance, it is the beam that illuminated my way peaces of advice and patience and encouragement throughout the duration of the search, I thank him very much. Thanksgiving to him .and all my hopes is that this research open the way for studies to be deeper and more inclusive.

Tlemcen in: 06/09/2016

Chergui wassila

Conclusion

I've arrived through my research into these set of results, which can be summarized as:

1- The nature of the relationship that combines literature, civilization is the intimate relationship; Literature is the central of civilization and cultural appearance of her as representing the moral side, which includes aspects of the spiritual life, and has a prominent role in building civilizations, and civilization itself, works to feed the literature and pushing forward towards the development and progress.

2- the literature had been influenced by early Islam religious and political coup in the lives of Arab appearance of Islam, and this is what led to the multiplicity of poetic purposes, it flourished as the art of public speaking and a variety of subjects.

3- the oumaoui caliph took a special care and attention encouraged poets systems, particularly for the purposes that serve their interests, and It begun influenced the new cultural environment, making it is characterized by depth and arrangement and accuracy, with its clear meanings and free of complexity, it had flourished several purposes, especially spinning and political poetry and spelling. It came and prose in different ways and a variety of new themes and purposes, as the rhetoric flourished and reached its peak amid the political, social and literary circumstances.

4- Islam has affected most of the writers and poets Islamists who derived their ideas and their meanings and eloquence of the Qur'an and Sunnah, so once had been influenced by its principles, and the new style at other times, as the capital of a lot of them to quote Quranic verses and prophetic traditions so as to enhance their creativity and poetic prose force in meaning and beauty in Building.

5- the influence of the social life, which necessitated the Abbasid civilization on many aspects of Arabic poetry from that time , and this is evident in its contribution to the boards of drinking and singing and the spread of slaves and Alqian in the evolution of material description and subject matter, and the tendency to promiscuity has opened the door wide open for the emergence of new poetic purpose was not to the Arabs entrusted, as it did not pass before leaving their mark in many other poetic purposes, and in return for this bustling life that drove a lot of the recession behind the luxury and pleasures, we find a tendency asceticism lend luster to a lot of Arabic poems that were organized during the Abbasid era.

6- The populist phenomenon of the social aspects that came in several forms in the Abbasid poesy: it calls for renewal on a literary level, at times, or contempt one of the races other times, and its impact lies in the development of poesy material and pushing forward toward the new reality of civilization.

7- Abbasi literature grew up between the Abbasid civilization, which saw the intellectual renaissance of the great in Islamic history, and that mass of the foreign cultures even elevated civilization, particularly Persian culture, Greek culture, Indian culture, and this is what led to the development of some poetic purposes and the development of other purposes, not only poets Quote add to their wording and terminology and the verdict, but we find them often quote ideas and theories, and perhaps this is what make the hair acquires new meanings.

8- prose was influenced by foreign cultures and writing evolved and matured signatures of Diwaniyah, as marked by the writing is stated at the level of words and meanings and sometimes we find accurate and clarity of its dependence on other times the scientific method. With increasing attention authored stories along the lines of foreigners.

9- the Abbasid intellectual poesy had been influenced development hosted by the Abbasid civilization where poets used mental proofs different cognitive and terminology have been affected, as were helped by governance and proverbs, scientific theories and philosophical references that were common at the time, and this is what makes their ideas and their meanings are in harmony and arrangement. The participation of poets in the scientific life evident impeccable where we find them more closer to the debates and various currents witnessed by the Abbasid period.

10-prose has reached an advanced stage of development and prosperity, so its leaves and its branches had been multiplied in order to keep up with new intellectual life, and we find scientific prose philosophical prose and historical prose, the book also preen in words and meanings which is becoming stronger and deeper.

11- Poets Abbasids had pronounced the language of the new civilization Vngnoa various cultural landmarks of palaces and parks, bridges, kindergartens and ships, as sang by means of culture, tools and various methods of live entertainment, and described the greatness of their armies in battles and Fotouh, who are on these different topics we find them best words and pick the best phrases even their style commensurate with their content poetic.

جامعة أبي بكر بلقايد - تلمسان

مجلة الفضاء المغاربي

مجلة دورية محكمة يصدرها
مخبر الدراسات الأدبية والنقدية وأعلامها
في المغرب العربي

العددان الثامن و التاسع

السنة الحادية عشرة - شعبان 1435هـ/ ماي 2014 م

رقم الإيداع القانوني
508-2003
الترقيم الدولي
ISSN: 1112-4067

ملامح التأثير الحضاريّ الإسلاميّ في الشعر الأمويّ

وسيلة شرقي X
جامعة تلمسان

ملامح التأثير الحضاري الإسلامي في الشعر الأموي

إن الإنتاج الأدبي في أي عصر من العصور؛ ما هو إلا مرآة تعكس لنا الواقع المعيش خلال حقبة زمنية معينة، و ما التغيرات التي تطرأ على الأدب شعرا و نثرا إلا استجابة لتطورات جديدة دخلت في مسار ذلك الواقع الذي يزود الأديب بمختلف العناصر الابداعية التي من شأنها أن تضفي عليه صبغة خاصة تميزه من الآداب الأخرى باختلاف أزمنتها و أمكنتها.

فإذا عدنا إلى الشعر العربي القديم إبان العصر الجاهلي و وجدناه يتناول موضوعات متشابهة انبثقت من البيئة الجاهلية التي كان يسودها الجهل و البطش و العصبية القبلية، فجاءت أشعارهم انعكاسا لذلك الواقع المرير الذي ما لبث أن اصطدم بظهور الاسلام الذي جاء ثورة على النظام السائد في العصر الجاهلي، لينير بتعاليمه السمحة درب الحياة العربية التي عاشت في الظلام و الجهل لسنين كثيرة. و لقد حقق العرب بفضله الكثير من التطورات على مستوى حياتهم الدينية و الاجتماعية و العقلية و الحضارية، مما ساعد على بلوغ مرحلة متقدمة من الانفتاح على واقع حضاري جديد اقتضاه الدين الاسلامي برسالته الراقية التي جعل من خلالها الإنسان خليفة الله في أرضه، و من جهة أخرى نجد الكثير من الآيات القرآنية التي تدعو الإنسان إلى التفكير و التأمل و إلى إعمال العقل، ولعل هذا ما دفع المسلمين إلى البحث عن أسباب الرقي و الحضارة التي ظهرت بذورها مع ظهور الإسلام، و التي اكتمل نضجها مع العصر العباسي، فالعصر الأموي بذلك يعد المرحلة الفاصلة بين ظهور الأسباب الحضارية و بين بلوغ الذروة في التطور والازدهار، فهو مرحلة تكونت فيها معظم المقدمات الحضارية التي كانت تحتاج إلى الوقت الكافي لتتبلور و تعطي نتائجها.

و لقد تأثر الأدب العربي القديم خلال هذه الفترات بما أصاب الواقع من تغير و تطور على مختلف الأصعدة، فنطق بلغة الحضارة الجديدة-إن صح التعبير-و إن كانت في خطواتها الأولى نحو

التقدم، ولكن اللمسة الحضارية بدت جلية في الأدب الأموي بعامة و الشعر بخاصة.

و قد يتأمل القارئ من خلال هذه الأسطر التمهيدية ليلاحظ أن موضوعنا يحاول أن يربط الأدب بالحضارة في زمن معين، ولذلك حاولنا الوقوف على هذه العلاقة التي لا تتضح إلا بإدراج بنية الحضارة التي تتكون من ركنين أساسين و هما: **الثقافة**- وهي بمثابة روح الحضارة و وجدانها-و **المدنية** التي تمثل الأساليب المادية و الأساليب العملية، فالعلاقة التي تجمع الثقافة بالحضارة هي علاقة تكامل باعتبار أن الثقافة نتاج ثقافي بأبعاد مادية و روحية، وبما أن الأدب ركن في الثقافة،و الثقافة بدورها هي الركن الروحي للحضارة، يمكن القول: إن الأدب ركن في الحضارة و مظهر ثقافي لها ينسجم معها و يؤثر فيها و يتأثر بها.

و سنحاول من خلال موضوعنا هذا أن نقف عند نقاط التجديد التي اقتضتها ملامح الحضارة العربية الإسلامية في الشعر الأموي بما فيها الإسلام الذي يعد الركن الأساس لقيامها، كما يعد السبب المباشر في اهتمام المسلمين بالحياة الفكرية باعتبارها الشق المعنوي للحضارة، وصولا إلى المظاهر المادية الحضارية في العضر الأموي و مدى تأثيرها في شعر ذلك العصر.

و لابد أن نشير إلى أن الإسلام لم يحرم من الشعر إلا ما جاء منه معاديا له و طاعنا فيه،و يبدو ذلك جليا في قوله تعالى:{**وَ الشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الغَاوُونَ*أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ* وَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ* إِلاَّ الذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَالِحَاتِ وَ ذَكَرُوا اللهَ كَثِيراً...**}[1].و حتى رسول الله صلى الله عليه و سلم نجده في أكثر من حديث يشجع الشعراء المسلمين حتى يدافعوا عن الدين و يردوا على المشركين،من ذلك قوله صلى الله عليه و سلم لكعب بن مالك»اهجهم فو الذي نفسي بيده لهو أشد عليهم من النبل.»[2]

-1أثر الإسلام في الشعر الأموي:

لقد عكست معظم القصائد التي قيلت خلال فترة صدر الإسلام الواقع الجديد التي آلت إليه البلاد العربية بظهور الدين الإسلامي الذي انقسم الشعراء حياله و لاسيما شعراء مكة و المدينة إلى فئتين:احداهما ناصرت الإسلام،و الأخرى طعنت فيه،فجاءت قصائد ذلك العصر لتصور واقع البيئة العربية في خضم الدين الجديد بين استيعاب و رفض.[3]ثم أخذت الدولة الإسلامية مسارا آخر خلال فترة الحكم الأموي،حيث استقر الإسلام في نفوس الكثيرين،و انتشر بشكل أوسع حتى بلغت ثقافته المجتمع العربي باختلاف طبقاته و المجتمع الأجنبي باختلاف أجناسه،و لعل ما يعكس

بهذا الأثر ما تستنتجه حينما نطالع القصائد التي نقلتها لنا كتب التاريخ و الأدب و التي نظمها شعراء خلال العصر الأموي.و من بين الأغراض التي يبدو فيها أثر الإسلام واضحا: **الغزل العذري** الذي نظم فيه شعراء البادية و بعض فقهاء مكة و المدينة، هذا الشعر الذي أضفت عليه المسحة الدينية صفاء في المعنى و جمالا في الألفاظ التي عكست النقاء النفسي و السمو الروحي،كما مال شعراء **المدح** إلى التغنّي بصفات و أخلاق الممدوح التي دعا إليها الدين الإسلاميّ واصفا عدالته و تقواه و واجبه السوي تجاه رعيته التي تطيع أوامره تبعا لما جاء في تعاليمه[4]،و أثر الإسلام في **الهجاء** القائم، حيث راح الشعراء يهجون خصومهم بفسوقهم و انحرافهم عن تعاليم الدين و مبادئه،و لقد كثر في هذا العصر **الزهاد** و الشعراء الذين جعلوا من **الإرشاد و الوعظ** غرضا قائما بذاته متأثرين بوعاظ المساجد،و كانت كل غايتهم تحريك ضمائر الغافلين و ايقاظهم من ضلالهم[5]،هذا و لم يتفان الشعراء عن الاقتباس من آيات القرآن الكريم الذي بهرتهم روعتها و عذوبتها،و حتى من الأحاديث النبوية التي جاءت على شكل حكم راقية تميزت بتناغم الألفاظ و بسمو الغاية.

2-أثر الحياة الفكرية في الشعر الأموي:

لقد اهتم العلماء المسلمون خلال السنوات الأولى من ظهور الإسلام حتى نهاية العصر الأموي بالعلوم الدينية أكثر من العلوم العقلية،و يجمل أحمد أمين ذلك في قوله:» ظل الدين أساس كل الحركات العلمية إلى أواخر العصر الأموي،فأساس التاريخ سيرة النبي صلى الله عليه و سلم و غزواته و فتوح المسلمين،و الفقه مبني على ما ورد من القرآن و الحديث،و وعظ الوعاظ و بحث العلماء دائر حول الدين من تفسير الحديث و فقه و ما إلى ذلك،و ما أثر عن ذلك العصر من دراسات دنيوية من طب و صناعة(كيمياء) قليل نادر،و أكثر من اشتغل بهما من غير المسلمين.»[6]و لعل اهتمام المسلمين خلال هذه الفترة بالدين و علومه أمر طبيعي و طور تمهيدي للنهضة العلمية التي اكتملت فيما بعد،و انشغالهم بالعلوم الدينية يعود إلى رغبتهم في الكشف عن أسرار هذا الدين العظيم.

و يجمع الدارسون على أن أعظم درجات الرقي التي بلغتها الحياة الفكرية في هذا العصر كانت في ميدان صناعة الشعر الذي وجد ضالته وسط تلك البيئة التي نشطت فيها العصبيات و تعاظمت فيها الخلافات،بالإضافة إلى نزعة الأمويين الجاهلية التي لا تميل إلى التفكير الفلسفي،بل يؤثر عندهم الشعر الجيد و الخطبة البليغة.[7]

و تكمن مظاهر التأثير الفكري في الشعر الأموي فيما تركته المناظرات و ما كان يصاحبها من حوار و جدل في عقلية الشاعر العربي الذي أصبح يعتنق نظرية سياسية خاصة يؤمن بها و يجعلها محور شعره،كما أصبح مثقفا بطرق الجدال و الحوار التي تأثر بأساليبها و أصبح يطبقها في شعره[8]،و ما النقائض التي شاعت في الشعر الأموي فما هي إلا مناظرات بمعنى الكلمة:تغذت و تطورت بين أحضان البيئة الجدلية التي اعتمدت على الحوار و الاستدلال في كل شيء،و ما يلاحظ كذلك أن الشعراء أصبحوا يتخصصون في موضوعات بعينها،و أصبح كل شاعر يتناول حرفته تناولا جيدا عماده البحث و الدرس اللذان ألفهما في بيئات الفقهاء و أصحاب التفكير في العقيدة الدينية،و قد تجد في بعض الأحيان قصائد نظمت لحاجة لغوية،و هذه الظاهرة لم تكن مألوفة من قبل،و إنما جاءت تحت التأثير الفكري الذي أصاب العقلية العربية.[9]

أثر الثراء و الترف على الشعر الأموي:

لقد انطلقت موجة الثراء في الحضارة العربية الإسلامية منذ عصر الخلفاء الراشدين، حيث أخذت الأموال تسيل إلى خزائن الدولة الإسلامية عن طريق الفتوح التي توالت على بلاد فارس و الروم،فامتلأت هذه الخزائن بالفضة و الذهب و الجواهر النفيسة،و لقد جلب العبيد الذين كانوا يسبون من الحروب،و الذين كانوا يحملون معهم عادات و تقاليد بلادهم،و ألوان مختلفة من الحضارة الوافدة،ثم توسعت هذه الفتوح خلال العصر الأموي،و كثرت معها الأموال،و بدأت بذور الثراء تُأتي ثمارها،فترى القصور الشاهقة و الأبنية الفاخرة التي بنيت بالجص و الآجر و التي اتخذت أبوابها من الساج،و تفنن القوم في ملح العيش و التمتع بالحياة بمختلف مباهجها،و يظهر التأنق الحضاري جليا في طعامهم الذي أصبح متنوعا،و في الأواني الراقية التي كانت من الذهب و الفضة،و في وملابسهم حيث اتخذوا الخز و الديباج و الاستبرق،و في زينتهم بالحلي و الجواهر،متأثرين في ذلك بحضارات الأمم المفتوحة[10]،و قد أشار ابن خلدون إلى ذلك في قوله:»لما ملك العرب فارس و الروم،استخدموا بناتهم و أبناءهم و لم يكونوا لذلك العهد في شيء من الحضارة،فقد حكي أنه قدم لهم المرقق فكانوا يحسبونه رقاعا،و عثروا على الكافور في خزائن كسرى فاستعملوه في عجينهم،فلما استعبدوا أهل الدول قبلهم و استعملوهم في مهنهم و حاجات منازلهم،و اختاروا منهم المهرة في أمثال ذلك،و تطوروا بطور الحضارة و الترف في الأحوال استجادوا المطاعم و المشارب و الملابس و المباني و الأسلحة و الفرش و الآنية و سائر الماعون و الخرثي (أثاث البيت) فأتوا من ذلك وراء الغاية.«[11]

و لقد كان لهذه النقلة الحضارية أثرها البارز في الشعر الأموي شكلا و مضمونا،فبعد أن توفرت الأسباب الحضارية مال علية القوم و خاصتهم إلى الانغماس في الشهوات و الملذات و اللجوء إلى الملاهي للتمتع بسماع الأغاني التي تركت آثارها في الغزل الذي أصبح يؤلف للمغنين و المغنيات،فتحول بذلك إلى شعر غنائي بمعنى الكلمة ينظم على شكل مقطوعات تميل إلى السهولة المفرطة و تعنى بالحب و وقائعه المعاصرة.[12] و لم يقف تأثير الترف عند هذا الحد بل تجاوزه أبعد إلى من هذا؛حيث ظهرت فئة من الشعراء عنيت بالنظم في اللهو و المجون كالوليد بن يزيد و أبي الهندي و غيرهم.[13]

و ترى شعراء آخرين يلازمون البلاط بمدحهم للخليفة و ثنائهم عليه،ليفيض عطاءه جزاء لهم فيما نظموه،و قد سمي هؤلاء بشعراء البلاط و التكسب[14]،و هذه ظاهرة لم تكن مألوفة من قبل،وإنما اقتضتها حياة الثراء و الترف وسط البيئة الجديدة،فوجد الشعراء مكسبا بنظمهم للخليفة أو حاشيته،و تذكر المصادر روايات كثيرة حول الرواتب و الأعطيات التي كان يتلقاها الشعراء من وراء هذا،نذكر منها قول ابن عبد ربه عن جرير الذي أنشد عبد المالك بن مروان شعرا فقال:»من يمدحنا فليمدحنا مثل هذا أو ليصمت...ثم أمر له بمائة ناقة.»[15] و هذا ما كان له أثره على شعر المدح الذي وجد ضالته في البيئة الأموية.

و حتى إن كان الوصف هو الغرض الأكثر ملاءمة للتحدث عما آلت إليه البلاد الإسلامية من حضارة و تمدن خلال العصر الأموي، فإننا نجد روح البداوة غلبت عليه و لم تترك له مجالا للتمعن في المظاهر الحضارية التي استجدت في هذه البيئة،و ما تعكسه الأشعار العربية التي قيلت في هذا العصر حول هذا الجانب قليل نجده في بعض منها كشعر عمر بن أبي ربيعة الذي تحدث عن امرأة في خضم الحضارة الجديدة:

قَالَتْ ثُرَيَّا لِأَتْرَاب لَهَا قُطُف   فُمَنَ نُحَيِّي أَبَا الخَطَّابِ مِنْ كَثَبِ
فَطِرْنَ طَيْراً لَمَا قَالَتْ وشَايِعها   مِثْلُ التَمَاثِيل قَدْ مُوِّهْنَ بِالذَهَبِ
يَرْفُلْنَ فِي مُطْرَفَات السُوس آونَةً   وَ فِي العَتِيق مِنَ الدِّيبَاج وَ القَصَبِ
تَرَى عَلَيْهِنَّ حُلَي الدُرِ مُتَسِقًا   مَعَ الزبرجد و اليَاقُوت كَالشُهَبِ[16]

أو ما تعكسه هذه الأبيات من ميل الخلفاء إلى اللهو و الطرب اللذين صاحبا حياة الثراء و التي قالها أحد شعراء بني أمية في الوليد بن يزيد:

فَأَبْشِرْ يَا أَمِينَ اللَّـ ـهِ أَبْشِرْ بِتَبَاشِيرْ
بِإِبْلٍ يُحْمَلُ المَالُ عَلَيْهَا كَالأَنَابِيرِ
بِغَالٌ تَحْمِلُ الخَمْرَ حَقَائِبُهَا طَنَابِيرِ
وَ دَلُّ البَرْبَرِيَاتِ بِصَوْتِ البَمِّ و الزِيرْ
وَ قَرْعِ الدُفِّ أَحْيَانا وَ نَفْخٍ بِالمَزَامِيرْ
فَهَذَا لَكَ فِي الدُنْيا وَفِي الجَنَّةِ تَحْبِيرِ[17]

و قد نجد مقاطع متناثرة هنا و هناك،لكنها لا تعدو مجرد أبيات لم تقف مطولا على المظاهر الحضارية في البيئة الأموية مقارنة بما نظمه الشعراء العباسيون عن حضارتهم.

و مجمل القول:إن الشعر العربي في العصر الأموي قد عكس بعض ملامح الحضارة العربية الإسلامية التي كانت لتزال في مرحلة التكوين و التبلور،و قد ارتأينا أن نتوقف عند أهم المواطن التي استجدت في البيئة الأموية للإطلاع على هذا التأثير الذي جاء بدرجات متفاوتة:بداية بأثر الإسلام الذي هذب المجتمع العربي بتعاليمه و قيمه مما جعل الشعراء يتأثرون بها فينظمونها في شعرهم باعتبارها مثلهم الأعلى،كما يعد المقوم الرئيس الذي غير مجرى الحياة العربية و نقلها من طور البداوة إلى طور الحضارة،و هو الذي قامت على أساسه علوم مختلفة جراء الأثر الكبير الذي تركه في نفوس المسلمين الذين راحوا يسقون ظمأهم باللجوء إلى مختلف المجاري المعرفية،و لقد صور الشعر الأموي هذا الجانب متأثرا في ذلك بما آلت إليه العقلية العربية التي أصبحت تميل إلى البحث و الغوص في غمار البحث و المعرفة،أما فيما يتعلق بالجانب المادي من الحضارة العربية الإسلامية و مدى تأثيرها في الشعر الأموي فقليل،و يرجح أن شعراء العرب لم يكونوا قد استوعبوا الواقع الحضاري الجديد لذلك نجد أن شعرهم قد عكس الجانب الروحي من الحضارة العربية الإسلامية ولم يتعداها إلى غيرها إلا ما جاء عفويا كما ذكر سالفا.

هوامش وإحالات

1-سورة الشعراء::224-227

2 - ينظر:الكشاف، الزمخشري، مكتبة المصطفى:966

3 -ينظر: الحياة الأدبية بعد ظهور الاسلام، محمد عبد المنعم خفاجي،د ط . ،دار الجيل،بيروت،1990 :205،207، تاريخ الأدب العربي في العصر الاسلامي،شوقي ضيف،ط20،دار المعارف،مصر،2002 :42.

4 -ينظر:المرجع نفسه:177،178

5 -ينظر:المرجع السابق:182.

6 -ضحى الاسلام،أحمد أمين،ج2،ط6،مكتبة النهضة المصرية،1935: 8

7 -ينظر:الأدب العربي:العصر الاسلامي و الأموي،عبد الرحمان عبد الحميد علي،ط6،دار الكتاب،الجزائر،2005 :57،حضارة العرب في العصر الأموي،حسين حاج حسن،ط1المؤسسة الجامعية،بيروت،1994 :120.

8 -ينظر:التطور و التجديد في الشعر الأموي،شوقي ضيف،ط6،دار المعارف،القاهرة،1977 :73،80.

9 -ينظر:المرجع نفسه:80،84.

10 -ينظر:حضارة العرب في العصر الأموي،حسين حاج حسن:111،117.

11 -المقدمة،ابن خلدون،تحقيق:خليل شحادة ،سهيل زكار،دط،دار الفكر،بيروت،2001 :216

12 -ينظر:التطور و التجديد في الشعر الأموي،شوقي ضيف:102،104،الآداب العربية من الجاهلية حتى عصر بني أمية،كارلونالينوتقديم:طه حسين،ط2،دار المعارف،مصر،1970 :132.

13 -ينظر:تاريخ الأدب العربي في العصر الإسلامي،شوقي ضيف:376-384.

14 -ينظر:الحياة الأدبية بعد ظهور الإسلام،محمد عبد المنعم خفاجي:508

15 -العقد الفريد،ابن عبد ربه،مكتبة مصطفى:145.

16 -ديوان عمر بن أبي ربيعة،عمر بن أبي ربيعة،شرح:يوسف شكري فرحات،ط1،دار الجيل،بيروت،1992: 91.

17 -تاريخ الطبري،الطبري،تحقيق:محمد أبو الفضل ابراهيم،ج7،ط2،دار المعارف،مصر،1967 :225..

Université ABOU BEKR BELKAID – Tlemcen

REVUE
L'ESPACE MAGHREBIN

REVUE PERIODIQUE
DIRIGEE ET PUBLIEE PAR LE
LABORATOIRE D'ETUDES LITTERAIRES
ET CRITIQUES ET DES GRANDES
FIGURES DANS LE MAGHREB ARABE

Numéros 8-9

N° légal d'édition
508-2003

Numérotation nationale
ISSN: 1112-4067

رفوف

العدد
32
2015

مجلة محكمة يصدرها أساتذة من قسم اللغة العربية وآدابها جامعة ـ السانية ـ وهران

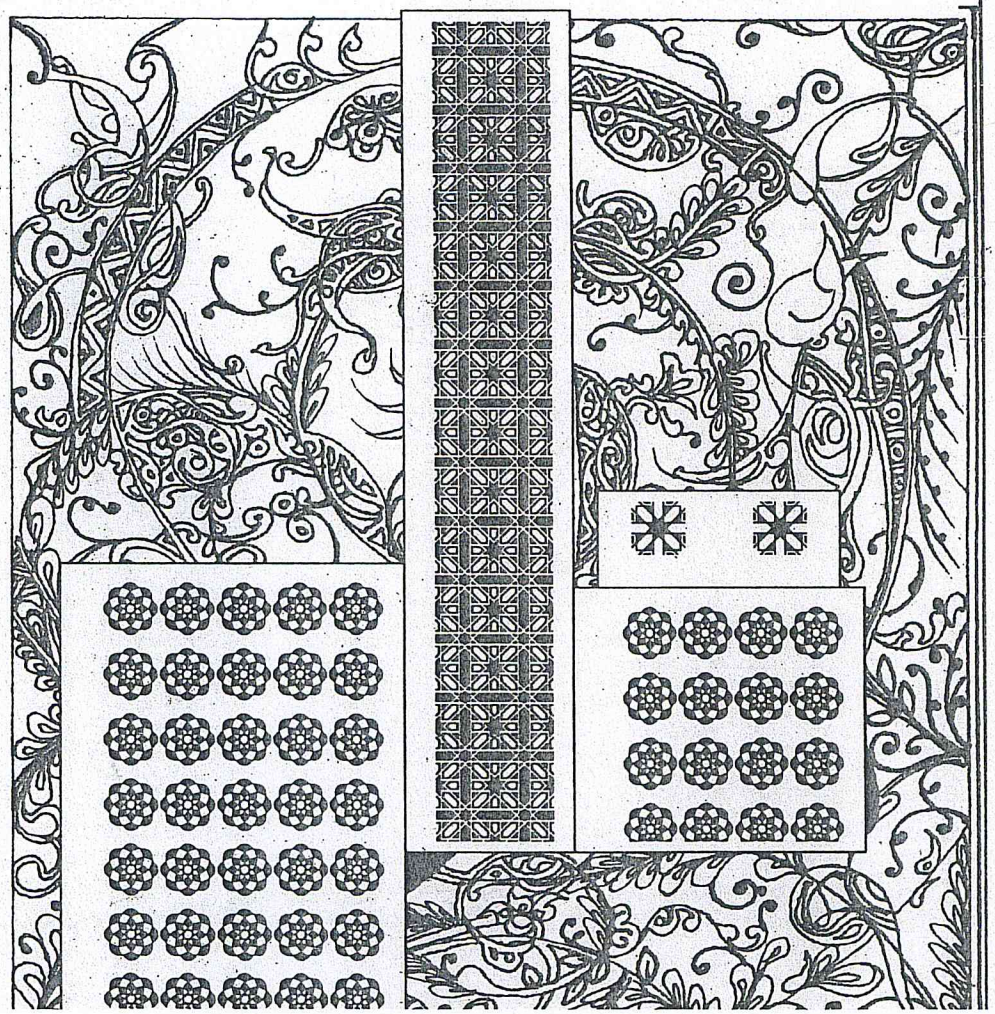

مجلة القلم . العدد ـ 32 ـ يناير 2015 م ص 35

الملامح الحضارية

في

قصيدة إيوان كسرى للبحتري

الباحثة: **شرقي وسيلة**

دراسات عليا- جامعة أبو بكر بلقايد -تلمسان-

ملخص:

تختلف لغة الشّعر ومقوماته الإبداعية باختلاف البيئة المعيشة؛ولقد مثّل الشّعراء العبّاسيون بيئتهم الحضارية أحسن تمثيل،لا وبل سالت أقلامهم،وتحرّكت قرائحهم حتى تعكس مختلف المقومات الثّقافيّة والمظاهر الحضارية التي كانت شائعة آنذاك.وقصيدة البحتري في وصف إيوان كسرى من أكثر القصائد الوصفيّة التي عكست ظاهرة من أهم الظّواهر التّي ميّزت الحضارة العبّاسية ألا وهي: الامتزاج الثّقافي بين العنصر العربي وغيره من العناصر الأجنبيّة، ولقد توقف البحتري من خلال قصيدته على عدد غير قليل من مظاهر الحضارة الفارسيّة: تنوعت ما بين الماديّة والمعنوية. وهذا ما سيتضح من خلال هذه الدّراسة.

تقديم:

إنّ الشّعر في أي عصر من العصور؛ما هو إلاّ مرآة تعكس لنا صورة مجتمع ما في زمن معين،ويجمع الدّارسون أنه اللّغة الأكثر ملاءمة للتّعبير عن وجدان النفس ونوازعها المختلفة وسط البيئة المعيشة التي تمده بمختلف العناصر الأساسية ليكون وليدها والراوي الأمثل لأحداثها وتاريخها،ولقد اختلفت لغة هذا الشّعر من عصر لآخر باختلاف البيئة التي ترعرع فيها،فإذا عدنا إلى الشّعر الجاهلي وجدناه يعكس مختلف المقوّمات والعادات السّائدة آنذاك بألفاظ تميّزت عموما بالخشونة حتى تخدم المعاني التي تتماشى مع الحياة البدويّة،ثم أخذ الشّعر مسارا آخر بظهور الإسلام الذي أكسبه رقة في الألفاظ التي أخذت تسيل من ألسنة الشّعراء المتأثرين بالهدي الكريم وألفاظه الراقية،وبعد أن توفرت الأسباب الحضارية في المجتمع الإسلامي،والتي ترأسها الركن الروحي -الإسلام-الذي غير مجرى الحياة العربية ونقلها من طور البداوة إلى طور الحضارة،بالإضافة إلى الانصهار الثقافي والحضاري بين الأمّة العربية وغيرها من الأمم الأخرى التي سبقت الحضارة العربية الإسلامية فكرا ومدنية،نجد أنّ الشّعر العربي قد تأثر بهذه البيئة الجديدة

شكلا ومضمونا،وتعدّى هذا الأثر إلى اللّغة العربية التي اكتسبت ألفاظا ومصطلحات جديدة أضافتها الحياة الحضارية بمختلف مقوماتها الروحية والمادية إلى المعجم العربي.

وتجدر الإشارة إلى غلبة العنصر الفارسي على تركيبة المجتمع الإسلامي إبان العصر العباسي لعوامل سياسية مختلفة،مما أدى إلى حدوث انصهار ثقافي وحضاري، وامتزاج جنسي بين العنصرين العربي والفارسي،مما كان له آثار على الحياة العربية التي أضفت على الشعر العربي طابعا خاصا،ونجد معظم شعراء هذا العصر يعنون بوصف المظاهر الحضارية التي استجدت وسط البيئة العربية، ويقتبسون مصطلحات جديدة جاءت بها الحضارات الوافدة ولاسيما الحضارة الفارسية.

وما يعنينا، هو أنّ الهدف من هذا البحث يكمن في الوقوف عند بعض نقاط التجديد في الشعر العربي التي اقتضته الحياة الحضارية إبان العصر العباسي ومدى تأثره بالثقافات والمدنيات السابقة؛ولاسيما الحضارة الفارسية التي انعكس ظلها على مجموعة من القصائد العربية، من بينها وصف البحتري لإيوان كسرى التي تعد بحق التجسيد الأعظم لهذه الحضارة، والتي تستحق الوقوف بين سطورها للكشف عن عدد غير قليل من الملامح الحضارية، وعلى المفردات الجديدة التي لم يكن للشعراء العرب عهد بها.

والبحتري شاعر عربي أصيل،اسمه الوليد بن عبادة[1]،ولد سنة 204ه في الشمال بجهة منبج شرقي حلب من سوريا،ولعل من أهم الأحداث التي ميزت حياته الأدبية اتصاله بأبي تمام الذي رعاه ماديا ودعمه أدبيا؛ولقد عاصر البحتري سبعة من الخلفاء العباسيين،ولكن الخليفة الأساس في حياته هو المتوكل الذي جعل له حظوة خاصة وأصبح شاعر القصر. وافته المنية نحو سنة 284ه[2].

لقد نظم البحتري سينيته المشهورة عندما رحل إلى بلاد فارس بعد وفاة المتوكل واضطراب الأمور السياسية من بعده، فراح يبكي دولة الفرس الزائلة، وكأنه وجد في وصفها مجالا للتخفيف عن آلامه بعد مصرع المتوكل الذي زال ملكه ونهب قصره مما كان له أثر في نفس الشاعر؛فقال أبياته الوصفية الوجدانية:[3]

صُنْتُ نَفْسِي عَمَّا يُدَنِّسُ نَفْسِـــي *** وَتَرَفَّعتُ عَن جَدا كُلّ جِبـــس
وَتَمَاسَكتُ حينَ زَعزَعَني الدّهـــ *** ـرُ التِماسًا مِنهُ لِتَعسي،وَنَكسي
بُلِغْ مِن صُبابَةِ العَيش عِنـــدي *** طَفَّفتها الأيّامُ تطفيفَ بَخـــس
وَبَعيدٌ مابَينَ وارِدِ رِفـــــهٍ *** عَلَلٍ شُربُهُ وَوارِدِ خِمـــــس
وَكَأنَّ الزّمانَ أصبَحَ مَحمـــــو *** لَا هَواهُ مَعَ الأخَسِّ الأخَـــسّ
وَاشتِرائي العِراقَ خِطَّةَ غَبـــنٍ *** بَعدَ بَيعي الشّآمَ بَيعَةَ وَكـــس
لاتُرُزني مُزاوِلًا لِاختِبـــاري *** بَـــعدَ هَذي البَلوى فَتُنكِرَ مَسّي
وَقديمًا عَهِدتَني ذا هَنـــــاتٍ *** آبياتٍ عَلى الدَنِيّاتِ شُمـــــس

وَلقد رابَني نُبُوٌّ ابنُ عَمّـــــي *** بَـــــعدَ لينٍ مِن جانِبَيهِ وَأنس
وَإذا ماجُفيتُ كُنتُ جَديـــــرًا *** أن أرى غيرَ مُصبِحٍ حَيثُ أمسي
حَضَرَت رَحلِيَ الهُمومُ فوَجَّهـــ *** ـتُ إلى أبيَضِ المَدائِنِ عَنسي
أتَسَلّى عَنِ الحُظوظِ وَآســـى *** لِـــمَحَلٍّ مِن آلِ ساســـانَ دَرس
أذكَرتِنيهُمُ الخُطوبُ التَوالـــي *** وَلَقد تُذكِرُ الخُطوبُ وَتُنسي
وَهُمُ خافِضونَ في ظِلِّ عـــالٍ *** مُشرِفٍ يَحسِرُ العُيونَ وَيُخسي
مُغلَقٍ بابُهُ عَلى جَبَلِ القبـــ *** ـــقِ إلى دارَتَي خِلاطٍ وَمُكس
حِلَلٌ لَم تَكُن كَأطلالِ سُعـــدى *** فـــي قِفارٍ مِنَ البَسابِسِ مُلس
وَمَساعٍ لَولا المُحاباةُ مِنّـــي *** لَم تُطِقها مَسعاةُ عَنسٍ وَعَبس
نَقَلَ الدَهرُ عَهدَهُنَّ عَنِ الـــ *** ـــجِدَّةِ حَتّى رَجَعنَ أنضاءَ لُبس
فَكَأنَّ الجِرمازَ مِن عَدَمِ الأنـــ *** ـــسِ وَإخلالِهِ بَنِيَّةُ رَمس
لَو تَراهُ عَلِمتَ أنَّ الليالـــي *** جَعَلَت فيهِ مَأتَمًا بَعدَ عُرس
وَهوَ يُنبيكَ عَن عَجائِبِ قـــومٍ *** لايُشابُ البَيانُ فيهِم بِلبس
وَإذا مارَأيتَ صورَةَ أنطـــا *** كِيَّةَ اِرتَعتَ بَينَ روعٍ وَفُرس
وَالمَنايا مَواثِلٌ وَأنوشِـــر *** وانَ يُزجي الصُفوفَ تَحتَ الدِرَفس
في اخضِرارٍ مِنَ اللِباسِ عَلى أصـ *** ـــقَرَ يَختالُ في صَبيغَةِ وَرس
وَعِراكُ الرِجالِ بَينَ يَدَيـــهِ *** في خُفوتٍ مِنهُم وَإغماضِ جَرس
مِن مُشيحٍ يَهوي بِعامِلِ رُمـــحٍ *** وَمُليحٍ مِـــنَ السِنانِ بِتُرس
تَصِفُ العَينُ أنَّهُم جِدُّ أحيـــا *** ءَ لَـــهُم بَينَهُم إشارَةُ خُرس
يَغتَلي فيهِم ارتِيابي حَتّـــى *** تَتَقَرّاهُمُ يَدايَ بِلَمـــس
قد سَقاني وَلَم يُصَرِّد أبو الغـــو *** ثِ عَلى العَسكَرَينِ شَربَةَ خُلس
مِن مُدامٍ تَظُنُّها وَهـــيَ نَجمٌ *** ضَوَّأَ الليلَ أو مُجاجَةُ شَمس
وَتُراها إذا أجَدَّت سُـــروراً *** وَارتِياحًا لِلشارِبِ المُتَحَسّـــي
أفرَغَت في الزُجاجِ مِن كُلِّ قَلـبٍ *** قَـــهيَ مَحبوبَةٌ إلى كُلِّ نَفس
وَتَوَهَّمتُ أنَّ كِسرى أبَرويـــ *** ـــزَ مُعاطِيٍّ وَالبَلهَبَدُ أنسي
حُلُمٌ مُطبِقٌ عَلى الشَكِّ عَينـــي *** أم أمـــانٍ غَيَّرنَ ظَنّي وَحَدسي
وَكَأنَّ الإيوانَ مِن عَجَبِ الصَنـــ *** ـــعَةِ جَوبٌ في جَنبِ أرعَنَ جِلس
يُتَظَنّى مِنَ الكَآبَةِ إذ يَبـــ *** ـــدو لِعَينَي مُصَبِّحٍ أو مُمَسّي
مُزعَجًا بِالفِراقِ عَن أنسِ إلـــفٍ *** عَزَّ أو مُـــرهَقًا بِتَطليقِ عِرس
عَكَسَت حَظَّهُ اللَيالي وَباتَ الـــ *** ـــمُشتَري فيهِ وَهوَ كَوكَبُ نَحس
فَهوَ يُبدي تَجَلُّدًا وَعَليـــهِ *** كَلكَلٌ مِن كَلاكِلِ الدَهرِ مُرسي
لَم يَعِبهُ أن بُزَّ مِن بُسُطِ الديـــ *** ـــباجِ وَاستَلَّ مِن سُتورِ الدِّمَقس
مُشمَخِرٌّ تَعلو لَهُ شُرُفـــاتٌ *** رُفِعَت في رُؤوسِ رَضوى وَقُدس
لابساتٌ مِنَ البَياضِ فَما تُبـــ *** ـــصِرُ مِنها إلّا غَلائِلَ بُرس
لَيسَ يُدرى أصُنعُ إنسٍ لِجِـــنٍّ *** سَكَنـــوهُ أم صُنعُ جِنٍّ لِإنس

غيرَ أنّي أراه يَشهَدُ أن لـــــم *** يَكُ بانيهِ في المُلوكِ بِكـــــس
فَكَأنّي أرى المَراتِبَ وَالقـــــو *** مَ إذا ما بَلَغتُ آخِرَ حِسّـــــي
وَكَأنَّ الوُفودَ ضاحينَ حَســـرى *** مِن وُقوفٍ خَلفَ الزِحامِ وَخنـــس
وَكَأنَّ القِيانَ وَسطَ المَقاصيـــــ *** ـــــر يُرَجِّعنَ بَينَ حُورٍ وَلَعس
وَكَأنَّ اللِقاءَ أوَّلَ مِن أمـــــــ *** ـــــسِ وَوَشكَ الفِراقِ أوَّلَ أمس
وَكَأنَّ الَّذي يُريدُ اِبتِباغـــــا *** طامِعٌ في لُحوقِهِم صُبحَ خَمـــس
عُمِّرَت لِلسُرورِ دَهرًا فَصـــارَت *** لِلتَعَزّي رِباعُهُم وَالتَأسّـــــي
فَلَها أن أعينَها بِدُمـــــــوعٍ *** موقفاتٍ عَلى الصَبابَةِ حُبـــس
ذاكَ عِنـــدي وَلَيسَتِ الدارُ داري *** بِاِقتِرابٍ مِنها وَلا الجِنسُ جِنسـي
غَيرَ نُعمى لِأَهلِها عِندَ أهلـــــي *** غَرَسوا مِـــن زَكائِها خَيرَ غَرسِ
أيَّدوا مُلكَنا وَشَدّوا قَـــــواهُ *** بِـــــكُماةٍ تَحتَ السَنَّورِ حُمس
وَأعانوا عَلى كَتائِبِ أريـــــا *** ط بِطَعنٍ عَلـــــى النُحورِ وَدَعس
وَأَراني مِن بَعدُ أكلفُ بِالأشـــــ *** ـــــرافِ طُرًّا مِن كُلِّ سِنخٍ وَأَس[4]

الدراسة الأدبية والفنية:

تقع قصيدة إيوان كسرى في (56) بيتا، وانطوت على مقدمة وخمسة مشاهد:

مقدمة القصيدة عبارة عن شعر وجداني، وتضمنت سبب رحلة الشاعر ومعاناته، فجاءت حافلة بالحزن والتشاؤم.

المشهد الأول: مشهد المدائن في ظل الحضارة الفارسية.

المشهد الثاني: مشهد الجرماز وهو عبارة عن بناء عظيم.

المشهد الثالث: وصف اللوحة الموجودة بأحد جدران الجرماز والتي تمثل معركة أنطاكية بين الروم والفرس.

المشهد الرابع: مشهد الخمرة.

المشهد الخامس: وصف عظمة إيوان كسرى.

تعد قصيدة البحتري في وصف إيوان كسرى من أروع القصائد الوصفية الوجدانية في الشعر العربي،ويشهد له الدارسون والنقاد كما يشهد مستواه الفني في نظم الشعر عموما والوصفي منه خصوصا على نبوغه في هذا المجال.وهذا أنيس المقديسي يشير إلى ذلك في قوله: "على أن الناظر في شعر البحتري المدقق في فهم شاعريته يرى له مزية جديرة بالذكر،وهي رشاقة الوصف الذي طبع بها شعره،فعرف بها، وجعلت له بين الشعراء مقاما عاليا..."[5] كما أشار إلى ميله للوصف الحسي أكثر من الوصف الخيالي وتدقيقه في رسم المحسوسات.[6] وهذا شوقي ضيف يؤكد ما سبق في قوله: "وكانت لدى البحتري قدرة بارعة في وصف مظاهر العمران بما أتيح له من دقة في التصوير والتعبير."[7]

وقد اهتم الدّارسون بالجانب الفني لسينية البحتري أيما اهتمام،ووقفوا عند خصائص وصفه وتصويره، وعند مميزات كل مشهد من مشاهد القصيدة، وأجمعوا

على براعته الفائقة في تصوير المرئيات التي يجسدها بعبقريته للقارئ الذي يحس وكأنه يتلمس جزئياتها، فينفخ الروح في كل هذا، ثم ما يلبث أن ينتهي من رسم الصورة في الأذهان حتى تجده يصف إحساسه وشعوره إزاء ما يصف.ومشهد أنطاكية واحد من المشاهد التي توقف عندها الكثيرين،منهم فرامرز ميزاريي الذي يقول: "شاهد البحتري صورة معركة أنطاكية التي انتصر فيها الفرس على الروم، ففاجأته اللوحة فأخذ يصفها وصفا دقيقا حتى يوشك من يقرأ صورة أنطاكية أن يراها رؤية العين في ملامحها التي نقلها الشاعر، فبلغ بذلك ذروة الفن الشعري في تعامله مع جسد اللوحة، فكأنها حقيقة واقعة،لا مجرد ألوان وخطوط جامدة على الجدران."[8]

أمّا أسلوب البحتري، فصدق ابن الأثير فيه حين وصفه بالسّهل الممتنع، ويتحدث الآمدي عن طريقة نظمه وأسلوبه في مقدمة موازنته فقال: "البحتري أعرابي الشعر، مطبوع على مذهب الأوائل، ما فارق عمود الشّعر المعروف، وكان يتجنب التّعقيد ومستكره الألفاظ ووحشي الكلام."[9] وهذا ما يبدو جليا في قصيدته هذه: فأسلوبه مباشر وبسيط،وقد تخير ألفاظا مناسبة وموحية تخدم المعنى القريب و لا تبتعد عنه، ولقد زادت حروف الصفير التي استعان بها الشاعر في ألفاظ قصيدته من حدة ذلك الجو الحزين، كما أن النص خلا من الألفاظ ذات الحروف المتنافرة وغلب عليه حسن تركيب العبارات.

وفي النص صور بيانية متعددة،نشير إلى بعضها: فقد وردت عدة استعارات منها قول الشاعر: زعزعني الدهر،كما ورد تشبيه مستوفي الأركان في البيت التاسع عشر...ونجد بعض المحسنات البديعية التي جاءت عفوية كون البحتري شاعرا مطبوعا لا يتكلف ولا يتصنع في شعره إلا ما اقتضاه سياق الكلام: كالطباق مثلا في:(تذكر وتنسي) و(مأتم وعرس). ولقد كان لاختيار الشاعر لبحر الخفيف وزنا وحرف السين رويا أثر في موسيقى النص التي تميزت بالعذوبة عموما بالإضافة إلى ذلك الأثر العميق الذي تتركه في نفسية القارئ.

المظاهر الحضارية في قصيدة إيوان كسرى:

إن أول ما يتراءى لنا بعد دراسة هذه القصيدة أن الشّاعر متأثر بمعطيات الحضارة الفارسية شكلا ومضمونا، ولعل السبب في ذلك يعود إلى غلبة الطابع الفارسي في عصره، وهذا ما أكدته المصادر العربية،إذ يذكر الجاحظ أن: "دولة بني العباس أعجمية خراسانية"[10] ويبدو هذا التأثير الشكلي جليا في ذكره لبعض أسماء الفرس وآثارهم: آل ساسان وأنو شروان وكسرى أبرويز والبهلبذ والجرماز وأبيض المدائن...وقد لا يتفانى الشاعر في أن يجعل بعض أبياته تنطوي على ألفاظ فارسية تناسب الجو العام للقصيدة كما في قوله:

لم يَعِبهُ أن بُزّ مِن بُسُطِ الديـــــ *** ـــباج وَاستُلّ مِن سُتور الدِّمَقس

وهذه ظاهرة حضارية جديدة في الشعر العربي يمكن إدراجها تحت اطار التواصل الحضاري بين الشعوب، والذي يترتب عليه غالبا التبادل اللغوي بين أمة

وأخرى، وتجدر الإشارة إلى أن:"اللغة العربية لم تتأثر بلغة أجنبية أخرى قدر تأثرها بالفارسية."[11]

ولم يقتصر هذا الأثر على الناحية الشكلية فحسب،بل تعداها إلى أبعد من ذلك حيث نجد الشاعر يغوص في أعماق الحياة الفارسية ليتوقف عند ظاهرة من ظواهر الحياة الحضارية فيها ألا وهي الرسوم والصور التي كان ينمق بها آل ساسان قصورهم وأوانيهم، ويتوقف عند صورة أنطاكية التي احتضنت ذكرى المعركة التي انتصر فيها الفرس على الروم ليصف فيها كل ما تقع عليه عينه المتأملة وفكره المثقف بالثقافة الفارسية،فهاهو ذا يصف عظمة الجيش الفارسي وهو يحمل رايته المقدسة، ويستعد للقتال بملابس خاصة للجند كانت ألوانها ما بين أخضر وأصفر، ومصبوغة بنبات الورس ذي الصبغة الحمراء، ونجده في وصفه لهذا المشهد مقرا بعظمة الحضارة الفارسية وبقدرتهم على إدارة الشؤون الحربية.

ومهما يكن من أمر، فإن البحتري شاعر ابن بيئته يصيب شعره ما يصيب بيئته من تطور أو تغير،وفي هذه القصيدة إشارة واضحة إلى تأثره بالحياة العلمية التي ازدهرت إبان هذا العصر بعدما نهل المسلمون من المجاري المعرفية المختلفة،وتأثروا بالكثير مما نقلوه عن اليونان وغيرهم، فنجد الشاعر في البيت الآتي يربط حظ الإيوان بحركة الأفلاك التي نقلت من كتب أجنبية خاصة بالفلك والتنجيم إلى اللغة العربية فيقول:

عَكَسَت حَظَّهُ الليالي وَبانَ الـــــ *** ـــمُشتَري فيهِ وَهوَ كَوكَبُ نَحس

ولا يخفى علينا ما كان سائدا المجتمع العباسي من مظاهر اجتماعية كثيرة تأثر بها العرب نتيجة لاختلاطهم بالأمم الأخرى وعلى رأسها شرب الخمر والغناء اللذان انتشرا بشكل أوسع مما سبق، فالشاعر لم يفوت فرصة التغني بمشهد الخمرة في قصيدته، وهو يحضر كسرى أبرويز نديما وبهلبذ كبير مغني الفرس إلى حضرة مخيلته.

ولقد اهتم الشاعر بوصف المظاهر المادية من الحضارة الفارسية،وهو يحاول أن يصف القصر الشاهق الذي سكنه آل ساسان في قوله:

وَهُمُ خافِضونَ في ظِلِّ عـــــالٍ *** مُشرِفٍ يَحسِرُ العُيونَ وَيُخسي

والشّاعر لم يمض قُبل أن يتوقف عند الجرماز، ذلك البناء العظيم الذي يجده خاليا وموحشا فيشبهه بالقبر، ولكنه يؤكّد عظمة القائمين عليه حتى تجلت روعته وبهاؤه بالرغم من خلوته. وهو في هذه الحالة الشعورية يجد أن إيوان كسرى يستحق الوقوف أيضا فيذكر أنه بالرغم من انتزاع أستاره الحريرية الجميلة والأردية الباذخة إلا أنه لازال شامخا كالجبال العالية؛ثم ما يلبث الشاعر أن نجده يصور ظاهرة أخرى من الظواهر السائدة آنذاك، والتي رافقت الشرب والغناء، وهي انتشار القيان، فيستحضر صورتهن بذاكرته وهن يرقصن أيام الحفلات والأعياد بأشكالهن المتباينة، محاولا أن يستعيد ذكريات اللهو التي خلفتها أيام الرفاهية.

كما ينبغي أن نشير إلى مظهر آخر عكسته القصيدة بعامة والأبيات الأخيرة بخاصة ويتمثل في نظرة الشاعر الحضارية إلى عظمة الفرس،وإقراره بفضلهم على العرب. وهذا إن كان يدل على شيء فإنما يدل على عظمة الحضارة العربية الإسلامية المتفتحة على الحضارات العالمية والتي أرادت أن تستفيد من الحضارات السابقة حتى تبني حضارتها.

خاتمة:

لقد استطاع البحتري كوصاف ماهر أن يصور لنا ملامح البيئة العباسية بمظاهرها الحضارية والاجتماعية السائدة آنذاك، ويبدو إعجابه بالحضارة الفارسية جليا في قصيدته مما يمكن أن نقول: إنه كان للشعوبية أثر كبير في شعره، وهو لا يتعصب للفرس بل يعترف بفضلهم على العرب،فيتوقف مليا ليترصد كل ما يلفت انتباهه من مشهد أعجب به فراح يصفه، ومن قصر بهره بناؤه فوصفه وصفا ماديا بدهشة وتأمل بالغين، ثم لم يمر دون أن يقف وقفة عابرة يصف من خلالها مشهد الخمرة تارة، ومشهد القيان في الحفلات والأعياد تارة أخرى، فعكست قصيدته مجموعة من المظاهر التي كانت منتشرة بكثرة في العصر العباسي من جراء الثراء وما نتج عنه من لهو ومجون. ولم يقتصر التأثير الحضاري المادي على هذه القصيدة بل تعداها إلى التأثير الثقافي من خلال توظيف بعض الألفاظ الفارسية من وجهة وبعض معطيات الحياة الفكرية التي تبناها المسلمون عن غيرهم من وجهة أخرى.

الهامش :

[1]-الفهرست، ابن النديم،تحقيق:رضا-تجدد،ج1،مكتبة مصطفى:190

[2]-ينظر: البحتري،نديم مرعشلي،ط2،دار الطلاس،دمشق،1987 :35 وما بعدها،الأدب العربي في العصر العباسي الثاني،شوقي ضيف،ط12،دار المعارف،مصر،2001 :270 وما بعدها.

[3]-ينظر: المرجع نفسه،شوقي ضيف،ن ص،أروع ما قيل في الوصف،يحيى شامي،دط،دار الفكر العربي، بيروت،1994 :104.

[4]-ديوان البحتري،تحقيق:فاروق الطباع،دار الأرقم،بيروت،دت:632 و ما بعدها.

[5]-أمراء الشعر العربي في العصر العباسي،ط17،دا العلم للملايين،بيروت1989 :249،250.

[6]-ينظر: المرجع نفسه:252.

[7]-تاريخ الأدب العربي في العصر العباسي الثاني:295.

[8]-تلقي الصورة في قصيدة إيوان كسرى،مجلة دراسات في اللغة العربية وآدابها،فصلية محكمة،العدد1،2010: 1

[9]-الموازنة بين أبي تمام والبحتري، الآمدي،ط1،مكتبة مصطفى:2

[10]-تيارات ثقافية بين العرب والفرس،أحمد محمد الحوافي،ط3،دار النهضة، القاهرة1978 :96.

[11]-اللغة الفارسية،محمد نور الدين عبد المنعم،دط،دار المعارف،مصر،دت:44

القلم

إنّ مجلة (القلم) في عددها الثاني (32) والثلاثين - قد جاء غنيا بالموضوعات المتنوّعة في العلوم الإنسانية المختلفة.

تنوعت موضوعات هذا العدد؛ ذلك أنّ القارئ الكريم يجد فيه ماله صلة بالقرآن الكريم واللغة والمعجم والنحو والبلاغة والنقد والرواية والمسرح والعادات والتقاليد والتراث الشعبي والمنهج

إن العدد الثاني والثلاثين - وهو العدد الأول لسنة (2015م) - لغني بالمقالات في العلوم الإنسانية المختلفة لهذا فهو جدير بالقراءة.

المدير